

المهاد

بين الزرع والحيد

تأليف
السيد محمد تقى فاسنى

ترجمة
عبد الحسين الكاظمى

الجزء الثاني

منشورات
مؤسسة الأعلى للطبوعات
بيروت - لبنان

المعاد

بين الروح والجسد

المعاد

بين الروح والجسد

تأليف

الشيخ محمد قتيبي

ترجمة

عبد الحسين الكاشي

الجزء الثاني

منشورات

مؤسسة الأعلی للطبوعات

بيروت - لبنان

ص. ب. : ٧١٢٠



الطبعة الأولى
جميع حقوق الطبع والترجمة والإقتباس محفوظة للناشر
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

PUBLISHED BY
Al Alami Library

BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة.

ملك الاعلي . ص. ب. ٧١٢٠
الهاتف : ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة الحادية عشرة

نهاية العالم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١).

العالم بدايته ونهايته :

إنَّ الكون بكلِّ عظمته ، وبكل ما يحتويه من كائنات ومخلوقات ، ليس أزلياً ولا أبدياً ، إذ لم يكن موجوداً منذ ما لا نهاية من الزمن ، وسوف لن يبقى موجوداً إلى ما لا نهاية . فالكون وما فيه خُلق في فترةٍ معيّنة ، وفي ظل ظروفٍ خاصّة ، وله عمر محدود ، وأجل معلوم . وإذا ما انتهى عمر الكون وأجله ، فإنه يزول وينقرض .

وهذا الموضوع أمر مؤكد وثابت من وجهة نظر الدين والعلم .

على أن القرآن الكريم يتحدث عن موضوع السموات والأرض وعمرها أو أجلها المحدد والمعلوم ، وكذلك الأجل المعلوم لكافة الكائنات والمخلوقات

(١) سورة يس ؛ الآيتان : ٤٩ و ٥٠ .

الأرضية والسماوية ، يتحدث عن كل هذه الأمور بصيغ وعبارات مختلفة .

ويؤكد هذه الحقيقة التي هي تقدير إلهي محتوم لجميع هذا الكون بكل ما فيه من كائنات ومخلوقات ، يؤكدها بعبارات مختلفة . فالقرآن يستخدم كلمة (أجل) لتبيان العمر المحدود لجميع الكائنات والمخلوقات في هذا العالم ، وقد وردت هذه الكلمة في الكثير من الآيات القرآنية نشير فيما يلي إلى بعض منها .

عمر السموات والأرض :

وحول خلق السموات والأرض والكائنات ، والتي لها أجل معلوم ومعين يقول القرآن الكريم : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (١) .

وحول العمر المحدد للشمس والقمر يقول القرآن الكريم : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢) .

وحول خلق الإنسان ، والأجل المحتوم لكل فرد يقول القرآن الكريم : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ (٣) .

والنقطة الجديرة بالإهتمام في هذا المجال ، هي أنّ القرآن الكريم استخدم عبارة «أجل مسمى» عندما يشير إلى السموات والأرض وجميع المخلوقات والكائنات الموجودة فيها ، في حين يستخدم كلمة «أجل» عندما يشير إلى الإنسان ، كما يستخدم إلى جانبها عبارة «أجل مسمى» ، ومن ثم يؤكد القرآن الكريم في الآية السابقة بأن «الأجل المسمى» هو عند الله .

(١) سورة الروم ؛ الآية : ٨ .

(٢) سورة الرعد ؛ الآية : ٢ .

(٣) سورة الأنعام ؛ الآية : ٢ .

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : لماذا استخدم القرآن الكريم كلمة ﴿أجل﴾ مرتين حينما يشير إلى الإنسان ، وما هو الفرق بين ﴿الأجل﴾ و﴿الأجل المسمى﴾ ؟ .

بعض المفسرين يقولون : إن ﴿أجل﴾ الأولى تتعلق بالحياة الدنيا ، أما ﴿أجل مسمى﴾ فهي تختص بعالم الآخرة .

والبعض الآخر من المفسرين يقول : بأن ﴿أجل﴾ يختص بالفترة الزمنية الممتدة من الولادة وحتى الممات ، أما ﴿الأجل المسمى﴾ فهو يختص بالفترة الممتدة من لحظة الموت وحتى القيامة .

الأجل المحتوم والأجل غير المحتوم للإنسان :

ولكن يستفاد من بعض الروايات المنقولة عن أولياء الإسلام بأن المراد من كلمة ﴿أجل﴾ الأولى (التي وردت في سورة الأنعام الآية الثانية) . الأجل غير المحتوم القابل للتغيير ، و﴿الأجل المسمى﴾ هو الأجل المحتوم والمصير الذي لا مرد له ولا يمكن تجنبه .

(عن حمران ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : سألتُهُ عن قولِ الله عزَّ وجلَّ ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ، قال عليه السلام : «هما أَجَلَان : أَجَلٌ محتومٌ ، وَأَجَلٌ موقوفٌ»^(١) .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، في قوله (تعالى) : ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال : «الأجل الذي غيرُ مُسَمًّى موقوفٌ يصنعُ الله ما

(١) الكافي : المجلد الأول ، باب البداء ، صفحة ١٤٧

يشاء ، وأجلٌ محتومٌ»^(١) .

(عن حُصَيْنٍ ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، في قوله : ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ ، قال أبو عبد الله عليه السلام : «الأجلُ الأوَّلُ هو ما نَبَذَهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَالْأَجَلُ الْمُسَمًّى عِنْدَهُ هُوَ الَّذِي سَتَرَهُ اللَّهُ عَنِ الْخَلَائِقِ»^(٢) .

المصير الذي لا مفرّ منه :

ولتوضيح هذه النقطة نقول : إنّ الموت بالنسبة للإنسان هو مصير محتوم ومقدّر ومؤكّد ، ولا يستطيع أي إنسان مهما اتّبع من أساليب ، ومهما قام به من خطوات وإجراءات وتدابير أن ينقذ نفسه من الموت ، ويجنبها هذا القضاء المحتوم الذي لا يمكن تجنبه ، مهما كان المنصب الذي يشغله هذا الإنسان ، والمكانة التي يتمتع بها في المجتمع .

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(٣) .

والموت ، بالنسبة للإنسان يقع ويحدث على نحوين أو صورتين : فإما أن يكون الموت طبيعياً ، أو غير طبيعي (اخترامياً) .

فالشخص الذي يراعي طوال فترة حياته الأصول الصحية ، ولم يتعرض لأي حادث يودي بحياته ، ولم يصب بأي مرض ، وبالتالي يعيش في هذه الدنيا سنين طويلة ، ثم يموت بعد ذلك بسبب الشيخوخة ، وانتهاء طاقاته وقواه الحياتية ، هذا الشخص يكون موته طبيعياً . أما الذي يموت قبل أوانه نتيجة لحادث مميت يتعرض له ، وهو لا يزال في منتصف العمر ، ويتمتع بقواه وطاقاته

(١) تفسير الميزان : المجلد ٧ ، صفحة ١٢ .

(٢) تفسير البرهان : المجلد الأول ، صفحة ٥١٧ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ٧٨ .

الجسمانية ، فهو يغادر هذه الدنيا بالموت الإخترامي^(١) .

أما الموت الذي يؤجل عن مواعده المقرّر عند الله ، بسبب دفع الصدقات وصلة الأرحام والدعاء ، وغيرها من الأمور ، وكذلك الموت الذي ينزل بالإنسان قبل مواعده المقرر عند الله بسبب ارتكاب بعض أنواع الذنوب ، فيسمّى ﴿الأجل﴾ .

أمّا الموت المحقق الوقوع في القضاء الإلهي ، ولا يعلم ساعة تحقّقه إلاّ الله ، فإن القرآن يسمّي هذا النوع من الموت بـ﴿الأجل المسمّى﴾ ، وهذا النوع من الموت لن يتأخر أو يؤجل عن مواعده المقرر والمكتوب عند الله الذي يؤكد في الآية الكريمة التالية وقوع هذا الموت باستخدام صيغة النفي الأبدي ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) : ﴿وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾^(٢) .

والأجل المسمّى ، أي الموت غير القابل ، لا يختص فقط بالأفراد الآدميين ، بل إنّ الإنسان النوعي ، وأنواع الحيوانات لها أيضاً أجل مسمّى علمه فقط عند الله .

وعندما ينتهي عمر الأفراد وكذلك الحيوانات ويحل أجلها المسمّى ، فإنها تنقرض بدون لحظة تقديم أو تأخير ، ويضع الموت حداً ونهاية لحياتها النوعية .

انقراض الأجناس :

لقد اتضح من خلال البحوث والدراسات بأنّ أنواعاً من الحيوانات عاشت على هذه الأرض وتكاثرت وتناسلت لمئات الألوف من السنين خلال العصور

(١) اختَرَمَ ، خَرَمَ ، اخترمه الموت : أخذه . نقلاً عن المنجد في اللغة
(المترجم) .

(٢) ، سورة التغابن ؛ الآية : ١١ .

والأزمة الماضية ، وعندما حلّ أجلها وانتهى عمرها انقرضت بحكم القضاء التكويني لله وزالت من الوجود ، وقد أمكن فقط العثور على هياكل عظمية لهذه الحيوانات خلال عمليات التنقيب العلمية .

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾^(١) .
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٢) .

أجل الأمم :

إنّ كلمة ﴿أمم﴾ التي وردت في الآية الأولى ، تشمل جميع الدواب على الأرض وجميع الطيور في السماء ، كما أنّها تشمل البشر أيضاً . والآية الثانية تتحدث عن موت أمة ، حيث تؤكد هذه الآية الكريمة بأن الأمم كالأفراد لها أجل مسمّى ، إذا جاء هذا الأجل وحلّ مواعده فإنه لا يتأخر ولا يتقدم لحظة واحدة .

على أن الشمس والقمر والسّموات والأرض ، وجميع الموجودات المخلوقة فيها ، هي كالإنسان وأنواع الحيوانات لها أجل مسمّى ومصير محتوم لا يتقدّم ولا يتأخر .

ونظراً لأن الأجل المسمّى علمه عند الله (تعالى) فقط ، فيجب القول بأنه لا أحد غير الله يعلم بالوقت المحدد لانقراض العالم وزواله وكيفية حدوث ذلك ، وأن ما يقوله العلماء والفلكيون في هذا المجال لا يخرج عن إطار الفرضيات والإحتمالات ، وأحياناً يقوم طبيب حاذق جداً بإجراء فحوصات كاملة لرجل في الخمسين من العمر ، وبعد إجراء سلسلة من التحاليل المخبرية يقول الطبيب :

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ٣٨ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٤ .

إنَّ هذا الشخص سليم ويتمتع بصحة جيدة ، وإذا ما عاش هذا الرجل حياته بصورة طبيعية دون أن يتعرض لأي حادث ، كالصعقة الكهربائية ، أو الحروق ، أو الغرق ، أو السقوط من مرتفع ، أو الدهس بالسيارة وغيرها من الحوادث (المميتة) الأخرى ، فإنه يمكن أن يعيش مائة عام .

إنَّ هذا الطبيب أولاً : لا يعرف ما إذا كان هذا الشخص سيتعرض في المستقبل لحادث مميت أم لا ، وهو يعرف ثانياً : بأن هذا الشخص الذي أُجريت له فحوصات طبية إذا لم يتعرض لأي حادث ولم يموت بصورة اخترامية ، فإن تحديد فترة مائة عام كأقصى فترة يعيشها هذا الشخص ، هذه الفترة لا يمكن الجزم بها وتأكيدا ، لأن الشخص المذكور قد يموت قبل أن يبلغ المائة عام بعدة سنوات أو عدة أشهر ، كما أنه قد يموت بعد تجاوزه المائة عام بعدة سنوات أو عدة أشهر .

وخلاصة الكلام : أن الطبيب مهما كان حاذقاً لا يستطيع أن يحدد بالطرق العلمية ، وبشكل دقيق تماماً اللحظة التي يموت فيها الشخص بصورة طبيعية .

مقارنة بين موت الإنسان وموت الكون وزواله :

إنَّ الأجل المسمّى للمجموعة الكونية من حيث القابلية يمكن أن يكون طبيعياً ويمكن أن يكون اخترامياً .

فالشمس المشرقة تميل إلى الظلام والانطفاء شيئاً فشيئاً ، وبالتالي تفقد نورها وأشعتها وتصبح جرمًا أو كوكبًا ميتًا يتيه في هذا الفضاء السحيق ، وذلك بسبب نفاد مخزونها من غاز الهيدروجين ، ومن الممكن أن تنفجر الشمس من الداخل وهي في منتصف عمرها الطبيعي ، وقبل أن تنفذ المواد القابلة للإحتراق الموجودة فيها ، كما أنَّ الشمس يمكن أن تنفجر (وتتلاشى) نتيجة اصطدامها بجرم أو كوكب سماوي كبير الحجم ، أو نتيجة لأي سبب آخر ينهي حياة الشمس ويجعلها تزول وتموت موتاً اخترامياً .

على آية حال فإن القرآن الكريم يشير بصراحة إلى أن الشمس لها **﴿أجل مسمى﴾** وأمد معين ، وعمرها محدد وفقاً للتقدير الإلهي الحتمي ، ولكن لا أحد يعرف هذا المصير المحتوم ، وفترة تحققه إلا الذات الإلهية المقدسة .

العمر المنقضي والمتبقي للشمس :

وكما ذكرنا من قبل ، فإن العلماء يعتقدون بأن النور المنبعث من الشمس هو نتيجة لانفجار نووي هايدروجيني ، حيث يتحول الهايدروجين إلى غاز الهيليوم ، ومن خلال المحاسبات والمعادلات الرياضية التي قاموا بها لتحديد العمر الطبيعي لكوكب الشمس . فقد توصل هؤلاء العلماء إلى هذه النتيجة ، وهي : أن الشمس وجدت قبل ملايين السنين ، وأن كمية الهايدروجين المخترنة في الشمس تؤهلها للبقاء بصورة طبيعية لملايين قادمة من السنين .

يقول العلماء بأنه عندما تنفذ كميات الهايدروجين الموجودة في الشمس بصورة تدريجية ، فإن أشعة الهيليوم المحرقة الموجودة في الأجزاء المركزية من الشمس تبدأ بالإنطلاق ، وعند ذلك ترتفع درجة الحرارة في الشمس إلى درجة تصبح فيها الحياة غير ممكنة أو صعبة جداً - على أقل تقدير بالنسبة للكائنات الحية المتكاملة (كالإنسان والحيوانات التي تعيش على سطح الأرض) - ولهذا السبب فإن بعض العلماء في عصرنا الحاضر تحدثوا عن الأوضاع البيئية والجوية التي يمكن أن تسود في مثل تلك الظروف ، وكشفوا عن توقعاتهم حول كيفية بقاء الإنسان حياً في ظل تلك الظروف البيئية والجوية .

تغير نسبة أو كمية الإشعاعات الشمسية :

«إن نسبة الإشعاعات الشمسية تزداد مائة مرة ، وتتجاوز درجة الحرارة على سطح الأرض درجة غليان الماء ، وعليه فمن الصعب في مثل هذه الظروف تصور إمكانية بقاء أي كائن حي على وجه الأرض ، ولكن من المحتمل جداً أن يحقق العلم تقدماً هائلاً

خلال الملايين القادمة من السنين ، بحيث يصبح من الممكن في ظل هذا التطور العلمي بناء ملاجئ خاصة تحت الأرض تمكن الإنسان من مواصلة حياته الطبيعية (في ظل تلك الحرارة الهائلة) ، أو أن يتمكن الإنسان من الهجرة إلى أحد الكواكب البعيدة عن الأرض التي تتمتع بدرجة حرارة أقل مما هي عليه على سطح كوكب الأرض ، حيث يواصل الإنسان حياته على سطح ذلك الكوكب .

والنقطة التي يجب أن نشير إليها في هذا المجال هي أن التغير في كمية الإشعاعات الشمسية لا يحدث بصورة مفاجئة ، بل إنها تحدث بصورة بطيئة جداً وبكل هدوء وتأن .

إذن ، نستخلص من المحاسبات (الرياضية والعلمية) بأن الشمس في كل المراحل التي مرّ بها العالم . لم تفقد سوى ١٪ من مخزونها من الهيدروجين ، وعليه فإن الحرارة على سطح الأرض لن ترتفع أكثر من بضع درجات . وعلى هذا الأساس فإن التفاعلات الحرارية النووية التي تحدث في الشمس ليست بتلك الدرجة من الشدة ، بحيث أنها تتسبب في وقوع كارثة كونية ، بل إنّ الأوضاع التي تنشأ (في مثل هذه الحالة) يمكن التكهن والتنبؤ بها ، بحيث أن من الممكن تجنب أبناء البشر كارثة ودماراً شديدين من خلال التوجه إلى الكواكب الأخرى ، مثل كوكب نبتون واستعمارها ، كما أن الزيادة التدريجية والبطيئة في درجة حرارة الأرض تحدث تغييرات تدريجية في عالم الكائنات الحية تجعلها تتأقلم يوماً بعد يوم ، وبالتالي تعتاد أكثر على درجات الحرارة المرتفعة فوق سطح الأرض»^(١) .

(١) بيدايش ومرگ خورشيد (تكوّن الشمس وموتها) : صفحة ١٣٣ .

درجة حرارة الأرض في المستقبل :

إذا كان التقدير الإلهي المحتوم هو أن تواصل الشمس بث أنوارها وأشعتها ، ونشر أضوائها بصورة طبيعية دون أن تواجه أيّ حادث مفاجيء غير متوقع ، عندها يمكن القول بأن العمر التقريبي للشمس وفقاً للمحاسبات العلمية هو نفس العمر الذي قدره العلماء المتخصصون (في القضايا الفلكية) ، حيث أعلن هؤلاء العلماء بأن الشمس بإمكانها أن تواصل بقاءها لملايين أخرى من السنين .

وإذا كان التقدير الإلهي المحتوم ، هو أن يعيش البشر (فوق هذه الأرض) بصورة طبيعية ، ولا يواجه أي حادث في منتصف الطريق يؤدي به إلى الفناء والدمار فوق الكرة الأرضية ، فإن هذا الإنسان يبقى حياً ، ويواصل حياته ومعيشته .

وإذا ما أصبحت حياة البشر على سطح الأرض غير ممكنة في يوم ما نتيجة ارتفاع حرارة الشمس (وبالتالي ازدياد درجة الحرارة على سطح الأرض) . فإن البشر - وكما يقول «جوج غاموف» - يقوم أما ببناء ملاجئ تحت الأرض تحميه من شدة الحرارة ، وإما أنه يهاجر إلى الكواكب الأخرى التي تتوفر فيها الظروف الملائمة لحياة الإنسان . وإذا قضت المشيئة الإلهية أن تزول الشمس والنجوم والكواكب بصورة غير طبيعية وتتلاشى وهي في منتصف العمر نتيجة حادث مفاجيء وفقاً للأجل المسمى الذي قدره الله لها ، فإنه لا داعي ولا ضرورة لحساب عمر الشمس ، كما أنه إذا تقرر أن ينقرض البشر ويزول نتيجة عامل أو حادث غير عادي وبصورة مفاجئة ، فإن البشر لا يواجه ضرورة إنشاء الملاجئ أو الهجرة إلى كوكب سماوي آخر .

زوال العالم وانقراض البشرية :

يتبين من خلال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث والروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام - وهو ما سنشير إليه بالتفصيل في هذا الفصل - بأن انقراض البشر

والكائنات الحية في العالم وزوال هذا العالم والشمس والكواكب والمجرات الكونية يتم دفعة واحدة (وبصورة مفاجئة) نتيجة ضربة أو ضربات عنيفة جداً لا يعرف مصدرها ولا يمكن تصور طبيعتها ، حيث تموت الكائنات الحية الأرضية والسماوية دفعة واحدة ، وينتهي قانون الحياة ويتوقف ، ويلتف كوكب الشمس ويصبح مظلماً ، وتتساقط النجوم وتتهاوى وتُسجَّر البحار : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (أي أُضِرِمَت ناراً وغيضت مياهها)^(١) . وتصبح الجبال ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي تتحول إلى غبار ناعم دقيق يرتفع في الهواء ، ويتزلزل النظام الكوني ويختل ، وينتهي عمر العالم وكل ما يعيش فيه (من بشر وغيره) . وكما يظهر من خلال الآيات القرآنية المباركة والأحاديث والروايات المنقولة عن أولياء الدين (الأئمة عليهم السلام) فإن جميع هذه الوقائع والأحداث التي قضت المشيئة الإلهية المحتمة بحدوثها ، هي كالحلقات المترابطة المتصلة ببعضها البعض ، وهذه الأحداث تقع بالترتيب الواحد تلو الآخر .

ويقول علماء الفلك : تظهر بين الحين والآخر في هذا الفضاء السحيق نجمة تبدو نجمة عادية جداً ، بل وضعيفة (من حيث النور الذي ينبعث منها) ، وفجأة تنفجر هذه النجمة أو هذا الكوكب بشكل مدهش وعجيب ، ويزداد إشعاعها ملايين المرات ، بل وتصبح من أكثر النجوم أو الكواكب إشراقاً وتلألؤاً ، ولكن هذا الإشراق والتلألؤ الذي يبهر العيون له طابع مؤقت ، إذ إنه سرعان ما يخفت خلال فترة قصيرة جداً ، وينطفئ في نهاية الأمر .

وتذكر الكتب التي تعنى بالقضايا العلمية بأن مثل هذه الانفجارات كثيراً ما تحدث في المجرات والكواكب البعيدة الموجودة في هذا الفضاء السحيق اللامتناهي ، حيث أن بعض هذه الانفجارات لا تُرى بالعين المجردة ، ولكن مثل هذه الانفجارات تحدث حوالي عشرين مرة في العام في منظومتنا الشمسية .

(١) المفردات في غريب القرآن .

إنَّ الانفجارات التي تحدث أحياناً في بعض الكواكب لا يمكن مقارنتها مع الانفجارات الشاملة والنهائية التي تحدث عندما تحين نهاية العالم ، فالانفجارات التي تقع في الأجرام السماوية بين الحين والآخر هي انفجارات موضعية تحدث في مكان معين وفي نطاق محدود ، وينتقل أثرها في مساحة محدودة جداً . أما الانفجارات التي تحدث عندما يحين موعد انقراض العالم ونهايته ، فهي انفجارات شاملة تعمّ العالم والكون بأسره ، وتنعكس آثارها على نطاق واسع جداً في هذا الكون . كما أن الانفجارات الموضعية (المحدودة) لا تسبب في انهيار واختلال النظام الكوني ، ولا تحدث اختلالات وإرباكات في سنن الخلقة الإلهية ، أمّا الانفجارات الشاملة (التي تحدث في آخر الزمان عندما يحين أجل العالم) ، فإنها تُخلّ بنظام السموات والأرض (النظام الإلهي الكوني) ، وتضع نهاية لسنن الخلقة الإلهية التي تتحكم بالنظام الكوني .

والانفجارات الموضعية حتى إذا حدثت فوق الكرة الأرضية التي هي مجرد جرم أو كوكب صغير في هذا العالم ، فإنها لا تترك تأثيراً مدمراً وضاراً ، أما الانفجارات الشاملة فإنها تغير أوضاع الكرة الأرضية تماماً ، وتقضي على الكائنات الحية الموجودة على سطح الأرض ، وتضع نهاية لقانون الحياة بحيث لا يبقى أي أثر للحياة النباتية والحيوانية والإنسانية .

ونشير في هذا الفصل من الكتاب إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث المرتبطة بهذا الموضوع : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾^(١) .

وقد نظم أحد الشعراء الإيرانيين أبياتاً شعرية بالفارسية حول مضمون هذه الآية الكريمة يقول فيها ما معناه : عندما تُلْف الشمس وتُضمّ إلى بعضها البعض ويسود الظلام هذا العالم المتلاطم المليء بالأحداث والتغيرات ، وعندما تفقد

(١) سورة التكوير ؛ الآيات : ١ - ٣ .

النجوم نورها وتصبح ظلماء دامسة ، وعندما تتحرك الجبال من أماكنها (كأنها رمال متحركة) ، عندها لا تعود ترى سماءً ولا نجومًا ولا كواكب ولا يعود هناك وجود بشكل عام سوى وجود الله الواحد الحيّ الودود .

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾^(١) أي عندما تنشق السماء وتتهاوى وتتساقط النجوم ، وتظهر شقوق واسعة في البحار والمحيطات .

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾^(٣) ، أي عندما تصبح السماء كالنحاس الذائب والجبال كالصوف المندوف .

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾^(٣) ، أي عندما تتحرك السماء كأنها بحر موّاج ، وتبدأ الجبال بالتحرك بسبب هشاشتها ورخاوتها .

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾^(٤) ، أي يوم ترتج الأرض وتضطرب وتتفتت الجبال وتصبح كغبار يدور وينتشر في الفضاء .

الإنفجارات الكونية الهائلة :

إنّ ما يحدث عند زوال العالم وانقراضه نتيجة الانفجارات الكونية الهائلة - وهو ما أشارت إليه الآيات القرآنية وأخبرت به الأحاديث الشريفة - ، هو أمر عظيم يبعث على الدهشة والحيرة ، إلى درجة أن الأفراد العاديين يعجزون عن درك وفهم هذا الأمر ، بل حتى علماء الفلك غير قادرين على تصور تلك الأحداث التي هي أساساً غير قابلة للتصوّر .

(١) سورة الإنفطار ؛ الآيات : ١ - ٣ .

(٢) سورة المعارج ؛ الآيتان : ٨ و ٩ .

(٣) سورة الطور ؛ الآيتان : ٩ و ١٠ .

(٤) سورة الواقعة ؛ الآيات : ٤ - ٦ .

ويجدر بنا أن نذكر في هذا المجال بأن العلماء رغم كل ما حققوه من تقدم في مجال العلوم الفلكية ، لم يتمكنوا من معرفة سبب وقوع الانفجارات الموضوعية على مدى العام في بعض الكواكب أو النجوم ، فهؤلاء العلماء يقولون بصراحة : لا نعرف لما يتلاشى أحد الكواكب بصورة مفاجئة في بعض الأحيان ، دون أن تظهر علامات وشواهد مسبقة (تدل على قرب انفجار كوكب معين وتلاشيه) .

وكل ما قام به العلماء في هذا المجال هو وضع نظريات لم تثبت صحة أي منها علمياً حتى الآن ، ونحن بدورنا نشير إلى بعض تلك النظريات توخياً لمزيد من التوضيح :

نظريات حول الانفجارات الكونية :

«ما هو العامل الفيزيقي (المحرك) الذي يجعل الكواكب والأجرام السماوية تنفجر ، رغم أن هذه الأجرام السماوية تبدو طبيعية في ظاهرها ؟ .

هنا يجب أن ندعن ونعترف بأننا - وفي عصرنا الحاضر - لا نعرف شيئاً في هذا المجال ، وكل ما نستطيع القيام به هو مجرد دراسة الظروف المختلفة التي قد تكون هي السبب في حدوث مثل هذه الظاهرة . ولعل من أبسط الفرضيات في هذا المجال هي أن نعتبر هذه الظاهرة نتيجة مؤثر خارجي كأن يصطدم هذا الجرم أو الكوكب بعائق ما في الفضاء وينتج عنه هذا الانفجار .

الفرضية الأخرى في هذا المجال هي أننا نعلم بأن الفضاء الموجود بين الكواكب والمجرات السماوية يحتوي على مواد كثيرة قليلة الكثافة (رقيقة) ، وهذه المواد ذات الكثافة قليلة بقت في الفضاء بعد نشوء الكواكب والمجرات والأجرام السماوية .

وهذه المواد التي هي على شكل غيوم منتشرة بين النجوم

والكواكب والتي يعبر عنها (بسحب الغازات والغبار) غالباً ما تكون مضيئة ، تستمد ضياءها من الكواكب المجاورة لها ، حيث تظهر هذه السحب على شكل كتل ضخمة من الغيوم المضيئة .

وإذا حدث أن دخل كوكب أو جرم سماوي في هذه السحب وهو يسير بسرعة هائلة ، فإنه ينفجر بعد أن ينبعث منه نور شديد ، تماماً كما يحدث عندما يدخل جرم سماوي جو الأرض ، حيث يتوهج بشدة (وينفجر ويتلاشى أثر ذلك) .

التفاعلات الحرارية :

إذا كنا لا نريد حل لغز انفجار النجوم والأجرام السماوية عن طريق التغييرات النووية التي تلعب دوراً مهماً في وجود هذه الأجرام أو الكواكب واستمرار بقائها : فعلياً - والحالة هذه - أن نأخذ بنظر الإعتبار التفاعلات الحرارية النووية التي تحدث عندما تتجاوز درجة الحرارة في مركز الكوكب (خلال مرحلة تكامله) حدّ الخطورة القصوى (وعندما ينفجر الكوكب ويتلاشى في الفضاء)»^(١) .

ذكرنا من قبل بأن القرآن الكريم يذكر بأن السماء والأرض والشمس والنجوم والكواكب وجميع الكائنات الحية التي تعيش فوق سطح الأرض أو في السماء لها أجل معين ، حيث أنها تموت جميعاً وتزول وتنقرض عندما يحين أجلها وفقاً للمشيئة الإلهية المحتمة ، فالله (سبحانه وتعالى) لا يحتاج إلى سبب أو وسيلة لخلق شيءٍ ما أو إماتة كائنٍ ما والقضاء عليه ، حيث أن المراد يتحقق بإرادة الخالق ومشيئته ، وهذا الأمر يؤكد القرآن الكريم كما تؤكد الأحاديث والروايات الشريفة .

(١) بيدائش ومرگ خورشيد (تكون الشمس وموتها) صفحة ٢٠٣ .

الإرادة الإلهية في الخلق :

يقول الله (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) . (عن الرضا عليه السلام)
قال : «كُنْ مِنْهُ صُنْعٌ وَمَا يَكُونُ بِهِ الْمَصْنُوعُ»^(٢) .

إنَّ الله القادر ليس بحاجة إلى وسيلة أو سبب في خلقه للكائنات ،
فمجرد إرادته توجد المراد وطلبه يُنشئ المطلوب ، ولكن مشيئة الله وإرادته
الحكيمة قضت بأن يقوم عالم الوجود وينشأ وفقاً لنظام دقيق ومدروس ، والله
(سبحانه وتعالى) يأبى بأن تسير شؤون العالم بدون تلك الوسائل والأسباب التي
قرَّرها بمشيئته .

(عن أبي عبدالله (الصادق) عليه السلام أنه قال : «أبى الله أن يُجريَ الأشياء
إلا بأسبابٍ فجعلَ لكلِّ شيءٍ سبباً»^(٣) .

الله هو الشافي ، ولكن هذا الفيض الإلهي يمر عبر الطبيب والدواء ، كما
أنَّ الرازق هو الله ، ولكن السبيل للحصول على الرزق هو (ممارسة النشاط
والعمل مثل الزراعة) ، وكذلك فإن الهادي هو الله ولكن هذه الهداية تصيب
الناس عن طريق الأنبياء .

وخلاصة القول : أنَّ إرادة الله شاءت - وفقاً لحكمة ومصالحة معينة - أن
تسير شؤون هذا العالم في نطاق الأسباب (أي أن يكون لكل شيء يحدث في
العالم سبباً معيناً)^(٤) ، ولكن هذا لا يعني بأن الله (تعالى) قد تجرد من قدرته
ولم يعد قادراً على تحقيق إرادته خارج إطار العلل والأسباب (والعياذ بالله) ،

(١) سورة يس ؛ الآية : ٨٢ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ٤٥٣ .

(٣) أصول الكافي : المجلد ١ ، صفحة ١٨٣ .

(٤) المترجم .

بل إنه (سبحانه وتعالى) هو القدرة بعينها ، وهذه القدرة هي أصل في ذات الله ولا يمكن تجريده منها . فكل ما يريد الله يحدث ويتحقق دون أن يحتاج إلى سبب لحدوثه .

لقد أشار القرآن الكريم في العديد من الآيات الشريفة إلى انقراض العالم وزواله ، وجاء في تلك الآيات المباركة أنه عندما يحين أجل العالم وينتهي عمر الكون ، فإن الشمس تفقد نورها وتصبح مظلمة وتلتف كما تلتف العمامة ، وتتساقط النجوم والكواكب وتهاوى من أماكنها ، وتموت كافة المخلوقات الأرضية منها والسماوية ، وينهار بناء الخلقة العظيم ويختل بكل تنظيماته وتشكيلاته . ونظراً لأن الله (سبحانه وتعالى) خلق العالم على أساس العلل والأسباب ، فإن السؤال التالي يتبادر إلى الذهن وهو : أي عامل وأي سبب يؤدي إلى انطفاء الشمس وتلاشي الكواكب والنجوم ويقضي على الكائنات الحية الأرضية والسماوية ؟ .

والقرآن الكريم لم يعط جواباً مفصلاً على هذا السؤال ، ولكن بعض الآيات القرآنية أشارت إلى بعض النقاط في هذا المجال ، سنشير باختصار إلى تلك النقاط في هذه المحاضرة ، إذ أن دراسة هذه النقاط قد يفتح الطريق أمام أهل الفكر والتمعن .

الموت ودوره في زوال العالم :

لقد استخدم القرآن الكريم كلمتي ﴿صيحة﴾ و﴿نفخ﴾ للدلالة على موت البشر وزوال الجنس البشري وكافة الموجودات والكائنات الحية التي تعيش على الأرض أو في السماء ، وذلك عندما يحين موعد انقراض العالم وزواله . وكلمة ﴿نفخ﴾ يقصد بها نفخ إسرافيل في الصور وفيما يلي نعطي توضيحاً مختصراً لكل واحدة من هاتين الكلمتين : الـ ﴿صيحة﴾ في اللغة العربية ، بمعنى الصوت المرتفع النافذ . وعندما تحين نهاية هذا العالم وينتهي عمر هذا الكون ، فإن جميع أبناء البشر الذين يعيشون فوق هذه الأرض يموتون بواسطة

هذه الصيحة (الساوية) ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ * فلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿١﴾ .

الصيحة المفاجئة :

(في الحديث : تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم . والرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم . والرجل يلبط حوضه ليسي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم) (٢) .

(قال : ذلك في آخر الزمان يصاح فيهم صيحة وهم في أسواقهم يتخاصمون فيموتون كلهم في مكانهم لا يرجع أحد منهم إلى منزله ولا يوصي بوصيته) (٣) .

يقول الإمام (الصادق) عليه السلام في تفسير الآية الكريمة المذكورة آنفاً : «تظهر في آخر الزمان صيحة بين الناس وهم منهمكون في التعامل والتخاصم فيما بينهم ، فيموتون جميعاً في مكانهم ولا يستطيع أحد منهم من العودة إلى بيته بل ولا يتمكن أحد منهم أن يكتب وصيته» .

هلاك الأمم السابقة :

ويذكر القرآن الكريم بأن الله (سبحانه وتعالى) أهلك بعض الأمم السابقة بالصيحة بسبب تماديها في ارتكاب الذنوب والمعاصي ، وهذه الأمم كانت في الغالب تعادي أنبياء الله وتسيء إليهم وتحقرهم وتعذبهم وتؤذيهم ، إلى درجة أن هؤلاء الأنبياء كانوا يتأثرون بشدة ويتألمون ويفقدون صبرهم ، وبالتالي كانوا يطلبون من الله أن يعاقب قومهم ، وعندها يستجيب الله (سبحانه وتعالى) لطلب هؤلاء الأنبياء ويأتي الأمر لهذا النبي (هؤلاء الأنبياء) بأن يغادر مدينته مع أتباعه

(١) سورة يس ؛ الآيتان : ٤٩ و ٥٠ .

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج ٧ و ٨ ، صفحة ٤٢٧ .

(٣) بحار الأنوار : ج ٣ ، صفحة ١٨٣ .

ويعتزل عن قومه الذين استحقوا العذاب أن ينزل بهم . وعند ذلك ينزل العذاب بالقوم في الموعد أو الأجل المحدد .

موت القوم الظالمين :

يقول القرآن الكريم في هذا المجال :

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(١) .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) .

قوم صالح وصيحة جبرائيل :

ويقول القرآن الكريم في مكان آخر :

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٣) .

(عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، قال : فَلَمَّا كَانَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَتَاهُمْ جِبْرَائِيلُ فَصَرَخَ لَهُمْ صَرَخَةً خَرَقَتْ تِلْكَ الصَّرِخَةَ أَسْمَاعَهُمْ وَفَلَقَتْ قُلُوبَهُمْ وَصَدَعَتْ أَكْبَادَهُمْ فَمَاتُوا جَمِيعًا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ)»^(٤) .

إن الصيحات التي كانت سبباً في هلاك بعض الأمم الظالمة والمذنبه في العصور السابقة ، والتي أخبر بها القرآن الكريم ، هذه الصيحات كانت موضعية (أي أنها كانت تحدث في أماكن معينة من العالم) ، حيث أن كل صيحة من هذه الصيحات تؤدي إلى موت سكان مدينة من المدن (أو قوم معين من الأقسام) .

أمّا الصيحة التي تنطلق عند انقراض العالم وزواله ، فهي صيحة عالمية

(١) سورة هود ؛ الآية : ٩٤ .

(٢) سورة المؤمنون ؛ الآية : ٤١ .

(٣) سورة هود ؛ الآية : ٦٧ .

(٤) تفسير البرهان .

تنشر أمواجها المدوّية والمهلكة في كافة أرجاء الكرة الأرضية ، حيث يموت جميع البشر دفعة واحدة تحت تأثير هذه الصيحة ، وينقرض الجنس البشري تماماً خلال فترة قصيرة جداً .

صوت انفجار القنبلة :

إنّ أقوى صوت كان الإنسان يسمعه بين الحين والآخر خلال العصور الماضية ، هو صوت الرعد ، أي عندما كانت السماء ترعد بشدّة . أما في عصرنا الحاضر ، عصر التقدم الصناعي ، فإنّ طائرة نفاثة تقوم في بعض الأحيان بتحطيم حاجز الصوت فينتج عن ذلك صوت هادر وقوي . كما قد تنفجر في مكان ما قنبلة قوية يُسمع صوت انفجارها من مسافة بعيدة نسبياً ، ويلاحظ في بعض الأحيان تحطم زجاج المباني القريبة من مكان الانفجار وانهيار الجدران ، كما قد تتشقق بعض المباني أو تنهار (بسبب قوة الانفجار) .

ما يقوله العلماء حول الأمواج الصوتية :

قام العلماء ومنذ أمدٍ بعيدٍ بدراسة الأمواج الصوتية إلى جانب دراستهم للظواهر والقضايا الطبيعية الأخرى ، حيث أجروا بحوثاً ودراسات وتجارب كثيرة حول الأمواج الصوتية وتوصلوا إلى معرفة الحقائق المجهولة والكشف عن الأسرار الغامضة .

وعلى ضوء تلك التجارب فإن طبيعة الأمواج الصوتية أصبحت معروفة اليوم إلى حدٍ بعيد ، وألّفت كتب عديدة حول الأمواج الصوتية ، حيث تمّ استخدام هذه الأمواج بصورة مختلفة ، ولأهداف متعددة في البرّ وفي أعماق البحار والمحيطات .

لقد استطاع الإنسان وبواسطة الأمواج الصوتية أن يقيس أعماق البحار ، ويمكن بواسطة الأمواج الصوتية تحديد أماكن تواجد الغواصات المعادية في المياه البعيدة ، كما يمكن بواسطة هذه الأمواج التأكد من وجود المعادن تحت سطح الأرض ، وذلك دون حاجة إلى عمليات الحفر .

وخلص الكلام أنه تم عن طريق استخدام الأمواج الصوتية ، تحقيق إنجازات علمية رائعة في مجال الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء ، ولا يزال الإنسان يحقق المزيد من الإنجازات والاكتشافات العلمية .

البشر والأمواج الصوتية المسموعة :

إن من الأمور التي تحظى بالإهتمام في مجال الأمواج الصوتية ، هو تحديد المدى الذي يستطيع فيه الإنسان سماع الأصوات . ويقول البعض بأن الإنسان العادي بإمكانه أن يسمع الأصوات التي تتراوح ذبذباتها بين ستة عشر ذبذبة في الثانية كحد أدنى ، وستة عشر ألف ذبذبة في الثانية كحد أقصى ، والبعض الآخر يقول : إن الحد الأدنى للذبذبات يجب أن يكون عشرون ذبذبة ، والحد الأقصى عشرون ألف ذبذبة في الثانية .

وعلى أية حال ، فإن هناك في الطبيعة أمواج صوتية كثيرة ، ولكن أذن الإنسان لديها قدرة محدودة على استلام الذبذبات الصوتية ، وهي لا تستطيع سماع جميع هذه الذبذبات ، ولهذا فإن العلماء أطلقوا على تلك الأمواج (الذبذبات) الصوتية التي تقل عن الحد الأدنى إسم الأمواج ما دون الصوتية ، وتلك التي تزيد عن الحد الأقصى (الذي تستطيع أذن الإنسان سماعه) أطلقوا عليها اسم الأمواج ما فوق الصوتية . وهذه الأمواج أي ما دون الصوتية ، وما فوق الصوتية لا تستطيع أذن الإنسان سماعها ، وهذا الأمر بحد ذاته هو من النعم الإلهية على البشر تجعله يعيش في هدوء وراحة بال .

الأمواج التي يستطيع أن يسمعها الإنسان :

«عندما تكون ذبذبات الأمواج الصوتية أقل من عشرين ذبذبة في الثانية ، فإن من الصعب على الإنسان سماعها ، وبالطبع فإن مدى السمع يختلف من شخص إلى آخر ، فبعض الأشخاص يستطيع سماع أمواج صوتية بقوة ثمانية عشر ذبذبة في الثانية بلحن أو بنبرة عالية .

وإذا وصلت إلى طبلة الأذن أمواج صوتية تتراوح بين خمسين ومائة ذبذبة في الثانية ، فيمكن أن نقول : بأننا نسمع نبرة عالية . وكلما ازداد عدد الأمواج أو الذبذبات كلما انخفضت نبرة الصوت أو اللحن .

وبطبيعة الحال فإن حساسية طبلة الأذن لها حدّ معين . أي عندما يصل عدد الذبذبات الصوتية إلى حدّ معين ، فإن أذن الإنسان لم يعد باستطاعتها سماع هذه الأصوات التي تبلغ قوتها عشرون ألف (٢٠٠٠٠) ذبذبة في الثانية . إن معظم الأشخاص لا يستطيعون سماع أصوات تزيد قوتها عن عشرين ألف ذبذبة في الثانية» .

«وغالبا ما يطلق على الأمواج الصوتية التي تبلغ ذبذبتها عشرون ألف (سايكل) أو أكثر في الثانية الواحدة ، إسم (الأمواج ما وراء الصوتية) . علماً بأن المدى المذكور (٢٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية) ينطبق على الأفراد البالغين ، أمّا الأطفال فإن بإمكانهم سماع أمواج صوتية تزيد قوتها عن ثلاثين ألف (٣٠٠٠٠) ذبذبة (سايكل) في الثانية . إذن ، فإن المدى الذي ذكرناه للأمواج ما وراء الصوتية وهو عشرون ألف (٢٠٠٠٠) سايكل (ذبذبة) في الثانية ، ليس دقيقاً»^(١) .

قوة السمع عند الحيوانات :

إن قوة السمع والبصر عند بعض الحيوانات أقوى بكثير مما هي عند الإنسان ، فهذه الحيوانات قادرة على سماع تلك الأصوات التي تعجز أذن الإنسان عن سماعها . فعلى سبيل المثال نجد أن كثيراً من الحيوانات البرية تسمع الأصوات التي تنبعث من باطن الأرض قبيل وقوع الهزة الأرضية ، وبالتالي

(١) نجوم براي همه (النجوم للجميع) ، صفحة ٩٠ .

فهي تشعر بالخطر المحدق بها وتغادر المنطقة قبل حدوث الزلزلة حفاظاً على حياتها .

«توجد هناك صفارات خاصة تستخدم لاستدعاء الكلاب وإحضارها لا يستطيع الإنسان سماع صوتها . وعندما ينفخ أحد في هذه الصفارة لا يسمع منها أي صوت ، وكأن أي صوت لم ينطلق منها . إنَّ الأمواج الصوتية التي تنطلق من هذه الصفارات هي أمواج ما دون الصوتية التي لا يسمعها الإنسان ولكن تسمعها الكلاب .

وهناك حيوانات أخرى كثيرة ، كالخفافيش بإمكانها أن تسمع الأمواج ما دون الصوتية التي يعجز الإنسان عن سماعها ، فالخفاش يمكنه أن يسمع الأمواج التي تصل ذبذبتها إلى مائة وخمسة وأربعين ألف (سايكل) في الثانية»^(١) .

الأمواج الصوتية والكائنات الحية :

إنَّ من جملة الإختبارات والتجارب التي أجريت في مجال تأثير الأمواج الصوتية والتي كشفت عن حقائق مجهولة . هي تلك الإختبارات التي قام بها العلماء على الكائنات الحية ، حيث لا تزال هذه الإختبارات أو التجارب مستمرة حتى الآن ، ورغم أنَّ هؤلاء العلماء قد اكتشفوا الكثير من المجاهيل وتوصلوا إلى نتائج باهرة ، فإنَّهم يأملون في اكتشاف حقائق وأسرار جديدة في المستقبل .

تأثير الأشعة (الأمواج) ما وراء الصوتية :

«لقد شوهدت أول الآثار الحياتية للأمواج ما وراء الصوتية ، شوهدت لأول مرة من قبل (ب - لانجون) ، فقد أرسل لانجون

(١) كتاب صوت ، صفحة ٥٧ .

أمواجاً بقوة حوالي كيلوات واحد إلى داخل الماء ، ثم وضع يده في مسير هذه الأشعة فشعر بألم شديد ، والأسماك التي كانت في نطاق هذه الأمواج أو الأشعة لم تصمد أمام هذه التجربة ، وبالتالي فقد ماتت فوراً ، ويمكن قتل الضفادع بنفس هذه الطريقة .

إنَّ دراسة التأثيرات البيولوجية للأشعة ما وراء الصوتية بشكل مكثف وجدّي لم تبدأ إلاَّ خلال السنوات الأخيرة ، وبالتأكيد فإن المستقبل القريب سيحمل معه نتائج باهرة على هذا الصعيد^(١) .

ويتضح مما ذكرنا بأن الأمواج ما وراء الصوتية (الأمواج الصوتية ذات الذبذبة العالية) التي لا تستطيع أذن الإنسان سماعها تترك آثاراً عميقة في الكائنات الحيّة ، وبإمكانها أن تحدث حرقة وألماً في يد الإنسان إذا ما تعرضت لهذه الأمواج التي تقضي أيضاً على الأسماك والضفادع (إذا ما تم تمرير هذه الأمواج في داخل الماء) .

ورغم أنّ الأمواج الصوتية لها مفهوم واسع من الناحية العلمية ، وهي تشمل جميع الأمواج الصوتية بكافة أنواعها وذبذباتها ، سواء تلك الأمواج المتوسطة المدى التي تسمعها أذن الإنسان ، أو الأمواج ما وراء الصوتية ذات الذبذبة العالية التي يعجز الإنسان عن سماعها .

الصيحة المميّنة وانقراض العالم :

ولكن الصيحة المدويّة المميّنة التي تنطلق في كافة أرجاء الكون عندما يحين موعد انقراض العالم وزواله ، هي من ذلك النوع من الأمواج الصوتية التي يسمعها البشر الذين يعيشون فوق هذه الأرض ، وهذه الأمواج الصوتية هي

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعلم) ما وراء صوت : صفحة ٩٧ .

من القوة بحيث تؤدي إلى موت جميع البشر والحيوانات خلال لحظة واحدة ، وانهيار المباني وتدمير القرى والمناطق العامرة ، وتفتت الجبال واختلال النظام الذي يتحكم بكوكبنا الأرضي . والحقيقة أنه يمكن القول بأن هذه الصيحة المدهشة غير القابلة للتصور هي وسيلة أو أداة لتنفيذ المشيئة والإرادة الإلهية التي قضت بوضع حدّ لوجود هذا العالم ، والقضاء على كافة الكائنات الحية التي تعيش فيه .

الصيحة الثانية تقع يوم المحشر (يوم القيامة) :

تنطلق في يوم المحشر (يوم القيامة) صيحة أخرى مدوية تعمّ هذا الفضاء السحيق ، وهذه الصيحة مسموعة أيضاً ، ولكنها ليست مدمرة ولا مميتة ، بل هي أداة أو وسيلة لإبلاغ الأمر التكويني الإلهي بإحياء الموتى وخروج الناس من قبورهم ، وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم : ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾^(١) .

إذن ، فإن ما يؤدي إلى دمار العالم وينهي حياة البشر وسائر الكائنات الحية الأخرى ، هو الصيحة المميتة ، أو الأمواج الصوتية القوية جداً التي تصل إلى كل مكان ، حيث أن هذه الأمواج الصوتية هي بمثابة عامل تكويني ينفذ الإرادة الإلهية ، ويترك مثل هذا التأثير المدهش خلال فترة وجيزة .

النفخ في الصور :

إلى جانب كلمة (الصيحة) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، والتي تؤدي إلى موت جميع البشر بصورة مفاجئة عندما يحين موعد زوال العالم وانقراضه ، فإن عبارة (النفخ في الصور) ورد ذكرها أيضاً في القرآن الكريم ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٢) .

(١) سورة ق ؛ الآية : ٤٢ .

(٢) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٨ .

مصدر الأمواج الصوتية :

إن عملية النفخ في الصور هي كالصيحة تنتج عنها أمواج صوتية ، وكما يتضح من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والروايات ، فإن المقصود بالصيحة في آخر الزمان ، هذه الصيحة التي تسبب في هلاك البشرية (وجميع الكائنات الحية في العالم) والتي أخبر عنها القرآن الكريم : النفخ في الصور ، مع فارق واحد هو أن الله (سبحانه وتعالى) أشار إلى بُعد واحد أو جانب واحد من جوانب الصيحة ، ألا وهو هلاك الجنس البشري ، في حين أن القرآن الكريم يشير إلى عملية النفخ في الصور بكافة أبعادها وجوانبها ، حيث يقول (جلّ وعلا) :

﴿وَنُفِّخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفِّخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(١) .

كما أن الأحاديث والروايات (المنقولة عن الأئمة عليهم السلام) تبين على هامش آية النفخ كيفية هلاك البشر ، كما تبين ذلك الآية الكريمة التي تشير إلى موضوع الصيحة .

إسرافيل والنفخة المدمرة :

على أن مضمون الحديث الشريف في هذا المجال يقوم : أن إسرافيل يؤمر من قبل الله (سبحانه وتعالى) بأن ينفخ نفخة الموت وينهي حياة أهل السماء والأرض ، فينفخ إسرافيل في الصور في وقت يكون فيه الناس في غفلة من أمرهم ومنهمكون في أعمالهم .

(فَمِنَ النَّاسِ مَن هُوَ فِي وَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَن هُوَ فِي سَفَرِهِ وَمِنْهُمْ مَن يَأْكُلُ فَلَا يَرْفَعُ لُقْمَةً إِلَىٰ فِيهِ حَتَّىٰ يَخْمُدَ وَيَصْعَقَ وَمِنْهُمْ مَن يُحَدِّثُ صَاحِبَهُ فَلَا يُتِمُّ الْكَلِمَةَ حَتَّىٰ يَمُوتَ فَتَمُوتُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَن آخِرِهِمْ وَإِسْرَافِيلُ لَا يَقْطَعُ صَيْحَتَهُ حَتَّىٰ تَغُورَ عُيُونُ الْأَرْضِ وَأَنْهَارُهَا وَبِنَاوُهَا وَأَشْجَارُهَا وَجِبَالُهَا وَبِحَارُهَا

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٨ .

وَيَدْخُلُ الْكُلُّ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ وَالنَّاسُ خُمُودٌ وَصَرَغِي فَمِنْهُمْ
مَنْ هُوَ صَرِيْعٌ عَلَى ظَهْرِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ صَرِيْعٌ عَلَى جَنْبِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ صَرِيْعٌ
عَلَى خَدِّهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ اللَّقْمَةُ فِي فِيهِ فَيَمُوتُ فَمَا أَدْرَكَ أَنْ يَتَلَعَهَا . . .

وَتَمُوتُ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْحُجُبِ وَالسَّرَادِقَاتِ وَبَقِيَّ جَبْرَائِيلُ
وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ ^{مِنْهُمْ} (١) .

الأمر التكويني من قبل الله :

قد يسأل البعض : كيف أن الصيحة السماوية أو النفخ في الصور
والأمواج الناجمة عن هذه الصيحة تصل خلال فترة زمنية قصيرة إلى السَّمَوَاتِ
والأرض ، وتقضي على كافة الكائنات الحية الأرضية والسماوية ؟ ، وللإجابة
على هذا التساؤل نقول : إن ما يسلب الحياة من سكان السَّمَوَاتِ والأرض هو
«كلمة الله» ، أي الأمر التكويني بالموت الصادر من قبل الله ، حيث أن الأمر
الإلهي لا يحده زمان ولا مكان .

كما أن هناك من يتساءل : إذا كانت الإرادة والمشئمة الإلهية تقضي بأن
ينفذ الله أمره التكويني بالطرق العادية والمألوفة ، فكيف يكون إذن إسرافيل هو
المنفذ لهذا الأمر الإلهي من خلال نفخه في الصور ، حيث ينهي خلال فترة
زمنية قصيرة جداً ، حياة جميع سكان السَّمَوَاتِ والأرض ؟ .

والحقيقة أننا لا نعرف ما هو الـ « صور » وكيف تستطيع هذه الأداة إيصال
الأمواج القاتلة إلى كافة أرجاء السَّمَوَاتِ والأرض وإماتة جميع الكائنات الحية
وإنهاء حياتها خلال فترة قصيرة ؟ .

التقدم العلمي يقرب هذا الموضوع للأذهان :

ولكن الأمور المجهولة قد اتضحت إلى حد ما في عصرنا الحاضر نتيجة
التقدم الذي حققته البشرية في مختلف مجالات العلم والإكتشافات

(١) تفسير البرهان : ج ٤ ، صفحة ٨٥ .

والاختراعات العلمية العديدة التي حققها الإنسان ، وبالتالي فقد خفت حدّة العناد والرفض من قبل أولئك الذين (ينكرون ويكذبون موضوع الصيحة والنفخ في الصور والأمواج الصوتية المميّنة التي تنبعث منها ، وتؤدي إلى هلاك البشرية وزوال العالم) . كما أنّ هذا التقدم العلمي الذي حققته البشرية قد قرّب موضوع (الصيحة والنفخ في الصور) إلى أذهان غير المعاندين من الناس ، وبالتالي مهّد الأرضية لفهم واستيعاب بعض الحقائق التي نص عليها الدين . ويمكن القول بأن إحداه الأمواج الصوتية ونشرها هي من جملة الإختراعات التي قد تساعد - إلى حدّ ما - على توضيح مسألة النفخ في الصور وانتشار (أمواج) الصيحة المميّنة ، وبالتالي مساعدة الناس على فهم هذه الحقيقة المجهولة .

لقد أصبح بالإمكان في هذا العصر ، عصر الحضارة والتقدم الصناعي ، القيام بتفجيرات قوية وقوية جداً تنتج عنها أمواج صوتية قوية وقوية جداً يمكن سماعها بالأذن ، حيث أن هذه الانفجارات تؤدي إلى تصدّع ، بل وانهار المباني القريبة من مكان الانفجار ، كما أنها تسبب أعراضاً سيئة وخطيرة ، بل ومميّنة أحياناً للأفراد الذين يعيشون في تلك المباني ، وقد تودي بحياة عدد منهم .

كما أن العلماء من خلال التقدم العلمي واستخدام الأجهزة والمعدات التقنية ، تمكنوا من مضاعفة قوّة الأمواج ما وراء الصوتية (ذات الذبذبات العالية) وإلى حد كبير ، كما تمكنوا من جهة أخرى وباستخدام الطاقة الكهربائية من بث الأمواج ما وراء الصوتية على نطاق واسع جداً .

مختبرات توليد الأمواج ما وراء الصوتية :

«لقد أصبح بالإمكان في الوقت الحاضر إحداث أصوات تصل ذبذبتها إلى مائة مليون (سايكل في الثانية) داخل مختبرات ما وراء الصوت ، وهذا الأمر يثبت مدى وسعة نطاق التجارب الخاصّة بالصوت والنتائج العلمية والتقنية التي تمّ التوصل إليها من خلال

هذه التجارب ، والتي تجاوزت حدود ما كان متوقعا .

كما أن طريقة (لانجون) فتحت منذ الآن المجال لتحويل الذبذبات المرتدة (الذبذبات الصوتية) إلى ذبذبات كهربائية من نوع التيار المتناوب .

إن تقنية إيجاد التيار ذي الذبذبات العالية (التوتر العالي) قد شهدت تطوراً كبيراً خلال الأعوام العشرين الأخيرة ، حيث استفادت تقنية ما وراء الصوت كثيراً من هذا التطور»^(١) .

«وتوجد حالياً أجهزة صوتية جديدة بإمكانها إحداث أصوات أقوى من الصيحة (التي يطلقها الإنسان) بستة ملايين مرة .

ويمكن بواسطة هذه الأصوات اكتشاف غواصة تبعد عدة كيلومترات (عن مصدر الصوت) .

ورغم ذلك فإن أجهزة اكتشاف الغواصات لا تزال في طور التكامل ، إذ قد يتم اختراع أجهزة يمكن بواسطتها اكتشاف سفينة غواصة تبعد آلاف الكيلومترات عن مصدر الصوت ، حيث من المقرر أن تستخدم في هذا المجال جهازاً صوتياً ضخماً يقوم بتحويل الطاقة الكهربائية إلى أمواج صوتية»^(٢) .

الطاقة الكهربائية ودورها في بث الأمواج الصوتية :

نحن نعلم بأن الأمواج الصوتية تكون سرعتها بطيئة ومداهها قصير ، حيث أن الإنسان لم يعد بإمكانه سماع صوت معين إذا ابتعد عن مصدر الصوت لمسافة معينة ، ولكن الإنسان استطاع اليوم - وبفضل ذكائه وتجاربه العلمية ، وباستخدام الطاقة الكهربائية والأجهزة والمعدات التقنية والصناعية (كجهاز

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعلم) ما وراء صوت : صفحة ٢١ .

(٢) كتاب صوت : صفحة ٣٤ .

الراديو مثلاً) - أن يوصل صوت المذيع بسرعة هائلة ومحيرة للعقول إلى جميع أرجاء العالم ، ويجعل الملايين من سكان الشرق يسمعون صوت مذيع الراديو الذي يتحدث من أقصى نقطة في الغرب (وذلك خلال لحظة واحدة) .

«ولكن من يسمع صوت المذيع قبل الآخر؟ الشخص الذي يجلس على بعد عشرة أمتار من المذيع داخل استوديو الإذاعة ، أم الشخص الذي يستمع إلى الراديو وهو على بعد مائة كيلو متر من الأستوديو؟ .

إن سرعة الصوت تبلغ ٢٤٠ متراً في الثانية . بينما سرعة الضوء تبلغ ٣٠٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية ، أي أن سرعة الصوت أقل من سرعة الضوء بمليون مرة . ونظراً لأن سرعة الأمواج الإذاعية (وهي أمواج لاسلكية) مساوية لسرعة الضوء ، إذن فإن الأمواج الإذاعية أسرع من الأمواج الصوتية (العادية) بمليون مرة»^(١) .

لقد ورد ذكر كلمة « صور » في القرآن الكريم والأحاديث والروايات ، حيث تم التأكيد على أنه عندما تحين نهاية العالم ، ويوشك الكون على الإنقراض فإن إسرافيل ينفخ في الصور منفذاً بذلك أمر الله التكويني بموت سكان الأرض والسماء ، حيث يموت كل شيء (في هذا العالم) نتيجة هذه النفخة الماحقة (التي ينفخها إسرافيل في الصور) .

ما هو صور إسرافيل؟ :

كلمة « صور » بالضم تعني في قاموس اللغة القرن ينفخ فيه ، ولم يكن أحد يعرف ما هو « الصور » وأية أداة هذه التي ينفخ فيها فتنبعث منها صيحة قاتلة تعم السموات والأرض خلال فترة وجيزة ، وتقضي على جميع الكائنات الحية .

(١) دانستينهاي جهان علم ؟ (أخبار العلم) : صفحة ٧ .

ومن منطلق حب الإستطلاع سأل بعض الأشخاص النبي ﷺ عن «صُور إسرائيل» فقال: «قرن من نور التَقَمَةُ إسرائيل»^(١).

(وفي خبرِ الصُّورِ قَرْنٌ من نُورٍ فيهِ أثقَابٌ علىِ عددِ أرواحِ العبادِ)^(٢).

عن السَّجَادِ عليه السلام: : أَنَّ الصُّورَ قَرْنٌ عَظِيمٌ لَهُ رَأْسٌ وَاحِدٌ وَطَرَفَانِ وَبَيْنَ الطَّرَفِ الْأَسْفَلِ الَّذِي يَلِي الْأَرْضَ إِلَى الطَّرَفِ الْأَعْلَى الَّذِي يَلِي السَّمَاءَ مِثْلُ مَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِينَ إِلَى فَوْقِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فِيهِ أَثقَابٌ بِعَدَدِ أرواحِ الْخَلَائِقِ^(٣).

ثُقُوبُ الصُّورِ هِيَ بَعْدُ الأرواحِ :

إنَّ المشكَّلةَ التي طُرحت في مجال النفخ في الصُّورِ والأثر المميت لهذا النفخ في الصور ، هي أنَّ الأمواج الصوتية لها مدى محدود وهي تتلاشى خلال مسافة قصيرة . فإذا قررت المشيئة الإلهية بأن يموت جميع سكان السموات والأرض في آخر الزمان بطريقة طبيعية ، فكيف يمكن لصيحة (سماوية) ذات مدى محدود ، تنفيذ الأمر الإلهي التكويني ؟ وكيف يمكن أن تنتشر أمواج هذه الصيحة الماحقة ويُعَمَّ صداها كافة أرجاء الكون والسموات والأرض ، وتؤدي إلى موت كل مخلوق حي يعيش في الأرض أو في السماء ، دفعة واحدة (وخلال لحظة واحدة) ؟ .

النور وانتشار الأمواج الصوتية :

إننا لا نعرف كيف كان فهم الناس في صدر الإسلام لهذه الروايات وغيرها من الروايات (المنقولة عن الأئمة عليهم السلام ، والتي تتعلق بموضوع الصيحة السماوية والنفخ في الصور في آخر الزمان قبيل قيام الساعة ؟) وكيف كانوا يفسرون هذه الروايات في أذهانهم ؟ .

(١) علم اليقين : صفحة ٨٩٢ .

(٢و٣) لآلئ الأخبار : صفحة ٤٥٣ .

أما الناس في عصرنا الحاضر الذين باتوا يعرفون سرعة الضوء ويستمعون ليلاً ونهاراً إلى الأمواج الصوتية (الأمواج الإذاعية) الملتقطة من جميع أرجاء العالم ، هذه الأمواج التي تسير بسرعة الضوء ، نقول : إنَّ الناس في عصرنا الحاضر - وعلى ضوء ما ذكرنا - ينظرون إلى هذه الأحاديث والروايات من زاوية أخرى ، ويفسرونها بنظره خاصة ومن منطلق معرفتهم بكثير من الحقائق العلمية الثابتة ، وبالتالي فإن بإمكان البشر في العصر الحاضر - ومن خلال فهمه لهذه الأحاديث والروايات - أن يكشف الغموض الذي يكتنف مسألة النفخ في الصور وما يستتبعه من موت جميع الخلائق في السموات والأرض .

فالرسول ﷺ يقول عندما يُسأل عن الصور : «قَرْنٌ مِنْ نُورِ التَّقَمَّةِ إِسْرَافِيلَ» ، والحديث الثاني يقول : «الصُّورُ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ فِيهِ أَثْقَابٌ عَلَى عَدَدِ أَرْوَاحِ الْعِبَادِ» . وهناك رواية ثالثة منقولة عن الإمام علي بن الحسين السَّجَّاد عليه السلام تتحدث عن عظمة صور إسرائيل وكبر حجمه ، حيث أشرنا إلى هذه الرواية من قبل .

ويصف الإمام السجاد الصور بطريقة تجعل القارئ يفهم بأن الصور يحيط بالعالم وسيطر عليه ، والحقيقة أن الأمواج (الصوتية) القوية التي تبثها مرسله النور تغطي كافة السموات والأرض . إذن ، فعندما ينفخ فيها إسرائيل ويبلغ بصيحه الماحقة أمر الموت من قبل الباري ، فإن هذه الصيحة تصل بواسطة الأمواج الضوئية إلى كافة العوالم العلوية والسفلية خلال لحظة واحدة ، حيث يموت جميع سكان السموات والأرض دفعة واحدة .

ونذكر هنا بأن إسرائيل ينفخ في الصور أيضاً لإعادة الناس إلى الحياة مرة أخرى عندما تقوم القيامة ، حيث يُبلغ إسرائيل وبواسطة تلك الأداة الضوئية أمر الباري (تعالى) بإحياء الخلق من الأولين والآخرين - وسوف نشير إلى هذا الموضوع في المحاضرة اللاحقة من هذا الكتاب .

والأمر الملفت للإنتباه : أن هذه الرواية كالرواية الثانية تشير إلى أن «صور

إسرافيل» يحتوي على ثقب بعدد أرواح عباد الله جميعاً ، ولعل المقصود بهذه العبارة الواردة في الروايتين المذكورتين من قبل : هو أن إماتة الناس في الدنيا في آخر الزمان ، وإعادة جميع الناس إلى الحياة يوم القيامة لا تتم على نحو واحد ، فكما أن طريقة قبض أرواح الأشخاص الموحدين والمشركين والمؤمنين والكافرين والصالحين وغير الصالحين تختلف من حيث الرحمة والعذاب ، حيث أن قبض روح كل فرد من قبل عزرائيل تعتمد (من حيث السهولة والصعوبة) على أعمال الفرد في الدنيا ، وما قام به من أعمال حسنة وصالحة أو سيئة .

كذلك الحال بالنسبة للموت الجماعي للبشر الصالحين وغير الصالحين في آخر الزمان ، والذي يتم من خلال نفخة إسرافيل في الصور ، فإن عملية الموت الجماعي هذه لا تتم على نحو واحد من حيث الراحة والعذاب بالنسبة للأفراد الصالحين وغير الصالحين . فرغم أن إسرافيل ينفذ الأمر الإلهي ومشيبته بموت البشرية في آخر الزمان من خلال نفخة الصور ، ولكن كل فرد يستلم الأمر الإلهي بواسطة الطريق الخاصة بروحه والمرسومة على شكل ثقب ضوئي في صور إسرافيل .

نستنتج من مجموع الآيات المباركة والروايات والأحاديث الشريفة بأن الإرادة الربانية شاءت بأن ينقرض العالم ويزول بواسطة صيحة إسرافيل والنفخ في الصور ، حيث أن الأمواج الصوتية القوية الناجمة عن صيحة إسرافيل ، تنتشر في كافة أرجاء الكون بواسطة الصور الذي يتكون من أمواج ضوئية (تنتقل بسرعة الضوء) ، نقول : إن هذه الأمواج الصوتية هي من القوة والشمولية بحيث تؤدي - ونتيجة للضربة الماحقة الناجمة عنها - إلى هلاك وموت جميع الكائنات الحية التي تعيش على سطح الأرض وفي السماء ، كما تؤدي إلى تزلزل الأرض وانهيار المباني وتفتت الجبال ، بحيث تصبح كالغبار الذي ينتشر في الفضاء .

أمر مُبهم ومجهول :

هل أن الأمواج الصوتية الماحقة والضربة العنيفة الناجمة عن نفخة الصور

هي العامل القوي الذي يطفىء نور الشمس ، ويدمر النجوم والكواكب ، ويزيل السموات ، ويضع نهاية للنظام الكوني المنظم ؟ ، أم أن هناك سبباً آخر يؤدي إلى وقوع هذه الحوادث ؟ .

هذه الحقيقة لا زالت مجهولة دينياً وعلمياً ، فلا القرآن الكريم أشار إلى هذه النقطة ، ولا العلم استطاع أن يكشف هذا المجهول ويُطلع العلماء على الأوضاع التي سيشهدها العالم في المستقبل .

وكل ما جاء في كتب بعض علماء الفلك وتحديثوا عنه بين الحين والآخر ، هو احتمال انفجار الشمس بصورة مفاجئة ، وأن ما جعل هؤلاء العلماء يتصورون هذا الأمر ، وبالتالي يفكرون في إمكانية وقوع مثل هذه الكارثة الكبرى وهذا الحدث المدمر ، هو مشاهدتهم الانفجارات التي تحدث بين الحين والآخر في بعض الكواكب والنجوم ، وتؤدي فجأة إلى تفتت أحد الأجرام السماوية بشكل مدهش يبعث على الحيرة والإستغراب .

نظرية انفجار الشمس :

يقول السيد «جورج غاموف» في هذا المجال :

«عندما نرى أن كوكباً مستقرّاً تماماً ولا يظهر عليه شيء يشير إلى الإنتباه ، ولا يتميز أبداً عن الملايين من الكواكب الأخرى ، نقول عندما نرى مثل هذا الكوكب ينفجر بشكل رهيب بصورة مفاجئة وخلال عدة ساعات فلا مناص من أن تتبادر إلى ذهننا هذه الفكرة المزعجة ، وهي : هل أن نفس الشيء يمكن أن يحدث بالنسبة لشمسنا اليوم أو غداً أو بعد عام ؟ نعم ، إذا ما حل هذا اليوم المشؤوم (وحدث الانفجار العظيم في الشمس) ، فإن الأرض وجميع الكواكب والأجرام (التي تدور في فلك الشمس) ستصبح على شكل غاز رقيق . على أن هذا الحادث يقع بسرعة

كبيرة بحيث لم يعد باستطاعة أي أحد أن يفهم ماذا حدث»^(١) .

احتمال يفتقر إلى الدليل والإثبات :

إن احتمال انفجار الشمس استناداً إلى انفجار بعض الكواكب السيارة لا يعدو كونه مقارنة فرضية لا تستند إلى دليل ، لأن علماء الفلك أنفسهم يعترفون بأنهم (ونظراً لعدم وصول العلم إلى مرحلة متطورة) لم يتمكنوا من معرفة تلك العلامات التي تسبق عادة وقوع الانفجار في الكواكب ، لكي يتبعوا تلك العلامات في الشمس ، كما أن هؤلاء العلماء الفلكيون لا يعرفون شيئاً عن سبب انفجار هذه الكواكب لكي يستطيعوا القول بأن نفس هذا السبب (الأسباب) تؤدي إلى انفجار الشمس .

«إن أحد الأساليب المباشرة لمعرفة هل أن شمسنا تمر حالياً بمرحلة ما قبل الانفجار أم لا ، هي أن نقارن بين خصائص الشمس وخصائص الكواكب الأخرى التي هي على وشك أن تتفجر وتلاشى . ومن خلال هذه المقارنة يمكن أن تتضح أيضاً بعض الظواهر التي يمكن مشاهدتها في الكواكب التي هي على وشك الانفجار ، أو أنها تتهياً للانفجار ، حيث أن عدم مشاهدة هذه الظواهر في الشمس سيضمن بقاء الشمس وديمومتها لفترة طويلة نسبياً ، ولكن مع الأسف يجب أن نقول : بأننا لا نملك في الوقت الحاضر المعلومات الكافية حول المرحلة التي تسبق انفجار الكواكب وتلاشيها ، كما علينا أن نعترف بأننا لا نعرف شيئاً عن الأسباب التي تؤدي إلى انفجار النجوم والكواكب ، وليس بإمكاننا أن نجزم : هل أن شمسنا ستفجر في المستقبل القريب أو البعيد أم لا ، ونحن نأمل أن لا يقع مثل هذا الحادث»^(٢) .

(١) بيدايش ومرگ خورشيد ؟ (تكوّن الشمس وموتها) : صفحة ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق .

وخلاصة القول : أن البشر في العصر الحاضر لا يعرف شيئاً عن كيفية موت وزوال الشمس والكواكب وانهيار النظام الكوني .

أما بشأن نهاية الحياة في السموات والأرض ومصير الكرة الأرضية ، فقد بينت الآيات القرآنية ، والأحاديث والروايات المنقولة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام بأنه عندما يحين موعد انقراض العالم وزواله ، فإن إسرافيل ينفخ في الصور ، فتنبعث أمواج صوتية ماحقة ومُميتة ناتجة عن صيحة إسرافيل ، فتترك هذه الصيحة آثارها في كافة أرجاء العوالم العلوية والسفلية خلال فترة وجيزة ، فيموت سكان السموات (الملائكة) كما تهلك وتموت جميع الكائنات الحية التي تعيش فوق هذه الأرض وتتلاشى الجبال وتتحوّل الأرض إلى خرائب وأنقاض .

وحول موت سكان السموات جاء في الحديث الشريف ما يلي : «لا يبقى بعد النفخة الأولى إلا جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومَلَكُ المَوْتِ»^(١) .

وحول موت سكان الأرض يقول الإمام السّجاد عليه السلام : «فإذا سَمِعُوا صَوْتَ الصُّورِ تَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ شِدَّتِهِ فَيَمُوتُونَ دَفْعَةً وَاحِدَةً»^(٢) .

ويقول القرآن الكريم [في سورة المزمل ؛ الآية : ١٤] : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ .

وعنه عليه السلام ، قال : «فَمِنْ شِدَّةِ صَيْحَةِ إِسْرَافِيلَ تَتَحَرَّكُ الْأَرْضُ مِنْ مَشْرِقِهَا إِلَى مَغْرِبِهَا فَلَا يَبْقَى عَلَيْهَا بِنَاءٌ إِلَّا أَنْهَدَمَ»^(٣) .

وجدير بالذكر في هذا المجال أن القرآن الكريم - وفي معرض إشارته إلى موت البشر عندما يحين موعد انقراض العالم وزواله (في آخر الزمان) ، وإحياء

(١ و ٢ و ٣) لآلئ الأخبار ص ٤٥٤ .

الخلايق من الأولين والآخرين (وبعثهم) يوم القيامة - استخدم إلى جانب عبارتي ﴿الصيحة﴾ و﴿النفخ في الصور﴾ عبارات أخرى تضمنتها بعض الآيات المباركة ، ولها نفس مفهوم الصيحة ، أي : الأمواج الصوتية القوية جداً .

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾^(١) ، وجاء في تفسير مجمع البيان : «الراجفة﴾ : صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب» .

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾^(٢) ، النفخة الثانية ، ﴿زجرة واحدة﴾ وهي : الصيحة التي يجد الناس أنفسهم خلالها في المحشر يوم القيامة .

يوم صعب وعسير :

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٣) . ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ﴾^(٤) . أي : عندما يحين موعد النفخة الثانية وتقدم القيامة ، ففي ذلك اليوم يفر ويهرب الرجل من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وأبنائه .

نلاحظ من خلال هذه الآيات أن عبارات مثل ﴿الراجفة﴾ و﴿زجرة﴾ و﴿نقِر﴾ و﴿الصاخة﴾ قد وردت في الآيات المذكورة ، وهذه العبارات كلها تعني الصيحة . ويستفاد من مجموع الآيات المذكورة بأن مشيئة الله (تعالى) قضت بأن ينتهي هذا العالم بواسطة الأمواج الصوتية ، وأن تقوم القيامة بواسطة الأمواج الصوتية أيضاً .

(١) سورة النازعات ؛ الآيتان : ٦ و ٧ .

(٢) سورة النازعات ؛ الآيتان : ١٣ و ١٤ .

(٣) سورة المدثر ؛ الآيتان : ٨ و ٩ .

(٤) سورة عبس ؛ الآيات : ٣٣ - ٣٦ .

المحاضرة الثانية عشرة :

حياة الآخرة والنظام الجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(١) .

كما بينا في المحاضرة السابقة استناداً إلى آيات القرآن الكريم والأحاديث والروايات ، عندما ينتهي عمر هذا العالم ويحين موعد انقراض وزوال الكون ، فإن إسرافيل وهو من ملائكة الله الكبار ، ينفخ في الصُّور بأمر من الله (سبحانه وتعالى) ، فتعمّ صيحته الماحقة المميّنة كافة أرجاء العالم ، وتُنهي - بالتالي - حياة جميع سكان السموات والأرض .

وضع البشر قبل نفخة الصُّور :

قبل نفخة الصُّور والصيحة المميّنة ، يعيش سكان الأرض والسماء حالة من الخوف والهلع والاضطراب الشديد بحيث تنهار معنوياتهم تماماً ، ويحدث خلل كبير واضطراب عظيم في كافة شؤون الحياة .

وقد أبلغ القرآن الكريم عن حالة الفزع والقلق هذه والتي تعتبر من

(١) سورة يس ؛ الآية : ٥١ .

علامات آخر الزمان وقيام الساعة ، واعتبرها نتيجة للنفخ في الصور .

يوم الخوف والهلع :

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنفَعُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (١) .

إنَّ البعض من الآيات القرآنية والأحاديث والروايات التي تتحدث عن أوضاع البشر في آخر الزمان وكلها من شروط قيام الساعة ، تربط بين أوضاع البشر في آخر الزمان (نهاية عمر العالم) وبين الآثار التي تترتب على نفخة «الفرع» ، وهي النفخة الأولى التي ينفخ فيها إسرافيل في الصور .

الزلزال المرعب العظيم :

وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢) .

الخوف والشيب المبكر :

(وَيَصِيرُ النَّاسُ يَمِيدُونَ وَيَقَعُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَأَنَّهُمْ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ مِنْ عَظَمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفَرْعِ وَتَبْيِضُ لِحَى الشَّبَّانِ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْعِ) (٣) .

خلال نفخة الصور الأولى ، نفخة الفرع ، لا ينقرض العالم ولا يختل النظام الكوني ولا يزول نسل الإنسان من على الأرض ، ولكن الناس يصابون

(١) سورة النمل ؛ الآية : ٨٧ .

(٢) سورة الحج ؛ الآيتان : ١ و ٢ .

(٣) لآلئ الأخبار : صفحة ٤٥٤ .

بالخوف والهلع والاضطراب الشديد ، ويواجهون تطورات وتغيرات صعبة ومرهقة .

النفخة التي تنهي العالم :

أما نفخة الصور التي تنهي حياة العالم وتؤدي إلى هلاك وموت جميع الكائنات الحية في السموات والأرض ، فهي نفخة «الصعق» ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) .

ينفخ في الصور ، فيسقط جميع من في السموات والأرض مغشياً عليهم نتيجة للضربة الماحقة وقوة الصوت ، ومن ثم يموتون جميعاً إلا من شاء الله أن لا ينالهم الغشيان والموت .

ونتيجة للأمواج المدمرة والمخربة التي تسببها نفخة الصور تنشق البحار وتتلاشى الجبال وتنهار المباني ، ولا يبقى من الأرض سوى الأطلال والخرائب ، وتبقى الأرض لفترة طويلة تعيش في سكوت وسكون حيث لا يشاهد فيها أي أثر للحياة وأي مظهر من مظاهر النشاط والحركة ، ويستمر الوضع على هذا النحو حتى يحين يوم القيامة ، ويحل موعد إحياء الخلائق جميعاً من الأولين والآخرين من أجل الحساب ، عندها يعود إسرافيل إلى الحياة بأمر من الله (تعالى) .

النفخة التي أحيي الموتى :

«فيقول الجبار لإسرافيل : إلتقم الصور والصور قرن من نور فيه أنقاب على عدد أرواح العباد»^(٢) .

ويقول الله (تعالى) في كتابه الحكيم :

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٨ .

(٢) تفسير البرهان : المجلد ٤ ، صفحة ٨٧ .

﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(١) ، إذن ، ففي النفخة الأولى تموت جميع الكائنات الحية الأرضية والسماوية وتنتهي الدنيا ، وفي النفخة الثانية يُحيى الموتى وتقوم القيامة .

وهناك أمور وقضايا كثيرة قابلة للبحث والدراسة فيما يتعلق بهاتين النفختين ، ولكن لعدم الإطالة في الموضوع فإننا نستعرض باختصار نقطتين فقط .

١ - ما هي الفترة الزمنية المقدّرة من قبل الله والتي تفصل بين النفخة الأولى - نفخة انقراض الدنيا وزوالها - ، وبين النفخة الثانية - نفخة قيام القيامة - ؟ وبالطبع ، فإن من غير الممكن الإجابة على هذا السؤال إلا من خلال الوحي الإلهي ، حيث أن القرآن الكريم لم يشر إلى هذه النقطة ، ولم يحدد الفترة التي تبقى فيها الأرض خامدة وراكدة .

ولكن هناك روايات مختلفة في هذا المجال منقولة عن الأئمة عليهم السلام ، فبعض الروايات لم تشر إلى فترة محددة ، والبعض الآخر من الروايات أشارت إلى هذه الفترة ، ولكن بصورة مبهمة .

(عن السجّاد عليه السلام أنه سُئل عن النفختين كم بينهما؟ قال : ما شاء الله)^(٢) .

(أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : «بين النفختين أربعون» يقول الحسن : فلا ندري أربعين سنة أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة)^(٣) .

٢ - قد يتبادر إلى أذهان البعض السؤال التالي : كيف أن الأمواج الصوتية

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٨ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ٤٦٩ .

(٣) الدرّ المنثور : المجلد ٥ ، صفحة : ٣٣٩ .

الناجمة عن النفخ في الصور تؤدي عملين متناقضين ، حيث تسبب هذه الأمواج من جهة في هلاك وموت الكائنات والمخلوقات الحية وتفتت أجزائها المترابطة عندما يحين موعد انقراض العالم ، كما تسبب من ناحية أخرى في إعادة الحياة إلى الموتى ، وإعادة تركيب الذرات المتناثرة والمجزأة عندما يحين موعد قيام الساعة ويحل يوم القيامة .

ولكي نقرب الموضوع إلى الأذهان ، يمكن أن نشير في البداية إلى حالتين مشهورتين في الطبيعة ، وبعد ذلك نستعرض ما يقوله الدين في هذا المجال .

الأولى :

قال في الفتوحات : النفخة نفختان ، نفخة تطفىء النار ونفخة تشعلها^(١) .

الحكيم الرباني المرحوم فيض الكاشاني ينقل عن محيي الدين بن عربي قوله : إن النفخ في النار نوعان ، فهناك نفخة تطفىء النار ونفخة تؤجج النار وتشعلها .

نفخة الصور لها أثرين متناقضين :

وهكذا هي نفخة إسرافيل في الصور عند نهاية العالم ، فهي من جهة تطفىء شعلة الحياة وتميت الناس ، ومن جهة أخرى تحيي البشر وتمنحهم الحياة مرة أخرى يوم القيامة .

الثانية :

«ترسب الغبار الموجود في الهواء : عندما تكون بعض الذرات مثلاً دخان السجائر (أو أي غاز من الغازات التي يتكون منها

(١) علم اليقين : المجلد ٢ ، صفحة ٨٩٤ .

الهواء) معلقة في الهواء ، وقمنا بتعريض هذا الهواء أو الغاز للأموح ما وراء الصوتية ، فنلاحظ بأن الدخان يبدأ بالترسب بسرعة وخلال عدة ثوانٍ فقط .

إنَّ دراسة طريقة ترسب الدخان جعلت العلماء يقومون بتجارب مثيرة ومشوقة ، فعبور الأمواح ما وراء الصوتية في الهواء يُحدث حركات إضافية في ذرات الغبار الموجودة في الهواء ، وبالتالي يزيد من احتمال التحام جزئيات الغبار ببعضها البعض ، وعندما تلتحم عدة جزئيات فإنها تصبح ثقيلة الوزن ، وبالتالي ترسب وتلتصق بجدران الإناء»^(١) .

«كما وضعت بعض الكائنات المجهرية تحت تأثير الأمواح ما وراء الصوتية فلوحظ بأن هذه الكائنات المجهرية تتجزأ وتتحول إلى قطع أصغر حجماً ، وذلك عكس ما حدث بالنسبة لذرات الغبار التي كانت تلتصق ببعضها البعض لدى تعريضها للأمواح ما وراء الصوتية»^(٢) .

إذن ، من الممكن من الناحية الطبيعية أن تنتج عن الأمواح الصوتية الناجمة عن نفخة إسرافيل في الصُور آثار متناقضة ، وذلك في حالات مختلفة ، كما يحدث أحياناً في نظام الخلقة ، حيث نجد أن النفخة تطفئ النار أحياناً وتؤججها أحياناً أخرى ، كما أن الأمواح ما وراء الصوتية تؤدي أحياناً إلى التحام والتصاق الذرات ، وأحياناً أخرى تؤدي إلى تجزؤ الذرات وانفصالها عن بعضها البعض .

عدم معرفتنا بحقيقة الصور :

ولكننا لا نعرف ما هو «الصُور» وكيف ينفخ فيه إسرافيل ، وكيف يؤدي

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعلم) ما وراء صوت : صفحة ٨٧ .

(٢) چه ميدانم ؟ (ماذا أعلم) ما وراء صوت : صفحة ٩٨ .

النفخ في الصور إلى موت البشر وإعادته إلى الحياة (مرة أخرى يوم القيامة) .
ولكن ما هو مؤكد أن القرآن الكريم أخبر بوجود الصور ، وأشار إلى أن
الصور تنطلق منه صيحتان إحداهما مُميتة ومُدمرة تُؤدِّي إلى دمار العالم وتسبب
في موت وهلاك سكان السَّموات والأرض ، والأخرى بناءة تحيي البشرية من
جديد ، وهذه الصيحة تنطلق يوم القيامة فيعود على أثرها جميع الخلائق من
الأولين والآخرين إلى الحياة .

إرادة الله في إعادة الحياة إلى البشر :

وحول هذه الصيحة يقول الله في القرآن الكريم :

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾^(١) . ونظراً لأن
السمع هي صفة من صفات الكائن الحي ، فيمكن القول على ضوء ذلك بأن
الصيحة التي تُسمع ، إنما تُجسد كلمة الله والأمر الصادر من مثل الله (جلَّ
وعلا) لإعادة البشر إلى الحياة ، علماً أن صدور هذا الأمر الإلهي وسماعه يتم
في لحظة واحدة ، وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم :

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ .

إنَّ من الأمور الأساسية والمهمة التي يجب أن تحظى بالاهتمام التام في
كافة البحوث المتعلقة بعالم الآخرة ، هي أنه عندما تُظلم الشمس وينتهي
نورها ، وتهاوى النجوم وتتساقط ، وتتلاشى الجبال وتشقق البحار ، ويموت
سكان الأرض والسَّموات ، عندها ينقرض العالم وينتهي عمر هذه الدنيا ،
ويموت الجميع ويزول كل شيء ، وتتوقف كافة الأمور الدنيوية والشؤون
الحياتية بكل ما يتحكم بها من قوانين تكوينية ، وبعد ذلك يعاد بناء العالم بإرادة
الله الخالق القدير ، وتسود العالم قوانين جديدة ، وعندما يُبعث الناس ويعودون
إلى الحياة من جديد بواسطة نفخة الصور ويدخلون عالم القيامة فإنهم يواجهون

(١) سورة ق ؛ الآية : ٤٢ .

عالمًا يختلف تمام الاختلاف عن عالم الدنيا من حيث المخلوقات الموجودة فيه ، والقوانين التي تسوده والأنظمة التي تتحكم به .

المعاندون وتصورهم المرفوض :

إنَّ الأشخاص قصيرو النظر والذين لا يمكنهم تصور عالم آخر غير عالم الدنيا ، عالم تسوده قوانين تختلف عن تلك التي تسود هذه الدنيا ، هؤلاء عندما يسمعون حديثاً حول عودة الناس مرة أخرى إلى الحياة وأوضاع عالم الآخرة ، لا ينطبق مع المعايير التكوينية الموجودة في الدنيا ، فإنهم يعتبرون هذا الحديث أو هذا الكلام غير ممكن ومستحيل واستناداً إلى هذا التصور الباطل فهم يتقنون وجود الآخرة .

أما أتباع الديانات السماوية والمتمسكين بتعاليم الأنبياء الذين يعتقدون بأن الله هو خالق هذا العالم ، فهم يؤمنون بأن قدرة الله وعلمه لا نهاية لهما ، وأن كل ما يريد الله وما تشاءه إرادته يتحقق ، كما أنهم على يقين بأنه سيأتي يوم القيامة ويوم الحساب ، لأن الله (سبحانه وتعالى) أبلغ بذلك الأنبياء عن طريق الوحي ، وأطلعهم بأنه لا يخلف وعده ، وأن مشيئته واقعة لا محالة ، حيث يقول (عز من قائل) في كتابه الحكيم :

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(١) .

الفرق بين قوانين الدنيا وقوانين الآخرة :

رغم أناسنبيّن في المحاضرات القادمة - وبشكل واضح وجليّ - مدى الاختلاف الموجود بين القوانين التكوينية والسنن الطبيعية في الدنيا وبين قوانين عالم الآخرة ، ولكن من أجل تقريب الموضوع إلى الأذهان نشير إلى بعض هذه الاختلافات .

١ - إنَّ الأرض هي بمثابة رحم الأم ، حيث تنمو فيها بذور الأزهار

(١) سورة الحج ؛ الآية : ٧ .

والنباتات والأشجار المختلفة ، كما ينمو الطفل في رحم أمه . فعندما تستقر بذور الأزهار والنباتات تحت سطح التربة فإنها تبدأ بالنمو والتكامل وفقاً لقوانين نظام الخلقة وذلك إذا توفرت جميع الظروف الملائمة للنمو تحت التربة ، وتبدأ هذه البذور وفي الموعد المحدد بالنمو ، حيث تخرج من تحت التربة على شكل نباتات صغيرة وضعيفة ، وتبدأ دورة حياتها النباتية فوق سطح الأرض . وكذلك هو الحال بالنسبة لنطفة الإنسان ، فبعد أن تستقر النطفة في رحم الأم وتجتاز مراحل الكمال بصورة طبيعية فإن هذه النطفة تخرج من رحم الأم في الموعد المحدد على شكل طفل صغير ضعيف ، حيث يجتاز هذا الطفل الضعيف بصورة تدريجية مختلف مراحل الحياة الدنيا .

باطن الأرض ورحم الأم :

إذن ، وطبقاً لسنة الخلق ، فإن باطن الأرض هو بمثابة الرحم الذي تنشأ وتنمو فيه بذور النباتات ، كما أن رحم أو بطن الأم هو المكان الذي تستقر وتنمو فيه نطفة الإنسان . وعندما تقوم القيامة فإن القانون التكويني للإنسان يتغير ، حيث يصبح باطن الأرض بمثابة رحم الأم .

إن جميع أفراد البشر الذين نشأوا وتكونوا في أرحام الأمهات ، ومن ثم جاؤوا إلى هذه الدنيا وأمضوا فيها سني أعمارهم وماتوا من بعد ذلك ، نقول : إن جميع هؤلاء البشر يُصنعون مرة أخرى (ويُعاد تكوينهم وإنشاؤهم) في باطن الأرض ، ومن ثم يخرجون من قبورهم وذلك في يوم القيامة .

ولكن هناك فارق واحد وهو أن الأطفال في الدنيا يخرجون من بطون أمهاتهم وهم في حالة من الضعف الشديد ، حيث تقوى بُنيتهم ويصلب عودهم شيئاً فشيئاً ، أما في الآخرة (عندما تقوم القيامة) ، فإن البشر يخرجون ويبعثون من قبورهم وهم أقوياء وبكامل أعضائهم وجوارحهم ويدخلون عالم المحشر (عالم القيامة) ، حيث يُسألون ويُستجوبون وهم يتمتعون بكامل وعيهم وإدراكهم الصحيح .

وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(١) .

يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا بِالنَّاسِ يُخْرَجُونَ فَجَأَةً مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَيَتَوَجَّهُونَ بِسُرْعَةٍ إِلَىٰ مَكَانِ الْحِسَابِ الْمَقْرَرِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) .

الخلية الأساسية التي يتكون منها الكائن الحي :

إنَّ الخلية الأصلية التي يتكون منها الإنسان والنبات هي عبارة عن ذرَّة حَيَّة تسمَّى خلية التناسل ، وهذه الخلية تستقر في رحم الأم وفي داخل التربة ، وتبدأ بالنمو عن طريق التغذية وامتصاص العناصر الطبيعية والمواد والتركيبات المعدنية .

أما الخلية الأصلية التي يتكون منها الإنسان في رحم الأرض يوم القيامة فهي ما عبَّر عنها الإمام جعفر الصادق عليه السلام بـ «الطينة» وهذه الحقيقة الثابتة والراسخة باستمرار ، تشكل الجانب الأساسي في خلق الإنسان في الدنيا ، كما أنها في عالم الآخرة تشكل الخلية الأساسية التي يتكون منها الإنسان .

الطينة أو العنصر الثابت :

(عن عمَّار بن موسى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : سُئِلَ عَنِ الْمَيِّتِ يَبْلَىٰ جَسَدُهُ ؟ قَالَ عليه السلام : «نَعَمْ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ لَهُ لَحْمٌ وَلَا عَظْمٌ إِلَّا طِينَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تُبْلَىٰ ، تَبْقَىٰ فِي الْقَبْرِ مُسْتَدِيرَةً حَتَّىٰ يُخْلَقَ مِنْهَا كَمَا خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ»^(٢) .

إننا لا نعرف حقيقة «الطينة» وما هي هذه الحقيقة التي هي بمثابة أصل ومبدأ ثابت لكل إنسان ومعيَّار لشخصيته ؟ ولكن يظهر من خلال كلام الإمام (الصادق عليه السلام) بأن الطينة لا تزول بالتطورات والتغيرات التي تطرأ على

(١) سورة يس ؛ الآية : ٥١ .

(٢) أصول الكافي : المجلد ٣ ، صفحة ٢٥١ .

جسم الإنسان خلال فترة الحياة ، كما أنها لا تزول عندما يبلى ويتلاشى جسم الإنسان في القبر ، بل إنها (الطينة) تبقى في الأرض حتى تقوم القيامة حيث يُخلق كل إنسان مرة أخرى من طينته الأولى .

شبهات حول الطينة :

يقول العلامة المجلسي (رضوان الله (تعالى) عليه) في كتاب مرآة العقول : إن أصحاب المسالك المختلفة يفسرون الرواية المذكورة (المنقولة عن الإمام الصادق) بالمفهوم الذي يتلاءم مع المسلك الذي ينتهجونه . ويعطي العلامة المجلسي توضيحاته حول الرواية المذكورة فيقول : البعض يعتبرون أن كلمة «مستديرة» (التي وردت في حديث الإمام الصادق) هي إشارة إلى عدم قابلية الطينة الإنسانية للتجزئة والتقسيم ، كما أن البعض يقول بأن كلمة «مستديرة» تعني التطورات والتغيرات التي تطرأ على طينة الإنسان . وهناك من يقول بأن كلمة «مستديمة» هي التي وردت في حديث الإمام الصادق وليس كلمة «مستديرة» ، حيث أن «مستديمة» تعني أن طينة الإنسان موجودة وباقية دائماً وأبداً^(١) .

والمرحوم العلامة النراقي بحث في كتابة مشكلات العلوم (صفحة ٧٧) ، هذه الرواية وذكر عدة احتمالات منها أن المقصود بطينة أي إنسان هي تلك الذرة من الذرات التي سُئلت من قبل الله منذ الأزل ، حيث يقول القرآن الكريم :

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٣) .

الجزء الأساسي في الإنسان :

واستناداً إلى هذا الإحتمال ، فإن الجزء الأساسي لأي إنسان هو تلك الذرة التي تعتبر أصله الثابت ، وأن سائر أجزاء الإنسان مرتبطة بهذه الذرة .

(١) مرآة العقول : ج ٣ ، صفحة ١٠٢ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٢ .

وهذا الجزء الأساسي أو الأصلي لا يزول ولا يندثر نتيجة للتطورات والتغيرات التي تطرأ على الإنسان ، بل يبقى موجوداً حتى يوم القيامة ، حيث تلتحم وترتبط سائر أجزاء الجسم الإنساني بهذه الذرة الأصلية ، وينشأ بذلك جسم الإنسان (من جديد) .

الحقيقة المجهولة :

على أن وجود مثل هذه الإحتمالات يوضح ذاته هذه النقطة ، وهي أن حقيقة وطبيعة طينة الإنسان غير معروفة ، وأن العلماء لم يتمكنوا من تعريفها وتوضيحها بشكل مؤكد ، وليس فقط أننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة «الطينة» التي هي الأصل الثابت في بناء الإنسان ووجوده ، والتي ورد ذكرها في الأحاديث والروايات (المنقولة عن الأئمة عليهم السلام) ، بل أن هناك في صلب وجود الإنسان الكثير من الأمور والجوانب المجهولة وغير المعروفة ، حيث أن العلماء أشاروا في كتاباتهم العلمية إلى بعض هذه الجوانب ومنها مسألة الوراثة .

إنّ الأبناء يرثون عن آبائهم وأمهاتهم لون البشرة والعيون والشعر وسائر الصفات الوراثية الأخرى ، وهذه الصفات تنتقل إلى الأبناء بواسطة الجينات الكامنة داخل خلية التناسل . ولكن هذا النظام قد يضطرب أحياناً فيولد من أبوين أبيضين طفل أسود البشرة ذو شعر مجعد وأنف منحني ، أي طفل زنجي من زواج أفريقيًا .

يقول العلماء بأن هذه الصفات الوراثية التي ظهرت الآن على هذا الطفل مرتبطة بالجينات التي انتقلت من الآباء والأمهات بالجينات التي انتقلت من الآباء والأمهات البعيدين جداً إلى الأجيال اللاحقة .

العوامل الوراثية البعيدة :

وقد ظلت هذه الجينات مختبئة ومخفية بسبب عدم توفر الظروف الملائمة والمناسبة لظهورها ، وبالنسبة للحالة التي ذكرناها (ولادة طفل أسود من أبوين

أبيضين) ، فإن هذه الظروف الملائمة قد تحققت وظهرت لأسباب وعوامل غير معروفة .

«إنَّ التركيبة الوراثية للأنسجة ليست معروفة أبداً حتى الآن ، ولا نعلم كيف أنَّ جينات والد ووالدة وأجداد كل فرد ، تجتمع في بويضة ينشأ منها الجنين ؟ هل أن أجزاء من نواة خلايا الأجداد البعيدين قد وجدت طريقها إلى تلك البويضة أم لا ؟ ..»

وقد يحدث أحياناً أن أحفاد الأشخاص الذين نعرف خصائصهم وصفاتهم يولد لهم أطفال يتمتعون بخصائص وصفات جديدة»^(١) .

«إنَّ المجرم الذي يحترف الجريمة منذ نشأته وطفولته هو من وجهة نظر علم النفس شبيه بالإنسان القديم (الذي عاش في العصور القديمة) ، حيث الوجه والجمجمة يكونان غير متناسقين عند هؤلاء الأشخاص ، كما تبدو الجبهة بارزة إلى الأمام والأذنان تكونان حادّتان وغير ملتصقتين .»

إنَّ ظهور مثل هذه العلامات إنما يرتبط بالوراثة وهو نوع من العودة إلى الأصل أي إلى الأجداد . ويمكن أن نشاهد في هؤلاء الأشخاص تلك الغرائز التي كانت موجودة لدى الإنسان في العصور القديمة ، كما نشاهد على الحيوانات أحياناً ، آثاراً وخصائص لأنواع من الحيوانات التي انقرضت خلال العصور القديمة»^(٢) .

(١) إنسان ناشناخته (الإنسان ذلك المجهول) : صفحة ٢٤٥ .

(٢) چه ميدانم ؟ (ماذا أعلم) جنایت : صفحة ٣٦ .

الحقيقة التي لا تتغير :

يقولون بأن جسم الإنسان يتجدد بشكل كامل مرة واحدة كل عدة سنوات ، حيث تموت الخلايا الهرمة المستهلكة لتحل محلها خلايا جديدة . ولكن العامل الوراثي القديم الذي يحمل صفات وخصائص الأجداد السابقين هو حقيقة لا تقبل التطور والتغيير ، وهو لا يتعرض للتغيير والفناء على مدى القرون والأعصار ، ويبقى ثابتاً في وجود البشر الذي يواجه التغيير باستمرار وينتقل من فرد إلى آخر ومن جيل إلى جيل ، حتى يصل إلى آخر فرد عندما يظهر للعيان في ظل الظروف الملائمة .

إن طينة الإنسان التي وردت في الحديث هي حقيقة مجهولة ، وهي أولاً :

كعامل الوراثة القديم ثابتة وباقية باستمرار ، ولا يزول بالتغيير الذي يطرأ على خلايا الجسم . وثانياً : أن هذه الحقيقة المجهولة (طينة الإنسان) التي تشكل جانباً أساسياً في الإنسان تبقى موجودة بعد الموت حتى تقوم القيامة ، حيث يُخلق جسم كل إنسان في رحم الأرض (القبر) بأمر من الله (تعالى) ، وذلك على أساس تلك الطينة التي هي الأصل الثابت لكل فرد ، لكي يحضر للحساب أمام الله (سبحانه وتعالى) .

٢ - إن البشر - وفي ظل النظام التكويني في هذه الدنيا - يولدون بصورة تدريجية ، وعلى مدى كل قرن من الزمان هناك مجموعة من البشر يولدون ، كما أن هناك مجموعة أخرى يموتون بصورة تناوبية في كافة أرجاء هذا العالم . أما في يوم القيامة ، فإن الخلائق من الأولين والآخرين يُحيون (يبعثون) دفعة واحدة ، حيث أن جميع البشر يخلقون في رحم الأرض دفعة واحدة بواسطة النفخ في الصور ، وبعدها يخرجون من بطن الأرض دفعة واحدة أيضاً .

خروج الموتى من بطن الأرض :

وكما يظهر من خلال الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة فإن قانون تكوّن الناس ونشوتهم مرة أخرى في عالم الآخرة هو كقانون حياة النباتات وانبعث

الحياة في النباتات والحشائش ، وهذا ما ورد ذكره مرات عديدة في القرآن الكريم ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) .

كما يقول القرآن الكريم في آية أخرى :

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾^(٢) .

وهناك آية مباركة أخرى تقول :

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(٣) .

كما يقول الله (جلّ وعلا) في محكم كتابه العزيز :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤) .

وكما نلاحظ من خلال هذه الآيات أن الله (سبحانه وتعالى) يقارن بين بعث الموتى وإعادتهم إلى الحياة يوم القيامة ، وبين إحياء الأرض الميتة ونمو النباتات فيها ، وعلى هذا فإن القرآن الكريم يعلن في الحقيقة عن قانون جديد

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٥٧ .

(٢) سورة فاطر ؛ الآية : ٩ .

(٣) سورة الزخرف ؛ الآية : ١١ .

(٤) سورة فصلت ؛ الآية : ٣٩ .

حول كيفية تكوّن ونشوء البشر . والأمرُ الملفت للإنتباه أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن إحياء الأرض يتطرق قبل ذلك إلى هطول الأمطار ونزول الماء الذي هو العنصر الأساسي للحياة .

هطول مطر الحياة :

كما أن الأحاديث والروايات المنقولة عن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام حول إحياء الموتى يوم القيامة ، تشير أيضاً إلى مسألة هطول الأمطار .

(عن قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : «بين النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قال أصحابه : فما سألناه عن ذلك وما زاد غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة قال وذكر لنا أنه يُبعث في تلك الأربعين مطرٌ يقال له مَطَرُ الحياة حتى تَطيبَ الأرض وتهتز وتنبت أجسادُ الناس نباتَ البقلِ ثم يُنفخُ النَّفخةُ الثانيةُ فإذا هم قيامٌ ينظرون» (١) .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «إذا أراد الله عز وجل أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبت اللحم» (٢) .

٣ - طبقاً للقوانين التكوينية لهذا العالم ، فإنه لا يوجد أي شيء دائم وأبدي في هذا العالم المؤقت المنقضي ، وإن كافة المخلوقات من هذه الدنيا تتعرض للتغيير باستمرار ، والإنسان باعتباره من تلك المخلوقات ليس مستثنى من هذه القاعدة الأساسية وهذا القانون العام . فالإنسان يواجه الشيخوخة إلى جانب الشباب ، كما يواجه الضعف إلى جانب القوة ، والمرض إلى جانب

(١) الدر المنثور : ج ٥ ، صفحة ٣٣٩ .

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق : صفحة ١٠٧ .

السلامة والعافية ، وأخيراً فهو من بعد الحياة يواجه الموت .

الإنسان والتطورات الطبيعية :

وقد استعرض القرآن الكريم في العديد من الآيات الشريفة ، هذه المراحل والتغيرات ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(١) .

ويقول «عز من قائل» في آية أخرى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢) .

إن عالم الآخرة هو على عكس عالم الدنيا لا يتعرض للتغيير ، ففي عالم الآخرة لا وجود للشيخوخة والهَرَم والضعف والوهن والألم والمرض والموت والفناء ، فعالم الآخرة عالم من نوع آخر يخضع لقوانين أخرى ، والأوضاع في الآخرة ثابتة لا تتغير والنعم التي فيها دائمة وأبدية ، ولا يزداد عدد الناس في الآخرة لعدم وجود حالات الولادة (كما هو الحال في الدنيا) ، كما لا يتناقص عدد أهل الجنة وأهل النار لعدم وجود حالات موت ووفيات . فالحياة في الآخرة أبدية دائمة والعيش فيها مستمر وغير زائل . وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

ويقول الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات في غريب القرآن : إن الحيوان الحقيقي السرمدي الذي لا يفنى لا ما يبقى مدة ثم يفنى .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عجباً كلُّ

(١) سورة الروم ؛ الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الملك ؛ الآية : ٢ .

(٣) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٦٤ .

العَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْحَيَوَانِ وَهُوَ يَسْعَى لِدَارِ الْغُرُورِ»^(١) .

النقطة الأخرى التي يمكن أن نشير إليها في مجال الاختلاف بين حياة الدنيا وحياة الآخرة هي أن العناصر الأولية والمواد المعدنية في هذا العالم هي بصورتها الطبيعية مواد وعناصر مية ، وأن بعض هذه العناصر أو المواد عندما تدخل ضمن إطار قانون الحياة فإنها وبفضل الإرادة التكوينية لله الخالق القدير تتمتع بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الإنسانية ، بعد أن تصبح جزءاً من أنسجة أي كائن من الكائنات الحية في هذا العالم .

تناوب الموت والحياة :

ولكن نظراً لأن الحياة في هذا العالم محدودة الأمد ومؤقتة ، لذلك فإن الكائن الحي والمواد والعناصر التي أحييت في جسمه تموت مرة أخرى وتعود إلى دورة الطبيعة الميتة ، وهذا التحول من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت هو إحدى الآيات (المعجزات) الإلهية الكبرى .

والقرآن الكريم يشير في موارد عديدة إلى أن هذه المهمة تختص بها الذات الإلهية المقدسة : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾^(٢) .

الآخرة والحياة المطلقة :

إن الموت لا وجود له في عالم الآخرة وهو عالم السمو والكمال ، فهناك جميع الأشياء وكافة أجزاء العالم حية ، وبالتالي فإن كل شخص وكل شيء يتمتع بنعمة الحياة في عالم الآخرة ، وكل موجود حي سيتمتع بدوره بنوع من الشعور وقوة الإدراك والفهم التي هي شعاع من جذوة الحياة .

إن الكرة الأرضية في دار الدنيا هي عبارة عن جماد ميت ولكنها تتغير يوم

(١) الدر المنثور : ج ٥ ، صفحة ١٤٩ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ١٩ .

القيامة وتصل إلى مرحلة الكمال وتبعث فيها الحياة ، ونتيجة لبعث الحياة فيها فهي (الكرة الأرضية) تصبح قادرة على فهم بعض الحقائق والأمور الواقعية ، كما تصبح قادرة على بيان ما تدركه وتفهمه ، والإفصاح عما تلمّ به وتعرفه .

وهذه النقطة أشار إليها القرآن الكريم حيث يقول : ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (١) .

عندما تتكلم الأرض :

(عن النبي ﷺ قال : «أتدرون ما أخبارها» قالوا الله ورسوله أعلم . قال : «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا» (٢) .

وهناك أبيات شعرية باللغة الفارسية في هذا المجال يقول فيها الشاعر ما معناه (٣) :

في ذلك اليوم (يوم القيامة) ، تبدأ الأرض بالتحدث والتكلم ، تتحدث عن أعمال وأفعال كل واحد من أفراد البشر في الدنيا ، تتكلم الأرض عما فعله كل إنسان في الخفاء بكل تفاصيله وبشكل مسهب ودقيق .

عندما تنكشف الأوراق وتظهر الأسرار ، عندما تنحبس أصوات الناس في أفواههم من شدة الخجل لما ارتكبوه وقاموا به من أعمال وممارسات في الدنيا .

(قال رسول الله ﷺ : «حافظوا على الوضوء خيراً أعمالكم الصلاة وتحفظوا من الأرض ، فإنها أمكم وليس فيها أحد يعمل خيراً أو شراً إلا وهي مُخْبِرَةٌ بِهِ» (٤) .

(١) سورة الزلزلة ؛ الآيتان : ٤ و ٥ .

(٢) تفسير مجمع البيان : ج ١٠ ، صفحة ٥٢٦ .

(٣) الصفحة : ٥٧ من كتاب المعاد (الأصل فارسي) .

(٤) تفسير مجمع البيان : ج ١٠ ، صفحة ٥٢٦ .

(عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «إن الأرض لتُخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها» وقرأ رسول الله الآية ثم قال : «أتدرون ما أخبارها؟ ، جاءني جبرئيل قال : خبرها إذا كان يوم القيامة أُخبرت بكل عمل عمل على ظهرها»^(١) .

إنبعاث الحياة في ذرات الأرض :

يوم القيامة ليس فقط تُبعث الحياة في الكرة الأرضية بمجملها ، بل وكان كل ذرة من ذراتها هي بمثابة خلية حية في وجود هذه الكرة الترابية : كما أن كل خلية في الدنيا هي جزء حي ضمن جسر الكائن الحي . ونظراً لأن كل ذرة من ذرات الأرض تتمتع بالحياة والإدراك يوم القيامة ، فإن إسرافيل عندما ينفخ في الصور بهدف إحياء الموتى ، فإنه في الحقيقة يخاطب كل ذرة من تلك الذرات ويقول لها :

(أيتها العظام البالية واللحوم المنقطعة ليُقمن إلى العرض على الملك الديان ليُجازيكم بأعمالكم)^(٢) .

إن الشجرة في هذا العالم لها حياة نباتية ، ولكن حياة الشجرة في الآخرة هي حياة متكاملة إلى درجة أنه لا يمكن مقارنتها مع الحياة النباتية في الدنيا ، وليس هذا فحسب ، بل البشر في الدنيا لا يمكنهم أن يتصوروا ذلك أو على الأقل أنه أمر محير ومدهش بالنسبة لهم .

شجرة طوبى :

(عن عليّ بن أبي طالب قال : «وطوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ وليس من مؤمن إلا وفي داره غصن منها لا تخطر على قلبه شهوة شيء إلا أتاه به ذلك الغصن»^(٣) .

(١) الدر المنثور : ج ٦ ، صفحة ٣٨٠ .

(٢) لآلىء الأخبار : صفحة ٤٥٦ .

(٣) الأمالي للشيخ الصدوق : صفحة ١٤٣ ، مجلس : ٣٩ .

فالمؤمنون الذين يوجد في منزل كل واحد منهم غصن من أغصان هذه الشجرة ، هم الذين اكتسبوا واستوعبوا التعاليم الإلهية من الأنبياء على مرّ العصور والأزمان ، وطبقوا هذه التعاليم الإلهية ونالوا بذلك السعادة الأبدية ، وبالتالي فقد استحقوا الأجر والثواب من الله (تعالى) .

ونظراً لأنّ محمداً ﷺ هو سيّد الأنبياء ، فهو جدير بأن يكون أصل شجرة طوبى في منزله وفروعها تمتد داخل منازل وبيوت الأنبياء وأتباعهم .

والنار في هذه الدنيا وفي هذا العالم ليست فقط لا تتمتع بالحياة ، بل هي بحد ذاتها ضد مبدأ الحياة ، وإن أي كائن حي من نبات وحيوان وإنسان إذا ما أُلقي في النار ، فإنها تحرقه وتنتهي حياته . أما في عالم الآخرة ، فإن جهنم هي موجود حي ، والنار التي فيها أيضاً تتمتع بالحياة والشعور والإدراك .

وكما سنبيّن ذلك فيما بعد فإن أهل جهنم يعذبون في النار ، ولكنهم لا يموتون ولا تنتهي حياتهم ، بل يبقون على قيد الحياة بصورة مستمرة ، حيث يتألمون من عذابها . وبالنسبة للذين لا يمكنهم تصور نار غير نار الدنيا ، فإن نار جهنم وخصائصها هي برأيهم أمر مستحيل لا يمكن تصوره والقبول به ، وهم يقولون مع أنفسهم : هل من الممكن أن يبقى إنسان في وسط النيران تحيط به ألسنتها لمدة طويلة ، رغم ذلك يبقى حياً ولا يحترق ويموت ؟ .

الشجرة التي تنمو في النار :

ويقول الله (سبحانه وتعالى) حول مثل هذه الشجرة ، وهي شجرة الزقوم : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾^(١) ، (أي أنّ الزقوم شجرة تنبت في قعر جهنم وأغصانها تُرْفَعُ إلى دَرَكَاتِهَا)^(٢) .

وعندما سمع أبو جهل هذه الآية اضطرب بشدة وتحدث بكلمات منها أنه

قال :

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ٦٤ .

(٢) «عن الحسن» تفسير مجمع البيان : ج ٧ و ٨ ، صفحة ٤٤٦ .

إن محمداً يزعم أن النار تنبت الشجرة والنار تُحرق الشجرة^(١) .
إن أبا جهل حصر نفسه في إطار عالم الطبيعة ، وبالتالي فإنه لا يستطيع أن يفكر في نظام آخر . فقد تحدّث وفقاً لمعيار نار الدنيا عندما قال : إن النار تحرق الشجرة ولا تُنبتها ، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن نظام تكويني لعالم آخر ، فهو يتحدث عن نار القيامة ، وهي نار حيّة ، تفهم وتدرك ، نار يتعذب فيها الإنسان بأشدّ العذاب ، ولكنه لا يموت ولا يحترق لكي يتحول إلى رماد .
فهذه النار حيّة واعية مدركة تنمي في داخلها شجرة حيّة ، وتجعلها باسقة ومثمرة .

أعلى مدارج الحياة :

على أن أفراد البشر أيضاً يتمتعون في عالم الآخرة بأعلى مدارج الحياة ، وأقوى مراتب الإدراك والشعور ، وبالتالي فهم يسرون في طريق السمو والرقى إلى درجة لا يمكن معها مقارنة حياتهم المشرقة الوضوءة والمتكاملة في عالم الآخرة مع الحياة التي كانوا يعيشونها في الدنيا .

إن أول منزل من منازل السمو الإنساني يمر به الفرد بعد عالم الدنيا هو عالم البرزخ ، وإن التكامل النهائي الذي هو أعلى مدارج السمو ، لا يناله البشر إلا في عالم الآخرة . والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يشبه حياة الناس في الدنيا وفي البرزخ بحالة النوم واليقظة ، حيث يقول صلى الله عليه وآله وسلم :
«الناس نيامٌ إذا ماتوا انتبهوا» .

الفرق بين الإنسان النائم والإنسان اليقظ :

الشخص النائم حي وقلبه ينبض ، والدم يجري في عروقه ، ورثيته تتنفسان ، ومعدته وكبدته يعملان .

(١) تفسير مجمع البيان : صفحة ٤٤٦ .

والخلاصة : أن معظم أعضائه وجوارحه تعمل أثناء النوم ، ولكن هناك بون شاسع بين الإنسان النائم والإنسان اليقظ : فالشخص النائم لا يفكر ولا يعي ولا يدرك شيئاً ، كما أنه لا يسمع ولا يرى ولا يميز بين الخير والشر ، وبين الصلاح والفساد ، كما أن قسماً من قواه الظاهرية والباطنية تتوقف عن العمل تقريباً ولكن نفس هذا الشخص عندما يستيقظ يتغير وضعه تماماً ، حيث يواصل حياته بشكل أكمل وإحساس أقوى .

عالم الآخرة وتكامل الإنسان :

إذن ، فالفرق بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية للإنسان هو كالفرق بين حالتي النوم واليقظة عند الإنسان ، وهذا الفرق أو الاختلاف يزداد في عالم الآخرة ، لأن حياة الناس في ذلك العالم تصل إلى الكمال النهائي وبنفس النسبة يزداد وعيهم وإدراكهم وشعورهم .

إن حُجب الغيب تزول في عالم الآخرة بأمر من الله ، كما تزول حالة عدم الوعي والغفلة من بين الناس ، وكل الأمور والقضايا التي (كان البشر يجهلها وكانت مخفية عليه في الدنيا) هذه الأمور تنكشف وتتضح أمامه في الآخرة ، كما أن قدرة الإنسان على السماع والنظر تزداد .

والخلاصة : أن الإنسان في عالم الآخرة يرى الكثير من الحقائق التي كانت مخفية عليه ويجهل حقيقتها (في الدنيا) : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾^(١) .

في يوم القيامة يصبح الباطن ظاهراً مكشوفاً :

٤ - من أوجه الاختلاف الأخرى بين الدنيا والآخرة هي أن الإنسان أو الفرد في الدنيا سواء كان يتمتع بالأخلاق الفاضلة الكريمة والسجيا والصفات

(١) سورة ق ؛ الآية : ٢٢ .

الإنسانيه النبيلة أو كان سئىء الأخلاق ذا صفات وطباع مذمومة . فإن باطنه يكون مجهولاً ولا أحد يعرف شيئاً عن حقيقته وعن باطنه ، وينظر إليه الناس في الظاهر كإنسان .

ولكن في الآخرة وفي يوم القيامة ، تنكشف بواطن الأفراد ويظهرون على حقيقتهم ، بحيث أن كل شخص يوم القيامة يُحشر بالصورة التي كان عليها باطنه ، ووفقاً للصفات والطباع (السيئة أو الحسنة) التي أوجدها في نفسه .

(عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١) .

ومن هذا المنطلق يتضح لنا بأن العذاب الذي يواجهه الأشرار يوم القيامة سببه الأعمال السيئة التي ارتكبوها في الدنيا ، حيث صاغوا باطنهم على هيئة تلك الأعمال السيئة .

وبالطبع فكلما ازداد قبح الذنوب التي ارتكبتها الفرد في الدنيا ، وكلما كانت هذه الذنوب أكثر نفاذاً ورسوخاً في أعماق روحه (وفي باطنه) ، كلما ازداد عذابه في الآخرة ، حيث أن هذا العذاب سيكون أشد وأقسى من حيث كلفه ونوعيته ، كما أن فترة العذاب التي يتعرض لها هؤلاء الأشخاص ستكون أطول .

مفهوم العذاب الأبدي :

وعلى هذا الأساس يمكن تفسير مفهوم العذاب الأبدي الذي يتعرض له أهل جهنم الخالدين في النار ، حيث أن هؤلاء - وطوال فترة حياتهم في الدنيا - لم يكن تفكيرهم إلاً جهنمياً ، كما لم يكن عملهم إلاً جهنمياً أيضاً .

وبالطبع ، فإن مثل هؤلاء الأفراد الجهنميون - بكل أعضائهم وجوارحهم جعلوا من كل وجودهم وكيانهم وجوداً وكياناً جهنمياً - ، يبقون في جهنم إلى أبد

(١) مشكاة الأنوار : صفحة ١٤٧ .

الآبدین ولا یفصلون أبداً عن البیئة والمحیط الذی یتلاءم ویتناسب مع ترکیبتهم (وحقیقتهم الباطنیة) (۱) .

ولتوضیح مفهوم تریبة وبناء الذات ، ولكی یطلع الأفراد أكثر فأكثر علی القیم الإنسانیة الكامنة فیهم ، فمن الضروري أن نقدم توضیحا مختصراً حول حریة البشر التي هی من النعم الإلهیة الكبیری ، كما أن الأساس فی تكامل البشر وسموه أو انحطاطه وسقوطه یرتبط بهذه النعمة الإلهیة .

إن الإنسان فی عالم الطبیعة هو كائن خلق یُعدین بعد حیوانی وبعده إنسانی ، كما أن الإنسان هو المخلوق الوحید الذی أعطاه الله حریة العمل والتصرف ، ومنحه حق الاختیار . وحق الاختیار هذا جعله الله فی ذات الإنسان وطبیعته ، كما جعل الله الإنسان حرّاً فی تقرير مصیره وانتهاج سبیل السعادة أو الشقاء .

وفي هذا المجال یقول القرآن الکریم : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (۲) .

فالإنسان حرّ لأنه یستطیع أن یرسیر دون قید أو شرط وراء أهوائه النفسیة وشهواته ، وبالتالي یحصر نفسه فی إطار البعد الحیوانی ، ویتجاهل القیم الإنسانیة ، ویتتهج سبیل السقوط والانحطاط ، كما یستطیع هذا الإنسان أن یعیش إنساناً وأن یحیی كافة أبعاده الوجودیة بشكل دقیق ومحسوب ، ویستفید من جمیع هذه الأبعاد والقیم الإنسانیة لیصل إلى الكمال الإنسانی الذی یلیق به .

الإنسان الذی یبیع نفسه :

(عن علیؑ) قال : «الدُّنیا دارٌ مَمَرٌ لا دارٌ مَقَرٌّ والناس فیها رَجُلان

(۱) المترجم .

(۲) سورة الإنسان ؛ الآیة : ۳ .

رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا» (١) .

إن الإنسان والحيوان كلاهما يملكان غرائز وأهواء وشهوات نفسية ، ولكن هناك فارق واحد بين الإنسان والحيوان : وهو أن الحيوان له بُعد واحد ، والغريزة وحدها هي التي تحكم وجوده وتهيمن على كيانه ، وعندما تتحرك هذه الغريزة فإن الحيوان بكل وجوده يصبح أسيراً وخاضعاً لها ، وبالتالي فهو مُرغم على بذل الجهد والعمل من أجل إرضاء وإشباع هذه الغريزة .

أمّا الإنسان العامل الحر فإنه مخلوق ذو بعدين ، فحينما يرى الإنسان أن إرضاء غريزته أمر منافٍ للعقل ومنافٍ لمصلحته في العيش والحياة ، فإنه قادر على مقاومة هذه الغريزة وعدم الإستسلام لضغوطها ، وبالتالي عدم الإنقياد لها وعدم إرضائها .

وعلى ضوء هذه القدرة وحرية الإختيار فإن البشر يستطيع - إذا أراد ذلك - أن يجعل من نفسه إنساناً بكل معنى الكلمة ، وأن يتبع نداء العقل والضمير الأخلاقي ، وبالتالي يعتق نفسه ويحررها من أسر النفس الأمارة بالسوء ، وأهوائه النفسية وشهواته .

ولسوء الحظ فإن العقل ضعيف في وجود الإنسان وكيانه بالمقارنة مع الغرائز وأهواء النفس الإنسانية ، ولكي يطلع الناس على ما يدور في أنفسهم وفي داخلهم ، وبالتالي لكي يحذروهم من خطر أهواء النفس ، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام : «الهُوى يَقْظَانُ وَالْعَقْلُ نَائِمٌ» (٢) .

عندما تتحرك الغريزة يزول العقل :

عندما تتهيج الغريزة وتتحرك وتدعو صاحبها إلى إشباعها وإرضائها ، فإن العقل آنذاك يميل نحو الظلام ويفقد القدرة على التمييز بين الصلاح والفساد ،

(١) نهج البلاغة ، كلمة : ١٣٣ .

(٢) بحار الأنوار : المجلد ١٧ ، صفحة : ١٨١ .

وكان الإنسان في تلك اللحظة يصبح غريباً عن نفسه وذاته ، وينسى الخصال الإنسانية وكرامة النفس ، ويتعد عن مسير الحق والفضيلة .

وإذا ما تكرر هذا الوضع واستقرت وترسخت رذائل الأخلاق في باطن الفرد ، فإن هذا الفرد يفقد مبادئه وقيمه الإنسانية شيئاً فشيئاً ، ويتحول إلى حيوان ظاهره إنسان .

الإنسان الغافل أضل من الحيوان :

وهنا يقول القرآن الكريم : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(١) .

(عن عليّ بن ابي طالب قال : « فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتبعه ولا باب العمى فيصد عنه وذلك ميت الأحياء»)^(٢) .

الأنبياء وتقوية العقل :

لقد بعث الله الأنبياء ليقوي العقول الضعيفة ويوجه اهتمام الإنسان إلى بعده الإنساني ، وقد كلف الله هؤلاء الأنبياء بأن يوقظوا عقول الناس ويقوّوا عندهم الحكمة والفكر ، وذلك من خلال الأدلة والمناظرات العلمية ، لكي يتمكنوا من كبح جماح غرائزهم والتغلب على أهوائهم النفسية وشهواتهم ، ويصلوا - بالتالي في ظل السعي ، ومجاهدة النفس - إلى مدارج الإنسانية العليا .

«فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته ويثيروا لهم دفائن العقول»^(٣) .

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٩ .

(٢ و ٣) نهج البلاغة ، خطبة ٨٧ .

وقد استجاب بعض الناس لدعوة الأنبياء وقوّوا عقولهم بعد أن استعانوا بالوحي والإيمان ، وسلّموا زمام الغرائز إلى العقل (الذي يحكم بما تقتضيه مصلحة الفرد) ، وعملوا على إرضاء هذه الغرائز بشكل مدروس (وفي إطار العقل والمنطق) ، وفي إطار القيم الإنسانية والشأن الإنساني .

التغلب على أهواء النفس :

ونتيجة لاتباع هذا المنهج ، فإن هؤلاء الأفراد أصبحوا من أنصار واتباع الحق والعدالة ، وتحرروا من عبودية الشهوات ، وتغلبوا على أهوائهم النفسية ، ووصلوا بذلك إلى المدارج العليا للإنسانية .
وعن هؤلاء الأفراد الذين هم أناس بكل معنى الكلمة ونالوا السعادة والفلاح يقول علي عليه السلام :

العمل على أساس العدل :

«قد أخلص لله فاستخلصه فهو من معادين دينه وأوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العدل فكان أول عدله نفي الهوى عن نفسه يصف الحق ويعمل»^(١) .
والبعض الآخر من الناس ليس فقط لم يستجيبوا لرسالة الأنبياء التحررية ، ولم يعملوا على تقوية أفكارهم وعقولهم بالإستعانة بالتحاليم الإلهية ، بل على العكس من ذلك أقاموا حجاباً أمام عقولهم الطبيعي بحيث أصبح هذا العقل غير قادر على درك الحقائق ومعرفة حقائق الحياة الإنسانية ، وذلك نتيجة لتمادي هؤلاء في حب الدنيا وعبادتها والإفراط في إشباع وإرضاء الشهوات .

وعن هؤلاء الأفراد البؤساء المحرومين يقول علي عليه السلام :

«قد خرقت الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولّته عليها نفسه فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها»^(٢) .

(١) المصدر السابق .

(٢) نهج البلاغة ، خطبة ١٠٩ .

العقل أسير هوى النفس :

إن عقل مثل هذا الإنسان البائس المغلوب على أمره ، كأسير في قبضة هوى النفس ، والعقل إذا كان أسيراً لا يستطيع أبداً أن يفكر بحكمة ، وأن يعثر على طريق الصلاح ، وبالتالي يبعد صاحبه عن الشر والفساد .

عن عليّ عليه السلام قال : «كم من عقل أسير تحت هوى أمير»^(١) .

وعنه عليه السلام قال : «حرامٌ على كلِّ عقلٍ مغلولٍ بالشهوة أن ينتفع بالحكمة»^(١) .

إن هؤلاء الذين هم عبدة الشهوات والغرائز وأهواء النفس ، الذين لا يشعرون بوازع أو رادع يحول بينهم وبين تحقيق آمالهم وتمنياتهم الشريرة القدرة ، هم دائماً معرضون للسقوط والضياع ، وهؤلاء يمكن أن يمارسوا الظلم ويقوموا بأعمال غير إنسانية ويعتدوا على الآخرين ويتهكوا ممتلكاتهم وأموالهم وحقوقهم ويتصرفوا تصرفاً حيوانياً ويتمادوا إلى أقصى الحدود في الاستهتار وعدم الإكتراث ، وممارسة الأعمال المذمومة والقبیحة ، حتى تصبح أخلاقهم وطباعهم شيئاً فشيئاً كأخلاق وطباع الحيوانات .

الأشخاص السيئو الخلق يحشرون على هيئة حيوانات :

كما تبين من خلال المصادر الإسلامية ، فإن ذوي الأخلاق الفاضلة الحسنة في الدنيا يحشرون يوم القيامة على هيئة الإنسان ، أما الذين جعلوا من أنفسهم كالحيوان وتخلّقوا بأخلاق غير إنسانية ، فإنهم يحشرون يوم القيامة على هيئة تتناسب مع نفسياتهم وأخلاقهم في الدنيا ، حيث يقول القرآن الكريم :

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾^(٣) .

(أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب أن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله

(١) نهج البلاغة ، كلمة ٢١١ .

(٢) فهرست غرر الحكم ، صفحة ٧٨ .

(٣) سورة النبا ؛ الآية : ١٨ .

ما قول الله : ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ فقال^(١) : «يا معاذ سألت عن أمرٍ عظيمٍ» ثم أرسل عينيه ثم قال : «عَشْرَةٌ أَصْنَافٍ قَدْ مَيَّزَهُمُ اللَّهُ مِنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَبَدَّلَ صُورَهُمْ فَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ وَبَعْضُهُمْ مَنكُسُونَ أَرْجُلَهُمْ مِنْ فَوْقٍ وَأَوْجُوهُهُمْ مِنْ تَحْتٍ ثُمَّ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا ، وَبَعْضُهُمْ عُمِيٌّ يَتَرَدَّدُونَ وَبَعْضُهُمْ صَمٌّ بِكُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَبَعْضُهُمْ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ وَهِيَ مَدْلَاةٌ عَلَى صُدُورِهِمْ يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ لِعَابًا يَقْدِرُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ وَبَعْضُهُمْ مَقْطَعَةٌ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جَذُوعٍ مِنْ نَارٍ وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجَيْفِ وَبَعْضُهُمْ يَلْبَسُونَ جُبَابًا سَابِغَاتٍ مِنْ قَطْرَانٍ لَازِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ فَالْقَتَاتُ^(٢) مِنَ النَّاسِ وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ فَأَكَلَةُ السُّحْتِ وَالْمَنكُوسُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَأَكَلَةُ الرَّبَا وَالْعُمِيُّ مَنْ يَجُورُ فِي الْحُكْمِ وَالصَّمُّ الْبِكْمُ الْمَعْجِبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَالَّذِينَ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَالْعُلَمَاءُ وَالْقَضَاةُ مِنَ الَّذِينَ يَخَالِفُ قَوْلَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَالْمَقْطَعَةُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ وَالْمُصَلَّبُونَ عَلَى جَذُوعٍ مِنْ نَارٍ فَالسُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السَّلْطَانِ وَالَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ نَتْنًا مِنَ الْجَيْفِ فَالَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَيَمْنَعُونَ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ الْفُقَرَاءِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَالَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجُبَابَ فَأَهْلُ الْكِبَرِ وَالْخِيَلَاءِ وَالْفَخْرِ»^(٣).

وهناك أبيات من الشعر الفارسي في هذا المجال يقول فيها الشاعر ما
معناه :

إن الصفات أو السجايا التي تطفئ على وجودك هي التي ستحشر على

(١) الدر المنثور : المجلد ٦ ، صفحة ٣٠٧ . للعلامة الشيخ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي .

(٢) القتات والقوت : النمام وقيل هو الذي يستمع أحاديث الناس من حيث لا يعلمون (منجد اللغة : صفحة ٦٠٧ . . . المترجم) .

(٣) تفسير مجمع البيان المجلد الخامس صفحة ٦٤٢ .

أساسها يوم القيامة ، حيث يحكم على الإنسان في الآخرة على أساس تلك الصفة أو الخصلة التي تغلب عليه ، كما أن المعدن إذا كانت نسبة الذهب الموجودة فيه تزيد عن نسبة النحاس الذي فيه ، فهو ذهب .

فالذين عندهم صفة الحسد فإنهم يُحشرون يوم القيامة على هيئة ذئاب ، أما الشخص الطمّاع الجشع الذي ينهش أجسام الناس فهو يحشر يوم القيامة على هيئة خنزير .

وهناك حديث آخر عن الرسول ﷺ يصف فيه حالة بعض الأفراد الضالّين من ذوي الأخلاق الفاسدة يوم المحشر :

« ومنهم المسحوب على وجهه الماشي على بطنه ومنهم من يوطأ بالأقدام مثل الذرّ»^{(١)(٢)} .

(عن النبي ﷺ قال : «يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعا لسانه في قفاه وآخر في قدامه يلتهبان نارا حتى يلهب جسده ثم يقال له هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين ولسانين يُعرف بذلك يوم القيامة»)^(٣) .

(وقال ﷺ : «يُحشرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ رُكْبَانًا وَمَشَاءَ وَعَلَى وُجُوهِهِمْ» . فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ قَالَ : «الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»)^(٤) .

معيّار الإختلاف في الأشكال يوم القيامة :

هذا الإختلاف في الشكل الظاهري بين البشر يوم القيامة يكون على

(١) لآليء الأخبار : صفحة ٤٥٧ .

(٢) الذرّ النمل الأحمر الصغير ، مفردة ذرّة (لسان العرب باب الرء : صفحة ٣٠٤ . . . المترجم) .

(٣) كتاب عقاب الأعمال ، صفحة ٣٣١ .

(٤) علم اليقين : صفحة ٩٠١ .

أساس اختلاف البشر من حيث الأخلاق والصفات الباطنية ، حيث أن بواطن الأشخاص تظهر على حقيقتها يوم القيامة ، والجوانب الخفية تصبح ظاهرة للعيان ، وأن جسم كل إنسان يخلق (من جديد) وفقاً لملكاته الروحية والنفسية ، وصفاته الخلقية .

ونظراً لأن نوايا الأفراد وأفكارهم تختلف من فرد إلى آخر ، فقد جاء في الحديث الشريف بأن كل روح (من أرواح البشر) لها ثقب خاص بها في صور إسرافيل ، وأن كل روح من الأرواح تخرج من هذا الثقب الخاص بها لتتجه إلى جسمها .

ثقوب النور وثقوب الظلام :

(والصُّورُ قَرْنٌ مِنْ نُورٍ فِيهِ أَنْقَابٌ عَلَى عَدَدِ أَرْوَاحِ الْعِبَادِ فَتَجْتَمِعُ الْأَرْوَاحُ كُلُّهَا فَتُجْعَلُ فِي الصُّورِ .

فإذا نادى إسرافيلُ في الصُّورِ خَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ أَنْقَابِ الصُّورِ ، فَتَنْشِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَأَنَّهَا النَّحْلُ ، يَخْرُجُ مِنْ كُلِّ ثَقْبٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الثَّقْبِ غَيْرُهُ ، فَأَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ تَخْرُجُ مِنْ أَنْقَابِهَا نَائِرَةً بِنُورِ الْإِيمَانِ وَبِنُورِ أَعْمَالِهَا الصَّالِحَةِ ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ تَخْرُجُ مُظْلَمَةً بِمُظْلِمَةِ الْكُفْرِ وَإِسْرَافِيلُ يُدِيمُ الصَّوْتِ وَالْأَرْوَاحُ قَدْ انْتَشَرَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ تَدْخُلُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا الَّذِي فَارَقَتْهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا) (١) .

وهناك أبيات من الشعر الفارسي (٢) توضح هذه الحقيقة ، يقول فيها الشاعر ما معناه :

«إن روح العالم تذهب إلى العالم (وهو الله سبحانه وتعالى) أما روح الظالم فتحشر مع الظالمين ، حيث أن الله بعلمه وإحاطته بكل شيء يفصل بين

(١) تفسير البرهان : المجلد ٤ ، صفحة : ٨٧ .

(٢) الصفحة : ٧٣ من الأصل الفارسي .

الإثنين (يوم القيامة) كما يفصل نور الصباح بين النعجة والخروف» .

وخلاصة الكلام : أن بعض الناس في هذه الدنيا هم إنسانيون في ظاهرهم وباطنهم ، أي شكلهم شكل إنساني وكذلك أخلاقهم وممارساتهم هي إنسانية ، ولكن بعض الناس هم على شكل إنسان ، ولكنهم حيوانات من حيث الأخلاق والطباع ، أي أن هؤلاء لهم وجوه (وأشكال) آدمية ، ولكنهم يلدغون ويلسعون كالأفاعي والعقارب ، ويفترسون كالذئاب والنمور .

وهؤلاء لا يفضحهم الله في الدنيا ولا يسلبهم ظاهرهم الإنساني وملامحهم الأدمية ، ولكن يوم القيامة تتغير أوضاعهم وينكشف سرهم ، ويحشرون بأمر من الله في شكل يتناسب ويتفق مع سجايهم الخلقية السيئة وصفاتهم المذمومة .

وبعبارة أخرى فإن هؤلاء ذوي الطباع الحيوانية المتوحشة كانوا في الدنيا يصيغون ويحددون طبيعة أعمالهم السيئة ، أما في الآخرة فإن أعمالهم السيئة هي التي تصيغ مصيرهم وتحدد مستقبلهم وعاقبة أمرهم ، وتكشف النقاب عن وجههم القبيح وباطنهم السيء ، ولهذا فإن أهل المحشر يطلعون على فساد وسوء أخلاق هؤلاء وزيف إيمانهم بمجرد أن ينظروا إليهم ، حيث يقول الله (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم :

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾^(١) .

(١) سورة الرَّحْمَنِ ؛ الآية : ٤١ .

المحاضرة الثالثة عشرة :

المعاد وأصحاب المدارس المختلفة شبهات حول المعاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(١) .

المدرسة المادية :

أصحاب المدرسة المادية الذين يعتبرون الوجود مساوياً للمادة تماماً ، ليسوا هم المعنيين في بحثنا هذا حول المعاد ، وليسوا هم المخاطبين في هذا المجال ، فهؤلاء يجب أن نناقشهم ونتباحث معهم حول الله والأدلة والبراهين التي تثبت وجود الخالق ، لأن هؤلاء ينظرون إلى هذا العالم من منطلق مادي فهم يعتبرون المادة أزلية وأبدية^(٢) ، ويعتقدون بأن الإنسان وجد بطريق الصدفة ، وهذه الصدفة التي لا تعي ولا تدرك هي التي أوجدت الإنسان ، كما أن هؤلاء الماديين لا يؤمنون بما وراء الطبيعة ، ولا يؤمنون بخالق هذا العالم ، وهم يرون بأن عملية التفكير لدى الإنسان هي عملية مادية ، والحالات النفسية

(١) سورة يس ؛ الآية : ٧٩ .

(٢) وقد بينا من قبل معنى الأزلي والأبدي .

التي تختلج أعماق الإنسان ناجمة عن الأوضاع والتطورات التي تطرأ على الجسم .

نفي وجود الروح الخالدة :

والخلاصة : فإن الماديين يعتقدون بأن الإنسان ليست له روح مستقلة وخالدة ، وأن حياته هي كحياة سائر الكائنات الحية الأخرى من نبات وحيوان ، وبالتالي فإن الإنسان يموت كما تموت الأشجار وتجف ، وكما تموت القطط والكلاب ، وأن جثة الإنسان الميت وجسمه كجثث سائر الحيوانات تهتريء وتتفتت تحت الأرض ، حيث تعود العناصر والمواد المعدنية التي يتكون منها جسم الإنسان ، تعود إلى دورة الطبيعة ، وبذلك ينتهي الإنسان بكل أبعاده الوجودية ولا يبقى منه شيء باسم الروح في عالم ما وراء الطبيعة .

«المدرسة المادية - الماديون لا يؤمنون بوجود روح منفصلة عن الجسد وهم يقولون : إن عملية التفكير هي عمل جسماني ، كما أن الحالات النفسية جميعها هي حصيلة الحياة الجسمانية ، وهي بالتالي (الحالات النفسية) ترتبط بالمادة ، على أن الماديين يتبعون أساليب مختلفة على الصعيد الفكري ، فهناك أتباع مبدأ الأصالة الحسية ، ومعظم أفراد هذه المجموعة هم من الفيزيولوجيين أو علماء الخلق . وهؤلاء يثبتون وجهة نظرهم بالقول : إن كل أنواع المعرفة تتم وتتحقق عن طريق الحواس . وفي هذا المجال يقول (بروسه) (BROVSSATS) طالما أنني لم أشعر بردة فعل الروح بواسطة الأدوات الجراحية ولم أشاهدها بعيني فإني لا أصدق وجود هذه الروح»^(١) .

(١) أصول روانكارى : صفحة ٢٢ .

كلام (بروسه) حول الروح :

وهنا يجب أن نسأل السيد (بروسه) : هل أنك لا تصدق فقط وجود الروح طالما لم تشعر بوجودها بواسطة أدوات الجراحة ، أم أن رأيك هذا ينطبق أيضاً على سائر الجوانب الكامنة في وجود الإنسان ؟ .

فمثلاً فيما يتعلق بقوة الذاكرة والتعلم والتذكر عند الإنسان : هل تقول أيضاً إنني لا أصدق وجود قوة الحافظة والتعلم والذاكرة ، طالما أنني لم ألمس وجودها حسياً بواسطة أدوات جراحة الدماغ ، أم أنك لا تقول مثل هذا الكلام عن قوة الحافظة ؟ .

فإذا كنت تقول مثل هذا الكلام عن الحافظة عند الإنسان ، إذن يجب أن تنكر وجود قوة الحافظة كما تنكر وجود الروح ، لأن قوة الحافظة غير ملموسة حسياً بواسطة أدوات الجراحة .

وإذا كنت تقول هذا الكلام حول الروح فقط فيجب أن نسألك : على أي أساس جعلت أدوات الجراحة هي المعيار لتصديق وجود الروح ؟ .

الإعتقاد بوجود الله كمجرد نظرية :

وهناك من لا يؤمنون بالمدرسة المادية ويعتقدون بأن العالم مخلوق من قبل خالق حكيم قدير ، ولكن اعتقادهم بوجود الله لا يتعدى حدود النظرية فقط ، وهؤلاء رغم أنهم يعتبرون أنفسهم مخلوقين من قبل الخالق ، ولكنهم لا يشعرون بأية مسؤولية تجاهه ، ولا يكثرثون ولا يهتمون بما يقوله أنبياء الله ، ولا يعيرون أهمية للأديان السماوية التي هي عبارة عن مجموعة من البرامج (والتعاليم) الإلهية لتأمين سعادة البشر .

وهذه المجموعة أيضاً لا ينفع معها البحث حول المعاد ، بل يجب أن يبحث معها موضوع الوحي الإلهي والنبوة ، حيث يجب أن نلفت انتباه الأفراد الذين ينتمون إلى هذه المجموعة إلى ضرورة طاعة الله ، وأنه (سبحانه وتعالى)

يؤاخذ عباده ويحاسبهم .

مثل هؤلاء الأفراد كثيرون في الماضي وفي الحاضر ، فهؤلاء حكّموا عقولهم وتدبروا في نظام الخليقة الحكيم بكل دقائقه وتفصيله وآمنوا بالخالق القادر العليم ، وانضموا إلى جوقه الإلهيين ، ولكنهم نتيجة لعدم اكتراثهم برسالات الأنبياء وتجاهلهم التعاليم الإلهية . لم يصدقوا ويؤمنوا بالمعاد على استناد أن المعاد أمر مدهش وغير عادي ، واعتبروا كلام الأنبياء حول المعاد بأنه ضرب من الجنون ، وكان سكان مكّة خلال المدة التي بعث بها فيها رسول الأكرم ﷺ للنبوّة ، كانوا من هذا القبيل من الناس ، فهم كانوا يؤمنون بالله الواحد ويعتبرونه خالق العالم وفقاً لما يشير إليه القرآن الكريم بصراحة حيث يقول :

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾^(١) .

وقد أنشد الشاعر أبياتاً بالفارسية يقول فيها ما معناه : «إذا سألت مشركي مكّه من خلق هذه الأرض والسماء ، سيقولون الله ذو الجلال والإكرام ، فهذا الأمر لا يحتاج إلى سؤال»^(٢) .

على أن القرآن الكريم يشير إلى ما قاله عبدة الأوثان الإلهيون في مكّة حول كلام النبي ﷺ عن المعاد :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتُرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾^(٣) .

إن الذين يؤمنون بالله ويعتبرون هذا العالم بأنه مخلوق من قبل خالق قدير ، ويعتقدون بالوحي الإلهي ورسالات الأنبياء ، كما يؤمنون ببقاء الروح

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٣٨ .

(٢) الصفحة : ٧٨ من كتاب المعاد ج ٢ ، الأصل الفارسي .

(٣) سورة سبأ ؛ الآيتان : ٧ و ٨ .

بعد موت الجسد ، يؤمنون بأن البشر مسؤول ومؤخذ أمام الله .

هؤلاء جديرون بأن نبحث معهم ونناقشهم حول موضوع المعاد لأنهم يفكرون بالمعاد ويتأملون فيه بعمق ، فهم يدرسون ويتحققون حول الأدلة العقلية والمادية التي تثبت موضوع المعاد ، ومن جهة أخرى فإنهم عندما يذكرون يوم الجزاء (يوم القيامة) يبذلون الجهد لإصلاح أنفسهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وبذلك يهيئون أنفسهم ليوم الحساب ، وكلهم أمل برحمة الله وعفوه وغفرانه .

والآن ، ولكي يتضح هذا الموضوع الذي نبخته الآن بجميع جوانبه ، فإننا نناقش باختصار آراء ونظريات كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث ، تلك النظريات التي كانت مطروحة منذ قرون ، ولا تزال مطروحة في وقتنا الحاضر .

الماديون :

إن الماديين الذين ينفون وجود المبدأ والمعاد كانوا ولا يزالون يقفون في مواجهة الإلهيين ، على أن النظرية التي يؤمن بها أتباع المدرسة المادية لها جذور في القدم . والقرآن الكريم يشير إلى ما يقوله هؤلاء :

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾^(١) .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : « فأما كفر الجحود فهو الجحود بالرُّبوبيَّة وهو قول من يقول : لا ربَّ ولا جنَّة ولا نارَ وهو قولُ صنفين من الزنادقة يُقالُ لهم الدهريَّة وهم الذين يقولون : ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ وهو دينٌ وضعوه لأنفسهم بالإستحسانِ على غيرِ تثبُّتٍ منهم ولا تحقيقٍ لشيءٍ ممَّا يقولون قال الله عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾^(٢) .

(١) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٤ .

(٢) أصول الكافي : مجلد ٢ ، صفحة : ٣٨٩ .

ما يقوله الماديون :

ينقل الحكيم الكبير صدر المتألّهين الشيرازي ، ينقل كلام أصحاب المدرسة المادية على النحو التالي :

(إن الإنسان ليس إلاّ هذا الهيكل المحسوس حامل الكيفيّة المزاجية وما يتبعها من القوى والأعراض وإن جميعها يفنى بالموت وينعدم بزوال الحياة ولا يبقى إلاّ المواد والعناصر^(١) المتفرقة، فالإنسان كسائر الحيوان والنبات إذا مات فات وسعاداته وشقاوته منحصرة فيها^(٢) بحسب اللذات والآلام الحسيّة الدنيويّة)^(٣) .

كانت المدرسة المادية - في الماضي - مطروحة فقط كمنظريّة في مقابل المدرسة الإلهية ، حيث كان الماديون يناقشون هذه النظريّة ويبحثونها من خلال الكتب والمقالات ، أمّا في القرن الأخير حيث أخذ العالم من ناحية يميل نحو الملذات وإشباع الشهوات ، والانغماس في المعاصي والذنوب ، ومن ناحية أخرى برز الحديث عن النظام الإشتراكي والمنهاج الشيوعي ، فإنّ منقّذي هذه النظم والقائمين عليها ، لاحظوا بأنّ الأديان الإلهية والمعتقدات الدنيوية في العالم بأسره 'تقف حجر عثرة أمام تحقيق الأهداف الشهوانية والإشتراكية ، ولهذا السبب تبادر إلى أذهانهم أن يقوموا بمحاربة الدين بالقلم واللسان ، وجعل الناس يتخلّون عن إيمانهم بالمبدأ والمعاد ، بل وعن معتقداتهم الدنيوية ، أو على الأقل زعزعة إيمانهم ومعتقداتهم الدنيوية وإضعافها ، فقام الشيوعيون وغيرهم بتأليف الكتب بمختلف اللغات ، وتمكنوا بكلامهم الزائف المخادع من تضليل وخداع عدد كبير من الشباب والشابات ، وعلى سبيل المثال نشير فيما يلي إلى بعض ما قاله الدكتور تقي أراني^(٤) حول الدين والمعاد :

(١) في النصّ الفارسيّ المذكور «المواد العنصري» .

(٢) في النصّ الفارسيّ المذكور «فيما» صفحة ٨٠ كتاب المعاد .

(٣) مبدأ ومعاد : صفحة ٢٧٢ .

(٤) هو أحد الشيوعيين الذي لا يؤمن بالدين .

هناك ثلاثة أمور مهمة تقضي على الدين :

« ١ - اختلاف الدين مع العلم : إذا كان الدين صحيحاً ، فيجب أن يكون ثابتاً في حين أن العلم متغير والإنسان المتحضر لا يمكنه أن ينكر ما يدركه . وإذا كان الدين كالعالم قابلاً للتغيير فإن كل جانب من جوانبه (جوانب الدين) يفقد صحته المطلقة ، والتالي فإنه يقود نفسه إلى الفناء» .

حول كلام الدكتور أراني :

يا دكتور «أراني» ، إن علمنا الذي يعني كشف الواقع ومعرفة الحقيقة لا يطرأ عليه تغيير أبداً ، وإن الفرضيات (النظريات) هي التي تتغير ، والفرضية ليست بعلم ، إذ قد تحظى نظرية أو فرضية غير واقعية بقبول المحافل والأوساط العلمية ، وتدرّس هذه الفرضية وتُعلّم لسنين طويلة ، وبعد ذلك يثبت بطلانها . إذن ، فإن المسائل والقضايا الإسلامية المسلّم بها هي كالعالم ثابتة وغير قابلة للتغير ، وبالتالي فإن هذين الأمرين (الثبات وعدم التغير) لا يفقدان صحتهما المطلقة لكي يُساقا إلى الزوال والفناء .

« ٢ - الدين يوجد خلافات وصراعات بين أتباع المذاهب والأديان المختلفة . إذ أنّ أتباع كل دين يعتبرون أنفسهم على حق وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى على باطل ، في حين أن كافة الأديان لها أصل واحد وهناك مشتركات عامة ومتماثلة بين جميع الأديان» .

رغم وجود الاختلافات الإعتقادية بين أتباع الديانات ، إلا أنهم عاشوا مع بعضهم البعض على مدى قرون وعصور طويلة ، ولو لم يبادر المستعمرون ومن أجل تحقيق أهدافهم السياسية إلى استغلال الدين وإثارة الناس ضد بعضهم البعض ، لما حدثت خلافات ونزاعات بين أتباع الأديان .

التعارض بين الشيوعية والرأسمالية :

ولكن الخطر الداهم هو الخلاف العميق الموجود بين المبدأ الشيوعي والمبدأ الرأسمالي ، إذ لو كانت هناك إحصاءات دقيقة لتبين كم من الناس في هذا العالم قد ذهبوا خلال القرن الجاري ضحية الخلافات بين الشيوعية والرأسمالية ، وعليه كان من الأجدر بالدكتور «أراني» أن يتحدث حول هذه الإختلافات ويبحث عن حلول لها .

« ٣ - إن الدين هو دائماً أداة بيد الطبقة القوية والسلطة الحاكمة في المجتمع ، حيثُ السَّبحة والصليب يسيران جنباً إلى جنب مع المدفع والبنديقية من أجل السيطرة على الطبقات الضعيفة في المجتمع وإخضاعها ، وهذا الأمر يؤدي إلى زوال الأديان وفشلها»^(١) .

الثورة الإسلامية في إيران :

أين هو الدكتور أراني الآن ليرى أحداث الثورة الإسلامية في إيران وكيف أن الجماهير خرجت من المساجد والحسينيات وهي تمسك بالمسابع وتطلق نداءات التكبير ، حيث وقفت هذه الجماهير بقيادة علماء الدين العظام وقفت ضد السلطة الحاكمة الظالمة ، واقتحمت بقضاتها القوية المتماسكة قوات (الشاه) المدججة بالسلاح ، وتمكنت من القضاء على المستكبرين وطرد الشاه ، وإسقاط النظام الشاهنشاهي الذي استمر ألفان وخمسمائة عام ، وذلك خدمة لمصالح المستضعفين والطبقة الفقيرة المسحوقة في المجتمع .

وتمكنت الجماهير أيضاً من طرد المستشارين الأمريكيين من إيران ، وأعدمت بالرصاص قادة النظام الملكي وعملائه المعتدين الذين تصدّوا للجماهير بالحديد والنار .

(١) كتاب البسيكولوجي : صفحة ٢٧٢ .

وهذا الكفاح ضد المستكبرين ونصرة المستضعفين الذي هو برنامج السنة الإلهية ، كان ولا يزال هو السبب في بقاء الإسلام .
إن الإعتقاد ببقاء الروح والحياة الخالدة ، يترك أثراً مفيدياً ونافعين في فكر الإنسان :

الأثر الأول : أن مثل هذا الإعتقاد يعطي الحياة معناها ومفهومها الحقيقي ، ويخرجها من إطار التفاهة والعبث .
ويقول البروفسور «يونك» - وهو أحد كبار أساتذة علم النفس - ، يقول في هذا المجال :

«إن إنسان القرن العشرين علماني بعيد عن الدين ، وهو تائه يبحث عن روحه ، وهو لن يهدأ ولا يقر له قرار حتى يعثر على دين يعتنقه .

إن عدم اعتناق الدين هو الذي يجعل الإنسان يشعر بأن الحياة تافهة لا مفهوم ولا معنى لها»^(١) .

الأثر الثاني : إن الإعتقاد بالحياة الخالدة للروح (الإعتقاد بالبقاء الأبدي للروح) يجعل الموت سهلاً ويسيراً على الإنسان ويُطمئن الإنسان إلى أن السمو الروحي والتكامل المعنوي لا يزول بالموت ، بل إن الروح تنتقل من عالم إلى عالم آخر ، ومن ثم تعود إلى خالقها .

يقول العالم المشهور الدكتور «كارل» : من وجهة نظر الدين فإن الموت لا يعتبر نهاية للحياة ، بل هو بداية لها ، فبدل أن تتلاشى الروح مع الجسد فإنها (الروح) تواصل تكاملها وتعاليتها حتى تتصل بالله في نهاية الأمر دون أن تفقد شخصيتها .

كلام للدكتور كارل :

«على مدى ما يقارب الألفي عام مات مئات الملايين من الرجال

(١) صحيفة كيهان : رقم ٨١٩٦ .

والنساء بهدوء وطمأنينة وهم يعتقدون بأنهم سيلتقون بعد الموت بأعزائهم وبالصالحين ، وسيكونون في جوار الملائكة وفي جوار الله .

إذن فالجواب الذي يقدمه الدين للبشرية التي تقف مضطربة وعاجزة أمام اللغز المحير لظاهرة الموت، هذا الجواب ، وهو أكثر إقناعاً بكثير من الجواب الذي يقدمه العلم في هذا المجال ، فالدين يعطي الإنسان ذلك الجواب الذي يريده ويهواه»^(١) .

تحليل للدكتور اراني :

وحول الاعتقاد ببقاء الروح بعد موت الجسد ، يقول السيد الدكتور

أراني :

«خلال الفترات الأولى للحضارة البشرية عندما كان الإنسان لا يزال لا يعرف الشيء الكثير عن وجوده الجسماني ، فإنه فكر في كشف هذه العلاقة (بين الروح والجسد)^(٢) عن طريق الأحلام والخيال. واستناداً إلى المعلومات البسيطة التي كانت لديه ، فإنه كان مضطراً لمعرفة الآثار والمظاهر الروحية الناجمة عن مجموعة العمليات والنشاطات التي يقوم بها كائن مستقل ذو طابع خاص يقيم في داخل الإنسان نفسه إذن ، نظراً لأن الروح تبقى بعد وفاة الإنسان ، ولهذا فإن هذه الروح يجب أن تكون دائمية الوجود تعيش إلى الأبد .

ولكن هذا الموضوع لم يكن بالنسبة للإنسان بكل بساطته موضوعاً

(١) راه ورسم زندگي (طريق الحياة) : صفحة ١٤٢ .

(٢) المترجم .

يهدىء من روعه ، بل إنه كان بمثابة مأساة كبرى لم يستطع هذا الإنسان أن يدرك مغزاها ، ويفهم معناها من خلال قناعاته وفرضياته القابلة للفهم من قبله ، وبالتالي فإنه اعتبر هذه المأساة بأنها قدره المحتوم»^(١) .

إن الدكتور «أراني» الذي هو من الماديين المنكرين لوجود الله ولرسالة الأنبياء ولعالم ما وراء الطبيعة ، ولكي يستهين علمياً بالذين يعتقدون ويؤمنون ببقاء الروح ، وبالتالي يقلل من أهمية هذا الإعتقاد ، فإنه يقول بأن الإعتقاد ببقاء الروح يستند إلى أحلامٍ وتخيلات راودت أذهان البشر في العصور القديمة ، هذا البشر الذي لم يكن يعرف شيئاً عن وجوده وكيانه الجسماني ، وذلك لكي يوحى (الدكتور أراني) للقارئ الساذج غير المطلع على حقائق الأمور بأن فكرة بقاء الروح هي من الخرافات القديمة التي ترجع إلى عهود الأمية والجهل والتخلف التي مرّ بها البشر .

كلام يجافي الحقيقة :

رغم أن المثقفين من الناس يعرفون جيداً بأنه خلال القرون الماضية كان هناك فلاسفة كبار ومشهورين يؤمنون بالنفس المجردة وبقائها ، كما أن هناك في عصرنا الحاضر عدد كبير من العلماء الكبار المشهورين على مستوى العالم - وبعضهم نال جائزة نوبل - ، يعتقدون الدين ويؤمنون به وأيضاً يؤمنون ببقاء الروح .

وإذا كان الدكتور أراني قد تجاهل الحقيقة وتحدث خلافاً للواقع ، فإن ذلك لا يقلل من شأن وأهمية التعاليم والأحكام الإلهية ، ولا يسيء إلى القيمة العلمية لنظرية بقاء الروح . ويقول الدكتور أراني في جانب آخر من كلامه : «إن الإعتقاد ببقاء الروح لم يكن بالأمر الذي من شأنه أن يبعث الأمل في نفس

(١) كتاب بسيكولوجي : صفحة ٢٧٠ .

الإنسان البدائي في تلك العصور، ويهْدِيء من روعه بل إنه كان مصيبة كبرى» . .

ثم يوضح ما يعنيه بالمصيبة الكبرى ويقول : «إن الإنسان في تلك العصور لم يتمكن من معرفة كُنه وحقيقة هذه المصيبة أو المأساة الكبرى من خلال فرضياته القابلة للفهم ، وبالتالي فإنه (الإنسان في العصور القديمة) اعتبر هذه المصيبة الكبرى بأنها قدرُهُ المحتوم» .

ونحن لا نعرف كيف عرف الدكتور أراني بالمصيبة الكبرى التي واجهها أبناء البشر البسطاء في تلك العصور الماضية ، بحيث أنه أخذ يتحدث عنها بكل هذا الحزم .

إن أبناء البشر البسطاء في الأمس وغير البسطاء في هذا العصر اعتبروا بعض الأمور بأنها قدرُهُم المحتوم ، وهم واثقون من أنهم غير قادرين على معرفة كُنه وحقيقة هذه الأمور من خلال فرضياتهم القابلة للفهم ، ولكنهم لا يشعرون بالتعاسة والشقاء نتيجة عدم معرفتهم بحقيقة هذه الأمور .

فمثلاً: إن الإنسان لا يعرف متى يموت ، ولكننا لم نسمع أن أحداً من الناس اعتبر نفسه تعيساً لأنه لم يتمكن (وفقاً للفرضيات والمعطيات التي يستطيع أن يفهمها) من معرفة الوقت الذي سيموت فيه .

والإنسان لا يعرف ماذا سيكون مصيره ومستقبله ، وهو لا يتمكن - وفقاً للفرضيات والمعطيات التي يستطيع أن يفهمها - من معرفة مصيره ومستقبله ، وهو - لهذا السبب - لا يشعر بالتعاسة ، بل إنه عندما يفكر قليلاً يفهم بأن سعادته تكمن في عدم معرفته بمستقبله ، لأن مستقبله إذا كان جيداً فيجب أن لا يعرف ذلك حتى لا يتهاون ويتقاعس عن العمل والسعي وبذل الجهد ، ليصل - بالتالي - إلى مستقبله المشرق . وإذا كان مستقبله سيئاً ومظلماً ، أيضاً ، يجب أن لا يعرف بذلك حتى لا يصاب بحزن دائم ، ويقضي ما تبقى من عمره بتألم وحزن وأسف .

وهناك في كتب الماديين كلام آخر حول الدين والمعاد ، حيث أن التطرق إلى ذلك يحتاج إلى شرح مسهب وبحث طويل ، ونحن نكتفي بما قلناه في هذا المجال .

الإلهيون الذين ينفون وجود المعاد :

الإلهيون الذين لا يؤمنون بالمعاد : المجموعة الثانية هي التي تؤمن بوجود خالق لهذا العالم ، وتعتبر العالم مخلوقاً من قبل الخالق العليم القدير ، ولكنها لا تؤمن بالمعاد وعالم الآخرة .

وأفراد هذه المجموعة كثيرون في الماضي وفي الحاضر ، ومنهم مشركو مكة الذين عاصروا الرسول الأكرم ﷺ . وقد ورد في القرآن الكريم جانب من الحوار الذي كان يجري بين مشركي مكة والنبي ﷺ . وفيما يلي نشير إلى بعض ما ورد في القرآن الكريم في هذا المجال :

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (١) .

كان العاص بن وائل يقول : عندما أموت هل أُخرج مرة أُخرى من القبر حياً ؟ ويجب الله (سبحانه وتعالى) على هذا التساؤل ويقول :

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (٢) .

كما يقول (جلّ وعلا) :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

(عن عليّ بن الحسين السّجاد عليه السلام قال : « والعجب لمن أنكر النّشأة

الآخرة وهو يرى النّشأة الأولى ») (٤) .

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٦٦ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٦٧ .

(٣) سورة الواقعة ؛ الآية : ٦٢ .

(٤) علم اليقين : صفحة ٨٩٩ .

إنه لأمر عجيب أن ينكر الإنسان وجود عالم الآخرة ، رغم أنه يرى الدنيا (النشأة الأولى) المخلوقة من قبل الله .

﴿وقالوا أيذا ضللنا في الأرض أيّنا لفي خلقٍ جديدٍ﴾^(١) .

ويرد الله على هؤلاء المتسائلين فيقول عزّ من قائل :

﴿قد علمنا ما تنقصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظٌ﴾^(٢) .

هنا ردّ منه (تعالى) على المشركين الذين يستبعدون البعث والرجوع مستندين في ذلك إلى أنهم ستلاشي أبدانهم بالموت فتصير تراباً متشابه الأجزاء ، فيأتيهم الجواب : إننا نعلمُ بما تأكلهُ الأرضُ من أبدانهم وتنقصه منها ، فلا يفوت علمنا جزءً من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه .

وقوله تعالى : «وعندنا كتابٌ حفيظٌ» أي حافظ لكل شيء ولاآثاره وأحواله أو ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة^(٣) .

(عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال : «فتنبتُ أجسادُ الخلائقِ كما ينبتُ البقلُ فتداني أجزاؤهم التي صارتُ تراباً بعضها إلى بعضٍ بقدرَةِ العزيزِ الحميدِ ، حتّى أنّه لو دُفِنَ في قبرٍ واحدٍ ألفٌ ميّةٍ وصارتُ لحومهم وأجسادهم وعظامهم النخرةُ كلّها تراباً مُختلطةً بعضها في بعضٍ لم يختلطِ ترابٌ ميّةٍ بميّةٍ آخرٍ»^(٤) .

القرآن يرد على منكري المعاد :

اذن ، ففي عصر الرسول الأكرم صلواته وآله وسلّم كان هناك من أنكروا وجود المعاد ، واعتبروا عودة الموتى إلى الحياة بأنه أمر غير ممكن . وقد ردّ القرآن الكريم

(١) سورة السجدة ؛ الآية : ١٠ .

(٢) سورة ق ؛ الآية : ٤ .

(٣) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي .

(٤) لآلىء الأخبار : صفحة ٤٥٦ .

على هؤلاء من خلال الآية الكريمة التالية :

﴿قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

وأيضاً في هذه الآية الكريمة :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

هذا الذي ذكرناه باختصار وورد في القرآن الكريم على شكل سؤال وجواب هو خلاصة لما كان يقوله عبدة الأوثان في مكة (في عهد الرسول «ص») ، وهم ينتمون إلى الإلهيين المنكرين للمعاد . وهؤلاء كانوا يطرحون أفكارهم الإنتقادية التي تنكر وتنفي يوم الجزاء وعالم الآخرة ، أمام الرسول (ص) الذي كان يرد عليهم وفقاً لما كان ينزل عليه من الوحي الإلهي .

الإلهيون الذين يؤمنون بالمعاد :

الإلهيون المؤمنون بالمعاد : المجموعة الثالثة هي التي تؤمن بالله وبالمعاد ، وهؤلاء ليسوا هم وحدهم المسلمون الحقيقيون وأتباع القرآن الكريم ، بل إن جميع الذين آمنوا برسالات الأنبياء واعتنقوا الأديان الإلهية على مرّ القرون والعصور هم من المؤمنين بيوم الجزاء - طبعاً هناك اختلاف في درجة إيمان هؤلاء بيوم الجزاء سوف نشير إليه في حينه - ، ولكي نتجنب الإطالة في الكلام فإننا سوف نشير في هذه المحاضرة إلى جانب فقط مما قاله علماء الإسلام من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والمتكلمين حول المعاد ، كما سنبحث

(١) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٦ .

(٢) سورة يس ؛ الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

باختصار حول بعض الشبهات التي تُثار حول المعاد والردود المطروحة على هذه الشبهات .

إنّ قضية المعاد هي من القضايا والأمور الأساسية والأصلية في الدين الإسلامي ، وهناك آيات قرآنية وأحاديث كثيرة تشير إلى موضوع المعاد . وبعد وفاة الرسول الأكرم (ص) وانتشار الإسلام في البلدان المختلفة فإن عدد المتطوعين لتعلم العلوم الدينية وتحصيل العلم في مجال العقائد والأخلاق والتفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام ، أخذ يزداد يوماً بعد يوم ، وبعضهم تعلموا على أيدي الأئمة المعصومين عليهم السلام ووصلوا إلى أعلى مدارج العلم ، وواصلوا طريق أهل البيت حتى آخر لحظات أعمارهم ، والبعض الآخر من طلبة العلم ، هؤلاء - بعد أن استفادوا من مدرسة أهل البيت في تحصيل علومهم - غيروا مسيرهم وانتهجوا طرقاً أخرى .

نشوء علم الكلام :

خلال القرن الثاني للهجرة طرح هذا التساؤل وهو : هل أن القرآن الكريم الذي هو كتاب إلهي ، هل هو قديم أم أنه حادث ؟ .

وقد جرت نقاشات وبحوث كثيرة في هذا المجال . وبعد ذلك جرت بحوث أخرى حول التوحيد وحول صفات الله ، بعدها طرحت قضايا تتعلق بالنبوة والمعاد وبسائر المواضيع الإسلامية الأخرى ، وقد حظي كل واحد من هذه المواضيع الإسلامية بالإهتمام والعناية استناداً إلى الأدلة العقلية وعلى ضوء المعايير الدينية ، وقد شكلت مجموعة هذه البحوث والدراسات ما سمي بعلم الكلام ، والعالم الذي يبرز في مجال الكلام يسمّى بالمتكلم .

وهذا التناسب في تسمية «الكلام» و«المتكلم» ناشىء من أن هذا العلم (علم الكلام) بدأ من البحث حول قِدم أو حدوث الكلام الإلهي (القرآن الكريم) .

ومع اتساع الدولة الإسلامية وبسط سلطة العباسيين وتنامي قوتهم فإن الحكومة العباسية أصبحت تمتلك الكثير من الوسائل والإمكانات .

ترجمة الكتب الفلسفية :

وأمرت الحكومة العباسية في القرن الهجري الثاني ، بترجمة بعض الكتب العلمية والفلسفية اليونانية ، وأنشئت مدارس خاصة لتدريس مختلف فروع العلم ، حيث التحق الطلبة بهذه المدارس لتلقي العلوم العقلية والفلسفية ، وشيئاً فشيئاً أخذت القضايا الفلسفية تأخذ طريقها بين العلماء المسلمين .

وخلال القرنين الثالث والرابع للهجرة كانت مختلف الفروع العلمية تدرس في تلك المدارس ، إلى جانب علوم الحديث والتفسير وعلم الكلام والفلسفة ، حيث كان العلماء يبحثون ويناقشون المفاهيم والمواضيع الإسلامية من الجوانب المختلفة ، وأيضاً من وجهة نظر العلوم المختلفة .

والمعاد الذي كانت له أبعاد مختلفة من الناحيتين الدينية والعلمية ، قد وفر أرضية ملائمة جداً للخوض في بحوث ترتبط بمجالات عديدة يقوم علماء التفسير من خلالها بدراسة موضوع المعاد من وجهة نظر الكتاب والسنة ، كما يقوم المتكلمون والفلاسفة بمناقشته وبحثه من الزاوية العقلية والفلسفية ، وبالتالي يعلن كل منهم وجهة نظره وفقاً لما توصل إليه واستنبطه .

هذا الأسلوب أصبح مألوفاً ومتبعاً ابتداءً من القرنين الثاني والثالث واستمر لعدة قرون ، ونتيجة لتعدد الجوانب التي تمت دراستها والمتعلقة بموضوع المعاد من جهة ، وتغير النظريات العقلية والفلسفية فيما يتعلق ببعض القضايا من جهة ثانية ، فقد برز في بعض الحالات اختلاف في وجهات النظر بين المتكلمين والفلاسفة ، حيث أن عدم انسجام ظاهر الآيات والأحاديث في بعض الأحيان مع النظريات الكلامية والفلسفية ، أدى إلى ظهور خلافات بين الفقهاء والمحدثين من جهة والمتكلمين والفلاسفة من جهة أخرى ، وسنبين في

هذه المحاضرة والمحاضرات القادمة بعض هذه الخلافات .

نظريات حول المعاد :

أول هذه الخلافات الموجودة حول المعاد : هي هل أن المعاد روحاني فقط (أي أن روح الإنسان هي وحدها التي تعود يوم الجزاء) ، أم أنه جسماني فقط (أي أن جسم الإنسان وحده هو الذي يعود يوم الجزاء ليخضع للحساب) ، أم أن الروح والجسم كلاهما يعودان يوم الجزاء (يوم القيامة) ؟ .

(ذهب جمهور الفلاسفة وأتباع المشائين إلى أنه (المعاد) روحاني فقط ، لأن البدن ينعدم بصورته وأعراضه فلا يُعاد ، والنفس جوهرٌ باقٍ لا سبيل إليه الفناء ، فيعود إلى عالم المجردات لقطع التعلقات بالموت الطبيعي)^(١) .

ابن سينا والمعاد الجسماني :

(ويقول الحكيم السبزواري : وأما الشيخ رئيس المشائين (ابن سينا) فإنه لم ينكر المعاد الجسماني - حاشاه عن ذلك - إلا أنه لم يحقّقه بالبرهان كما يظهر لمن نظر في إلهيات الشفاء)^(٢) .

وجهة نظر المتكلمين وأهل الحديث حول المعاد :

(ذهب جمهور المتكلمين وعامة الفقهاء وأهل الحديث إلى أنه (المعاد) جسماني فقط ، بناءً على أن الروح عندهم جسم سار في البدن سريان النار في الفحم والماء في الورد والزيت في الزيتونة)^(٣) .

المعاد الجسماني والروحاني :

(ذهب كثير من أكابر الحكماء ، ومشايخ العرفاء ، وجماعة من المتكلمين ، كحجة الإسلام الغزالي والكعبي والحليمي والرّاغب الأصفهاني

(١ و ٣) المبدأ والمعاد ، صفحة ٢٧٣ .

(٢) شرح منظومة السبزواري : صفحة ٣٣٥ .

والقاضي أبوزيد ، وكثير من علماء الإمامية وأشياخنا الإثني عشرية ، كالشيخين المفيد وأبي جعفر الطوسي^(١) والسيد المرتضى والعلامة الطوسي^(٢) وغيرهم (رضوان الله عليهم أجمعين) ، إلى القول بالمعادين الجسماني والروحاني جميعاً ، ذهاباً إلى أن النفس المجردة تعود إلى البدن يوم القيامة^(٣) .

لقد حظيت مسألة المعاد على مدى قرون عديدة باهتمام العلماء من الفلاسفة والمتكلمين ، حيث تباحثوا وتناقشوا حول قضية المعاد بمختلف جوانبها ، حيث لا ضرورة للتطرق هنا إلى كل تلك البحوث والمناقشات ، ولكننا نشير إلى جانب منها توخياً لمزيد من الإيضاح :

١ - ان الذين ينكرون المعاد الجسماني يدعون بأن جسم الإنسان يتحلل ويندثر بعد الموت ، وأن إعادة الشيء المندثر والفاني بصورته العينية أمر غير ممكن من الناحية العلمية ، كما أن البعض يعتبر عدم إمكانية إعادة الشيء الزائل والفاني ، هو أمر بديهي لا يمكن إنكاره .

إعادة المعدوم مما امتنعنا وبعضهم فيه الضرورة ادعى ويستنتج هؤلاء من كلامهم أن المعاد الجسماني أمر مستحيل ، إذ أنه يتطلب إعادة المعدوم والجسم الفاني المندثر ، وهذا أمر غير ممكن ومستحيل .

إذن فالمعاد يجب أن يكون روحانياً فقط ، لأن الروح الأدمية هي حقيقة ثابتة دائمة غير قابلة للفناء والزوال ، وهي لا تعرف العدم ، وهي تظل باقية إلى ما بعد الموت . وهذه الروح خالدة حيث تحضر وبأمر من الباري (تعالى) محكمة العدل الإلهية ، وتخضع للحساب والإستجواب .

(١) الشيخ الطوسي .

(٢) خواجه نصير الدين الطوسي .

(٣) المصدر السابق .

تفنيد أدلة المنكرين للمعاد :

وهناك من ردّوا على هذا الكلام بالقول : إنَّ جسم الإنسان لا يفنى ولا يزول نتيجة لموته وتفسّخه تحت الأرض ، بل إنَّ النظام الذي يسود الجسم ويتحكم به ، هذا النظام يختلّ (نتيجة الموت) وتنفصل جزيئات الجسم المترابطة والتماسكة عن بعضها البعض .

(ثمَّ إذا حصلَ مرةً أُخرى من نوع التآليف المعتر بين الأجزاء الباقية بعينها عاد الشخص الأول وكان هو الأوّل بعينه)^(١) .

كلام للإمام الصادق (ع) :

يقول الإمام الصادق عليه السلام في معرض ردّه على ذلك الزنديق الذي سأله حول أجزاء جسد الميت المتلاشية داخل القبر :

(كُلُّ ذَلِكَ فِي التُّرَابِ مَحْفُوظٌ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَيَعْلَمُ عَدَدَ الأَشْيَاءِ وَوَزَنَهَا)^(٣) .

إذن ، فإن طرح مسألة إعادة المعدوم (الجسم المتلاشي)^(٣) فيما يخص موضوع المعاد الجسماني هو أمر لا معنى ولا مفهوم له ، لأن جسد المتوفى لا يفنى في القبر ، بل يتغير من حيث الشكل ويحصل اختلال في ترابط جزيئات وخلايا الجسم مع بعضها البعض ، وذلك نتيجة لتلاشي هذا الجسم (في القبر) ، وعندما يحين يوم القيامة فإن تلك الجزيئات المتناثرة المشتتة تترايط مرةً أُخرى وتلتحم مع بعضها البعض بأمر من الله ، حيث يعود المتوفى إلى الحياة بشكله وهيئته التي كان عليها في الدنيا .

(١) المبدأ والمعاد : صفحة ٢٧٤ .

(٢) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ١٩٩ .

(٣) المترجم .

شبهة الأكل والمأكول :

٢ - إحدى الشبهات التي تثار حول موضوع المعاد الجسماني وجرت دراستها ومناقشتها في الكتب العلمية هي الشبهة التي يسمونها «الأكل والمأكول» ، فإذا افترس حيوان إنساناً وأكله ، وبذلك أصبح جزء من جسم هذا الإنسان يشكل جزءاً من جسم ذلك الحيوان المفترس ، أو قتل كافر من أكلة لحوم البشر إنساناً مؤمناً وأكل لحمه ، فكيف يُحشر هؤلاء يوم القيامة ؟ .

المتكلمون يردون على هذه الشبهة :

(ذكر بعض المتكلمين أن تشخص الشخص إنما يقوم بأجزائه الأصلية وتلك الأجزاء باقية في مدة حياة الشخص وبعد موته وتفرق أجزائه فلا يُعدم التشخص ، وعلى هذا فلو انعدم بعض العوارض غير المشخصة ، وأعيد غيرها مكانها لا يقدح في كون التشخص باقياً بعينه)^(١) .

تأييد ما قاله المتكلمون :

لقد أشرنا في الفصل السابق إلى حديث للإمام الصادق (ع) حول الطينة ، حيث قال الإمام عليه السلام عندما سُئِلَ عن الميت يُبلى جسده : «نعم حتى لا يبقى له لحم ولا عظم إلا طينته التي خُلِقَ منها فإنها لا تبلى بل تبقى في القبر مُستديرة حتى يُخلَقَ منها كما خُلِقَ أول مرة» . وقد نقل العلامة المجلسي هذا الحديث عن كتاب أصول الكافي ، وذيله بالتوضيح التالي : (وهذا ما يؤيد ما ذكره المتكلمون من أن تشخص الإنسان إنما هو بالأجزاء الأصلية ولا مدخل لسائر الأجزاء والعوارض فيه)^(٢) .

رد من صدر الدين الشيرازي :

ورداً على شبهة «الأكل والمأكول» يقول الحكيم والمحقق الجليل

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٠٣

(٢) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٠١ .

صدرالدين الشيرازي ما يلي :

(واندفاعه على ما مهّدنا من الأصول بعد فهمها وتحقيقها بأن العبرة في تشخيص كل إنسان إنما هو بنفسه وأما بدنه فليس له تشخيص إلا بالنفس) (١) .

كلام لفيض الكاشاني :

ويقول الحكيم الجليل المرحوم فيض الكاشاني :

(إنَّ المُعاد في المُعاد والمُحشور في الآخرة هو بعينه هذا الشخص الإنساني الذي كان في الدنيا روحاً وبدناً بحيث لو يراه أحد عند المحشر يقول : هذا فلان الذي كان في الدنيا ، كما قال مولانا الصادق عليه السلام في البرزخي (٢) (لو رأيت لقلت فلان) وإن كانت صورته صورة حمار أو خنزير وذلك لأن تشخيص البدن على ما حققه أستاذنا صدر المحققين ليس إلا بالنفس فلا يمتاز ولا يتعين إلا بها ولهذا يكون بدن زيد وأعضاؤه ينسب إليه ويعرف به ويحكم بوحدته وإن تبدل أنواعاً من التبدل) (٣) .

تغير أجزاء الجسد :

إن جسم كل إنسان يتعرض باستمرار وبشكل طبيعي للتغيير ، حيث تموت الخلايا الهرمة المستهلكة لتحل محلها خلايا شابة . وهناك بعض الأفراد يواجهون إلى جانب هذا التغيير الطبيعي ، تغييرات أخرى في أجسامهم نتيجة إصابتهم بمرض أو تعرضهم لحادث ما ، حيث تؤدي هذه التغييرات إلى زيادة أو نقصان في وزن أجسامهم ، وقد يفقد الشخص أحد أعضاء جسمه في جبهة الحرب أو في حادث سيارة يتعرض له ، ولكن أيّاً من هذه الحوادث الطبيعية أو العرضية لا تغير من شخصية هذا الفرد ولا من تعيينه الفردي .

ونظراً لأن فهم هذه النقطة يوسع من نطاق المعرفة ويزيل بعضاً من

(١) المبدأ والمعاد : صفحة ٢٨٩ .

(٢) البرزخي تعني الإنسان في عالم البرزخ .

(٣) علم اليقين : صفحة ٩٠٢ .

الشبهات التي تثار حول موضوع المعاد الجسماني ، فإن من المناسب هنا أن نعطي مزيداً من التوضيح في هذا المجال :

إن كل إنسان بفطرته يدرك نفسه ويجد شخصيته من خلال العلم الحضوري ويعبر عنها بكلمة «أنا» ، فهذه الـ «أنا» التي هي منطلق لنزعة الغرور والأناية لدى كل شخص (وحبه لذاته) تشكل مرتكزاً أساسياً وأصلاً ثابتاً لتعيّنه ، ينسب إليها الشخص كل ما يملكه فيقول : يدي ، رجلي ، عيني وأذني ، بيتي وحياتي وو

الـ «أنا» هي الأصل الذي لا يتغير في الإنسان :

إنّ الطفل منذ أن يدرك النزعة الأناية (الـ «أنا») في نفسه وحتى يبلغ الكبر ويحدوب ظهره ، فإنه يبقى يشعر في قرارة نفسه وفي أعماقه بأن هذه النزعة الغرورية الأناية الكامنة في وجوده لم تتغير ، وأن أنانيته باقية كما كانت عليه من قبل ، وذلك رغم حدوث تغييرات أساسية في قواه البدنية وأعضاء جسمه وفي جميع شؤون حياته بشكل عام .

فالفرد عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة يفكر أحياناً في نفسه ويستعيد ذكريات الماضي ويقول في نفسه : لقد كنت طفلاً في يوم من الأيام وأصبحت فتىً ثم شاباً ثم كهلاً ، والآن فأني أفقد قواي وأقضي مرحلة الشيخوخة والهرم .

والخلاصة : أنه يجد أن كل شيء فيه قد تغير ، ولكن ضميره يشهد بأن الأصل الثابت في وجوده وهو الـ «أنا» أو النزعة الغرورية والأناية باقية لم تتغير .

وإذا ما تعرض الفرد خلال سنوات حياته لحوادث مختلفة ، مثلاً يصاب بمرض في كليته أو يصاب بحروق في جسمه ، أو بمرض في عظامه ، أو تتوقف قرنية عينه عن العمل نتيجة مرض معين ، أو يصاب بفقر الدم ، وإذا ما أُجريت لهذا الشخص عمليات جراحية ، وخضع للمعالجة الطبية وشُفي على

أثرها من تلك الأمراض والعاهاات ، حيث قام الأطباء بزرع كلية والده في جسمه ، كما قاموا بزرع قرنية شخص ميت في عين هذا الشخص ، واستبدلوا أحد عظامه المصابة بعظم شخص آخر ، وقاموا أيضاً بنقل الدم إليه من أحد أصدقائه ، فهل أن عملية زرع أعضاء شخص آخر في جسم هذا الشخص المصاب تُحدث تغيراً في تعين هذا الفرد وشخصيته تجعله يشعر بنزعة غرورية وأنانية أقوى من ذي قبل ؟ وهل أن الأشخاص الذين تم زرع بعض أعضائهم في جسم الشخص المريض تتغير شخصيتهم ويشعرون بضعف في نزعتهم الأنانية الذاتية الـ «أنا» ؟ .

والآن إذا قام شخص بضرب المريض الذي زُرعت له الكلية مما أدى إلى شعوره بالألم في كليته ، أو إذا أُصيب الشخص الذي سبق وأن أُجريت له عملية تجميلية وزرعت له بشرة جديدة نتيجة لإصابته بحروق ، إذا أُصيب بحروق مرة أخرى في نفس المنطقة التي زرعت فيها البشرة (الجلد) ، أو إذا قام هذا الشخص بتوجيه لكمة إلى عين المريض الذي أُجريت له عملية زرع القرنية في عينه ، فهل أن الشخص الذي زُرعت له الكلية أو الجلد أو القرنية هو الذي يتألم ، أم الشخص الذي أعطى كليته وقرنيته للشخص المصاب ؟ .

كما أن شخصاً ما قد تدهسه سيارة أو يسقط من مرتفع ويفقد نتيجة ذلك إحدى قدميه أو كليتهما معاً ، أو قد تُقطع يده في المستشفى بسبب حادث تعرض له أو مرض ألمّ به . ورغم أن هذا الشخص يفقد - في جميع هذه الحالات - عضواً من أعضائه ، ولكن أياً من هذه الحوادث التي تعرض لها لا تؤثر سلباً على تعينه ولا تنقص أو تقلل من شخصيته ونزعتِهِ الأنانية التي تتمثل بكلمة «أنا» ، ولهذا السبب فإنه طبقاً لجميع القوانين الإلهية والقوانين البشرية (التي يضعها البشر) وباعتقاد جميع الناس في هذا العالم ، فإن الشخصية الحقوقية والجزائية لمثل هذا الفرد الذي أصبح معاقاً الآن بعد أن فقد أحد أعضاء جسمه لا تختلف عما كانت عليه عندما كان هذا الفرد سليماً غير معاق ،

فهو كما كان بالأمس يمتلك أمواله امتلاكاً قانونياً ، ويحق له أن يشتري ويبيع ويهب مما يملك ويتصرف بأي تصرف يسمح به القانون ، كما يُمنح المكافآت نتيجة إخلاصه وجديته في العمل إذا كان يعمل في دائرة حكومية ، كما أنه يُعاقب ويُطبق بحقه القانون إذا كان يستحق العقاب نتيجة ارتكابه أية مخالفة ، أو أي ذنب أو تقصير .

إذن ، فكما أن فقدان عضو من أعضاء الجسم لا يؤدي إلى تغيير في تعين الفرد ، ولا يغير من شخصية الإنسان من الناحية الحقوقية والجزائية ، كذلك فإن انقضاء مرحلة الشباب والدخول في مرحلة الشيخوخة لا يغير من الوضع شيئاً ، ولا يغير الشخصية الحقوقية والجزائية للأفراد .

فالذي ارتكب جريمة قتل في شبابه وتمكن من الفرار ، إذا ما أُلقي القبض عليه وسُلم إلى السلطات القضائية ، فإن الشرع والعقل والعرف والقانون كله يُجيز ملاحقة هذا الشخص ومعاقبته على الجريمة التي ارتكبها في أيام شبابه ، كما أن الشخص إذا اقترض مبلغاً من المال من أحد الأشخاص في شبابه ولم يسدده للدائن ، فإن كل الناس في العالم يعتبرون هذا الشخص مديناً ، ورغم أن وضع هذا الشخص (المقترض) قد تغير تماماً بعد وصوله سن الشيخوخة ، فإنهم يجيزون للدائن أن يستوفي حقه من هذا الشخص .

(ولذا يقال للشخص من الصبا إلى الشيخوخة هو بعينه وإن تبدلت الصور والهيئات بل كثير من الأعضاء والآلات ، ولا يقال لمن جنى في الشباب فعوقب في المشيب إنها عقوبة لغير الجاني)^(١) .

والخلاصة : إذا دخل شاب مرحلة الشيخوخة ، أو إذا فقد شخص سليم أحد أعضائه ، وإذا تم زرع كلية والد في جسم ولده ، أو تمت زراعة قطعة عظم أو قطعة من جلد شخص ما في جسم شقيقه ، فإن أيّاً من هذه العمليات

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٠٤ .

لا تُغير من شخصية الفرد ، - لا من الناحية الشرعية ولا من الناحية العقلية - ،
كما أنها لا تُسيء إلى النزعة الأنانية للشخص ، حيث أن كل فرد يدرك من
أعماق وجوده ويقول لنفسه «إني أنا ولم أتغير» .

معيار العقاب والثواب :

إنَّ المعاد الجسماني وتكوّن أبدان الناس يوم القيامة ، وكذلك موضوع
الثواب للصالحين والعقاب للمذنبين إنّما يتمّ وفقاً لنفس المعيار الذي يقرّره
الشرع الإسلامي في الدنيا ، والذي يحظى بقبول جميع العقلاء في العالم
وكافة القوانين البشرية . وهنا يقول الإمام الصادق عليه السلام : «فتعودُ الصُّورُ بإذنِ
المُصوِّرِ كهيئتها وتلجُّ الرُّوحُ فيها فإذا قد استوى لا يُنكرُ من نفسه شيئاً»^(١) .

كلام للمحقق «دواني» :

يقول المحقق «دواني» في شرح عقائد العنصرية :

(والحاصل أنَّ المعاد الجسماني عبارة عن عود النفس إلى بدن هو ذلك
البدن بحسب الشرع والعرف ومثل هذه التبدلات والمغايرات التي لا تقدح في
الوحدة بحسب الشرع والعرف لا تقدح في كون المحشور هو المبدأ)^(٢) .

والنتيجة : أنه في عصر الرسول الأكرم (ص) تحدث البعض عن استحالة
المعاد الجسماني (وكونه أمراً غير ممكن الحدوث) ، وقد أشار القرآن الكريم
إلى هؤلاء . وبعد الرسول (ص) تحدثوا أيضاً في هذا المجال تحت عنوان عدم
إمكانية إعادة المعدوم وشبهة الأكل والمأكول وشبهات أخرى ، ولكن آياً من
هذه (الشبهات) لا يسيء عملياً إلى موضوع المعاد ، ولا يشكل دليلاً على
الإستحالة العقلية لعودة الناس ثانية إلى الحياة في يوم الجزاء .

أما المسلمين الحقيقيين فإنهم - واستناداً إلى صريح الآيات القرآنية

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ١٩٩ .

(٢) بحار الأنوار : مجلد ٣ ، صفحة : ٢٠٣ .

والأحاديث والروايات - يعتبرون المعاد الجسماني إحدى الضرورات المؤكدة والحتمية للدين الإلهي ، وهم واثقون من ذلك كل الثقة .

المعاد الجسماني ضرورة من ضرورات الدين :

يقول العلامة المجلسي (رضوان الله (تعالى) عليه) :

(إعلم أن القول بالمعاد الجسماني مما اتفق عليه جميع الملتين وهو من ضروريات الدين ومنكره خارج عن عداد المسلمين والآيات الكريمة في ذلك ناصة لا يعقل تأويلها والأخبار فيه متواترة لا يمكن ردّها)^(١) .

الثواب الروحي والجسدي :

إن الأعمال الصالحة التي يقوم بها الأفراد المؤمنون الخيرون في الدنيا لها ناحيتين أو طابعين ، الجانب الروحاني والمعنوي الذي يرتبط بالنية الحسنة والضمير النزيه لهؤلاء الأفراد ، والجانب الجسماني أو المادي الذي ينجم عن قوى الجسم وطاقاته والنشاطات التي تقوم بها أبدانهم . ولكي يعطي الله الأفراد الصالحين الخيرين الثواب الكامل فإنه (سبحانه وتعالى) يخلق هؤلاء يوم القيامة على مثل ما كانوا عليه في الدنيا ، حيث يعيد إليهم أرواحهم وأجسامهم معاً لكي تستمتع أجسامهم بالنعم المادية وطعام الجنة وشرابها ، وفي نفس الوقت تستلذ وتتعم أرواحهم بالثواب والعطايا المعنوية والنعم الروحانية القيمة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين النوعين من النعم ، ووعدهما الصالحين والأخيار من الناس : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢) .

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة : ٢٠٢ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٧٢ .

رضوان الله :

(عن النبي صلى الله عليه وآله قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ . قالوا يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ، قال : أجل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١) .

وقد نظم الشاعر أبياتاً بالفارسية في هذا المجال يقول فيها ما معناه : (إن جنات الخلد هي الثواب والأجر الذي يعطيه الباريء (سبحانه وتعالى) للمؤمنين ، لكن الثواب الأفضل والأجر الأكثر هو رضوان الله فهو سمو الروح وهو الفوز الأكبر) .

إن الأعمال السيئة التي يقوم بها المذنبون الذين لا إيمان لهم (بالله واليوم الآخر) في هذه الدنيا هي كالأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمنون ، لها بعدين أو جانبين : جانب روحي ومعنوي يرتبط بالنية السيئة والضمير أو الوجدان المنحرف لهؤلاء الأشخاص السيئين ، كما أن لها جانب جسماني مادي تفرزه القوى والطاقات الجسمانية والنشاطات البدنية لهؤلاء الأشخاص . ولكي ينال هؤلاء عقابهم من هذين الجانبين معاً أي روحياً وجسدياً ، فإن الله يصنعهم (يُعيد خلقهم) يوم القيامة على مثل ما كانوا عليه في الدنيا ، ويعيد إليهم أجسامهم وأرواحهم معاً وفي وقت واحد لكي تتعذب أجسامهم بأنواع العذاب في النار كما تتعذب أرواحهم بأنواع العذاب المعنوي والباطني .

وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب الجسم وعذاب الروح يوم القيامة من خلال هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن عذاب الجسم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(٢) .

(١) تفسير الدر المنثور ، المجلد ٣ ، صفحة ٢٥٧ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ٥٦ .

عقاب الروح :

وعن عذاب الروح يقول القرآن الكريم :

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾^(١) .

وقد نظم الشاعر أبياتاً من الشعر بالفارسية يقول فيها ما معناه : (إنَّ جهنم
ونار غضب الباريء (تعالى) هو العقاب الجسدي للفاسقين من ذوي الأعمال
السيئة ، أمّا الذل والهوان (يوم القيامة) فهو عذاب الروح وعقابها) .

تبين لنا مما تقدم أن مسألة المعاد هو القضاء والمشية الإلهية المحتمة ،
وهذا الأمر أبلغه الأنبياء والمرسلون إلى البشر على مدى القرون والأعصار .
وكان بعض المشركين في عهد الرسول (ص) يعتبرون المعاد أمراً مستحيلاً وغير
ممكن الحدوث ، وبالتالي فإنهم كانوا ينفون وينكرون من خلال أحاديثهم
وجود المعاد ، وقد رد القرآن الكريم على كلام هؤلاء . وبعد النبي
الأكرم (ص) ، أثرت بين المسلمين شبهات حول المعاد ، حيث انبرى البعض
في الرد على هذه الشبهات وتفنيدها في إطار من المنهجية العلمية ، قال
البعض : إنَّ أصل المعاد هو روحاني ، والبعض قالوا : إنه جسماني . ولكن
الذي يُستنتج من صريح الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة هو أن الجسم
المتلاشي في داخل القبر والروح الباقية في عالم البرزخ كلاهما يعودان معاً يوم
المحشر (يوم القيامة) ، ويدخلان محشر القيامة كما كانا عليه في الدنيا وبنفس
الهيئة التي كانا عليها في الدنيا . وهذه هي من المسائل الضرورية والملحة في
الدين الإسلامي .

فالناس يجب أن يعودوا إلى الحياة في يوم المحشر شاؤوا ذلك أم أبوا ،
ويحضروا أمام محكمة العدل الإلهي ، ويصرّحوا بكل ما ارتكبوه من أعمال في

(١) سورة الأحقاف ؛ الآية : ٢٠ .

دار الدنيا . ولا أحد قادر على تغيير هذا المصير المحتوم وأن يبعد نفسه عما هو مقدر له من قبل الله وهذا المقدر لا يمكن تجنبه .

المعاد أو المصير المحتوم :

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : كَانَ فِيمَا وَعَظَ بِهِ لُقْمَانُ عليه السلام ابْنَهُ أَنْ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنْ تَكُ فِي شَكٍّ مِنَ الْبَعْثِ فَارْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ الْإِنْتِبَاهَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ إِذَا فَكَّرْتَ فِي هَذَا عَلِمْتَ أَنَّ نَفْسَكَ بِيَدِ غَيْرِكَ وَإِنَّمَا النَّوْمُ بِمَنْزِلَةِ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا الْيَقَظَةُ بَعْدَ النَّوْمِ بِمَنْزِلَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ) (١) .

هذا التنظير ورد في كلام الرسول الأكرم (ص) بصياغة أخرى حيث قال (ص) : «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَتَمُوتَنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتُبْعَثَنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ» (٢) .

ويقول القرآن الكريم : إِنَّ النَّاسَ عِنْدَمَا يَبْعَثُونَ يَوْمَ الْمَحْشَرِ يَتَصَوَّرُونَ كَأَنَّهُمْ اسْتَيْقَظُوا مِنْ نَوْمِهِمْ : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣) .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : فَإِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا فِي الْقُبُورِ فَلَمَّا قَامُوا حَسِبُوا أَنَّهُمْ كَانُوا نِيَاماً ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٤) .

إذن ، فإن القيامة تقوم بمشيئة الله وقضائه ، حيث يخرج الناس من القبور التي اعتبروها مضاجع لهم ، ويدخلون ساحة المحشر الرهيبة ، ويُعدّون أنفسهم بقلق واضطراب للحساب ، حيث يحاسبون على ما قاموا به من أعمال في الدنيا .

(١) بحار الأنوار : مجلد ٣ ، صفحة ٢٠ .

(٢) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٠٢ .

(٣) سورة يس ؛ الآية : ٥٢ .

(٤) تفسير الصافي : صفحة ٤٥١ .

العمر الذي ينقضي بسرعة :

إنَّ أول شيء يتضح للناس الغافلين المذنبين في يوم المحشر ويعذبهم ويقض مضاجعهم بشدة هو العمر القصير الذي أمضوه في الدنيا وانقضى بسرعة ، والمسؤولية العظمى التي يتحملونها الآن (يوم القيامة) إزاء جميع أعمالهم في الدنيا . والقرآن الكريم يشير في آيات عديدة إلى هذه النقطة وذلك بهدف أن يعي الناس ويصحوا من غفوتهم ، وأن يعملوا من أجل غدهم وآخرتهم وسعادتهم في دار الآخرة طالما هم الآن يعيشون في هذا العالم الذي هو دار تكليف بالنسبة للإنسان : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١) .

يا أيها النبي أُنذر الناس من اليوم الذي يحشرهم فيه الله ، حيث أنَّ حياتهم في الدنيا تبدو في نظرهم وكأنها ساعة واحدة تكاد تكفي فقط للتعرف على بعضهم البعض والتعارف فيما بينهم ، إلا أنَّ الذين يكذبون وينكرون يوم الجزاء هم من الخاسرين والمحرومين من نعمة الهداية .

الدنيا المؤقتة العابرة :

الساعة في لغة العرب تستخدم للدلالة على الفترة الزمنية القصيرة . والحقيقة أنَّ هذه الآية الكريمة تريد إيقاظ الناس من غفوتهم وسباتهم وتقول لهم : إصحوا ، فإنَّ الدنيا التي تحبونها وتتعلقون بها بشدة هذه الدنيا التي سحرتكم بمباهجها وغرتكم بزخارفها وفتنتكم بثرواتها ستفقدونها قريباً ، وسيفصل الموت بينكم وبينها ، وأن فترة بقائكم في الدنيا لا تتعدى ساعة واحدة قياساً بموقف يوم المحشر ، ولكن الضرر الذي يلحق بكم ويصيبكم من الدنيا سيلاحقكم إلى الأبد ، وليس فقط أنَّ العمر الدنيوي للأفراد يبدو قصيراً

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٤٥ .

في عالم الآخرة ، بل في هذه الدنيا أيضاً عندما يدخل شيخ عجوز في تفكير عميق ، ويتخيل في ذهنه ذلك الطريق الطويل الذي قطعه على مدى تسعين عاماً من عمره في الدنيا ، فإنه يشعركم أن عمره في الدنيا كان قصيراً عندها يقول في نفسه : لقد مضى عمري كالبرق ، فما أسرع أن أصبحت فتىً بعد أن كنت طفلاً ، وما أسرع أن أصبحت شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً مسناً ، وهأنذا أقف على عتبة الموت . ففي نظره أن فترة التسعين عاماً هي فترة قصيرة جداً ، وفي يوم القيامة يتجسد هذا القصر في الفترة الزمنية بشكل أوضح ، حيث يقول الله (تعالى) :

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾^(١) .

كما يقول (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه :

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾^(٢) .

تشبيه الحياة بالنوم :

جاء في الحديث الشريف :

«إِنَّ النَّاسَ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا اسْتَيْقَظُوا» . أي أن الناس في هذه الدنيا نيام ولا يستيقظون إلا عندما يموتون ، عندها يزول الحجاب من أمام أعينهم فيشاهدون عالم الغيب . وهذا التشبيه هو صحيح ومنطقي من جهات عديدة كل واحدة منها يمكن أن تكون بمثابة عبرة ودرس يعتبر به الإنسان وينبّههُ إلى المصير الذي ينتظره . فالإنسان قد يغط في نوم عميق ولعدة ساعات ، وعندما يستيقظ من نومه ويفتح عينيه يُخيل إليه أنه نام لفترة قصيرة ، ولكنه عندما ينظر إلى ساعته يدرك بأنه كان نائماً لفترة طويلة . فكما أن فترة النوم تبدو قصيرة في نظر النائم الذي يستيقظ من النوم ، كذلك فإن فترة عمر الإنسان في هذه الدنيا وفترة حياة

(١) سورة الأحقاف ؛ الآية : ٣٥ .

(٢) سورة النازعات ؛ الآية : ٤٦ .

البرزخ تبدو فترة زمنية قصيرة في نظر الناس الذين استيقظوا من مضاجع قبورهم ، ودخلوا المحشر بأعين ثاقبة (فبصرهم اليوم حديد) . فهؤلاء يتصورون (في يوم القيامة) أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا فترة قصيرة ، ولكنهم عندما ينظرون إلى صحيفة أعمالهم التي هي بمثابة الساعة أو العداد الذي يسجل لحظات أعمارهم ، يفهمون بأنهم عاشوا في الدنيا سنوات طويلة وهم في غفلة من أمرهم ، ولم يدخروا (لآخرتهم) سوى الذنوب والمعاصي ، عندها يندمون لقبيح أعمالهم ويدركون أخطاءهم التي وقعوا فيها ، ولكن عندئذ لا ينفع الندم ، وندمهم هذا لا يمكنه أن ينقذهم من الشقاء والعذاب :

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾^(١) . كل الناس يصحون من غفوتهم ويعون أنفسهم يوم المحشر ويقفون على أوضاعهم وأحوالهم ، ولكن هذا لا يغير شيئاً من مصير أي منهم ، فلا الصالحون يرتقون إلى درجات أعلى ، ولا الفاسقون ينجون من العذاب .

الصحة النافعة والمثمرة :

إن صحة الضمير تكون مفيدة ومثمرة إذا أدرك الإنسان ووعى حقيقة نفسه ، واستغل فرصة الحياة في تربية النفس وترسيخ القيم الإنسانية في ذاته ، وتخلق بالأخلاق الإنسانية في دار الدنيا التي هي دار التكليف والسعي والعمل ، مثل هذا الشخص يحشر يوم القيامة إنساناً وتكون الجنة مأواه ومأوى كل من عاش في الدنيا كإنسان بكل معنى الكلمة .

(عن علي عليه السلام قال : «الدنيا دارُ صِدْقٍ لِمَن صَدَّقَهَا ودارُ عَافِيَةٍ لِمَن فَهَمَ عَنْهَا ودارُ غِنَى لِمَن تَزَوَّدَ مِنْهَا ودارُ مَوْعِظَةٍ لِمَن اتَّعَظَ بِهَا ، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللَّهِ وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللَّهِ وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ اِكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ»^(٢) .

(١) سورة الفجر ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة : ١٣١ .

المحاضرة الرابعة عشرة

تغير القوانين التكوينية (الطبيعية) تجسيد الأعمال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(١) .

العالم والقوانين التكوينية :

هناك مجموعة من السنن والقوانين التكوينية تتحكم بهذه الكرة الأرضية التي هي مهد البشر وسائر الكائنات الحية ، حيث أن النظام في هذا العالم يرتبط بهذه السنن والقوانين ، كقانون الحياة والموت ، والتناسل والوراثة ، وقانون الجاذبية ، وقانون الدفع وسرعة النور ، ونشوء الليل والنهار ، وتغيير الفصول ، وقانون تبخر الماء ، والقوانين التي تتحكم بهطول الأمطار والثلوج ، وسائر القوانين التكوينية الأخرى المماثلة . على أن بعض هذه القوانين والسنن التكوينية أصبحت معروفة نتيجة لتقدم العلم ، كما أن البعض الآخر منها لا زال مجهولاً .

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٠ .

والذي وضع القوانين التكوينية هو الله (الذات الإلهية المقدسة) ، وأن هذه القوانين وجدت ونشأت بإرادة الله ومشيتته ووفقاً لمبادئ العدل وتحقيقاً لمصلحة (البشرية)^(١) وهذه القوانين وجدت في صلب هذا العالم ، حيث تسري وتحكم المجموعة الكونية بموجب جبر الخليقة . وفي ظل تلك القوانين والسنن يبقى ويستمر هذا النظام الحكيم والمدهش الذي يتحكم بعالم الوجود .

القوانين التشريعية :

إلى جانب القوانين التكوينية الموضوعية من قبل الله ، والتي تتولى التحكم في الجوانب الطبيعية في هذا العالم وإدارتها ، هناك سلسلة من القوانين التشريعية التي وضعها الله (سبحانه وتعالى) في كل عصر وزمان ، من أجل هداية البشر وتوجيهه وتأمين السعادة له ، وهذه القوانين أبلغت إلى البشر عن طريق الأنبياء والمرسلين .

فالقوانين التشريعية لا جبر فيها والناس أحرار في قبول أو رفض رسالات الأنبياء ودعوتهم ، إذ يمكنهم أن يقبلوا دين الله ويكونوا من الشاكرين على الهداية الإلهية ، كما أن بإمكانهم أن يرفضوا دين الله ويكفروا بنعمة الهداية الإلهية .

ولكن الأنبياء عليهم السلام أكدوا هذه النقطة ، وهي : أن الإمثال للتعالم الإلهية وإطاعتها يؤدي إلى سمو النفس ووصولها إلى مرحلة الكمال في الدنيا ويستوجب الأجر والثواب الإلهي في الآخرة ، كما أن التمرد على التعالم الإلهية يقود إلى الإنحطاط والسقوط المعنوي في الدنيا ، وبالتالي يستوجب العقاب والعذاب الإلهي في الآخرة .

إن مجموعة القوانين التكوينية الإلهية التي تحافظ على النظام الموجود في

(١) المترجم .

هذا العالم ، وكذلك مجموعة القوانين التشريعية الإلهية التي تهدي الإنسان وترشده إلى طريق السعادة ، هذه القوانين باقية وثابتة حتى نهاية عمر الدنيا وانقراض وزوال عالم الطبيعة ، ولكن مع حلول يوم الجزاء وقيام القيامة ، فإن أوضاع العالم تتغير كلياً ، ويظهر عالم جديد تحكّمه ظروف جديدة وتتوفر فيه مزايا جديدة .

فالقوانين التي تسود الكون حالياً تزول بأمر الله ، وتحل محلها قوانين تكوينية جديدة تتناسب مع عوالم الآخرة الأبدية . ولهذا السبب فإن الناس في عالم الآخرة يجدون أنفسهم أمام قوانين وسنن تكوينية جديدة .

ثلاثة أيام مرعبة :

(عن الرضا عليه السلام قال : «إِنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ هَذَا الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ : يَوْمَ يُولَدُ وَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرَى الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيُعَايِنُ الْآخِرَةَ وَأَهْلَهَا ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا فَيَرَى أَحْكَامًا لَمْ يَرَهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا»^(١) .

إنَّ القوانين التشريعية الإلهية هي كالقوانين التكوينية في هذا العالم تنتهي مع انتهاء عمر الدنيا ، وتنتهي بذلك دار الدنيا التي هي دار التكليف ، وينقرض البشر ولا يعود هناك مكان للأحكام الدينية والقوانين التشريعية التي توضح الأحكام الدينية التي كُلف بها البشر ، وتبين ما يقع على عاتق كل إنسان في هذه الدنيا من واجبات ومسؤوليات (تجاه الآخرين من أبناء البشر وتجاه الله سبحانه وتعالى)^(٢) .

وقد أشرنا في المحاضرة الثانية من هذا الكتاب إلى عدد من القوانين التشريعية التي تتحكم بنظام الطبيعة في الوقت الحاضر ، حيث أن هذه القوانين تنسخ في الآخرة وتحل محلها قوانين أخرى .

(١) تفسير البرهان : مجلد ٣ ، صفحة ٧ .

(٢) المترجم .

الآخرة والقوانين الجديدة :

وسنبحث في هذه المحاضرة أيضاً ، واستناداً إلى بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث والروايات (المنقولة عن النبي (ص) والأئمة عليهم السلام، سنبحث حول عدد من القوانين التكوينية الأخرى ، التي تتولى إدارة نظام العالم ونظام الطبيعة ، والتي ستزول وتُسخ في الآخرة لتحل محلها قوانين أخرى بمشيئة الله وإرادته الحكيمة .

كما نعلم فإن الشمس والطاقة العظيمة الهائلة التي تنبعث منها باستمرار ، هذه الشمس هي من جهات عديدة مصدر خير وبركة ورحمة للأرض والكائنات الحية التي تعيش فوقها ، كما أنها مصدر الحياة (على هذه الأرض) .

نور الشمس مصدر الحياة :

إن وجود هذا الجرم الكبير الذي يشكل مركز المنظومة الشمسية يؤدي إلى الحفاظ على حالة التعادل والتوازن فوق كوكب الأرض ، ويجعل الأرض تدور في الفلك الذي يجب أن تدور فيه . على أن النور الذي ينبعث من الشمس معظمه ينتشر في الفضاء السحيق اللامتناهي وجزء بسيط من هذا النور يصل إلى الأرض ، ولكن في ظل هذه الكمية القليلة نسبياً من نور الشمس ، تعيش النباتات والأشجار والحشرات والحيوانات ، وكذلك أفراد البشر ، حيث تواصل هذه الكائنات الحية حياتها الفردية والنوعية .

كما أن الماء هو مصدر حياة لجميع الكائنات الحية في هذا العالم ، حيث يقول الله (تعالى) في القرآن الكريم : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾^(١) .

فنتيجة لسطوع أشعة الشمس تتبخر مياه البحار وتتكون الغيوم ، حيث

(١) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٣٠ .

يصل الماء إلى جميع مناطق الكرة الأرضية بسبب هطول الأمطار وتساقط الثلوج ، وبالتالي يتأمن الماء الذي تحتاجه الموجودات الحية ، وبهذه الطريقة تحافظ هذه الكائنات الحية على حياتها حيث لم تعد تواجه خطر العطش .

والحقيقة أن حرارة الشمس وقانون التبخير هو الذي يجعل مياه المحيطات تنتشر في الفضاء على شكل غيوم لتروي الأرض ، وتحافظ على حياة الكائنات الحية من خطر الموت . فالكائن الحي يحتاج إلى الغذاء ، حيث أن أشعة الشمس هي أهم عامل لتأمين الغذاء للنبات والحيوان والإنسان .

فنتيجة لوجود أشعة الشمس تبقى النباتات حية وتحصل على غذائها وتواصل نموها ، وبالتالي يتأمن غذاء الحيوانات التي تعيش على النباتات ، وهذه الحيوانات تعيش في ظل أشعة الشمس وتنمو وتسمن ، وعن هذا الطريق يتأمن غذاء الحيوانات التي تعيش على اللحوم ، وكذلك الإنسان الذي يتغذى على اللحوم والنباتات ، فهو أكثر حاجة لأشعة الشمس ، وبالتالي فهو أكثر حاجة لنمو النبات والحيوان .

إن التطورات والتغيرات المفيدة النافعة التي تحدث نتيجة لتناوب الليل والنهار وتغير الفصول وظهور البرد في الشتاء والحرارة في الصيف ، هذه التطورات والتغيرات إنما تعتمد على وجود الشمس وموقعها بالنسبة للأرض ، حيث أن كل واحد من هذه التغيرات بحد ذاتها تلعب دوراً مهماً في نظام الخلقة الحكيم على صعيد استمرار حياة النبات والحيوان والإنسان ، وتأمين الغذاء لهذه المخلوقات الحية وضمان سلامتها وراحتها .

على أن هذه الأمور التي أشرنا إليها والمتعلقة بحياة النبات والحيوان والماء والغذاء وتناوب الليل والنهار والصيف والشتاء (الحرارة والبرودة) ، إنما تشكل جانباً من القوانين التكوينية في عالم الطبيعة ، وهذه القوانين تسري الآن في هذه الدنيا بمشيئة الله وقضائه ، ولكن في عالم الآخرة لا تسري أي من هذه القوانين بالشكل الذي نشاهده في الدنيا .

الفرق بين حياة الدنيا وحياة الآخرة :

إن الحياة موجودة في الآخرة ، ولكنها تختلف عن حياة الدنيا من جهات عديدة ، منها أن عدداً محدوداً من المواد المعدنية والعناصر الطبيعية تدخل بالتناوب في صلب الحياة في هذه الدنيا ، حيث تتمتع لأيام معدودات بنعمة الحياة النباتية أو الحيوانية . أما معظم العناصر الموجودة على هذه الأرض فهي باقية على شكل جماد ، أما في عالم الآخرة المتكامل فلا يوجد سوى الحياة والأحياء . فكل شيء في الآخرة ينبض بالحياة ومنهم البشر الذين يعيشون في الجنة أو في النار .

والإختلاف الآخر بين حياة الدنيا وحياة الآخرة هو أن الحياة في الدنيا مرتبطة بأشعة الشمس ، أما في الجنة أو في جهنم فلا توجد شمس لكي ترتبط الحياة بها ، وهذا ما يظهر من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة :

(قال رجلٌ : يا رسولَ الله هل في الجنةِ من ليلٍ قال : «وما هيَّجَكَ على هذا» قال : سمعتُ الله يذكرُ في الكتابِ ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١) .

فقلتُ الليلُ من البُكرةِ والعشيِّ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وآله : «ليسَ هناك ليلٌ وإنما هو ضوءٌ ونورٌ يردُّ الغدوُّ على الرِّواحِ والرِّواحُ على الغدوِّ وتأتيهم طُرفُ الهدايا من الله لمواقيتِ الصَّلواتِ التي كانوا يُصلُّونَ فيها في الدُّنيا وتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ»^(٢) .

الضوء المحبب في الجنة :

وجا في تفسير الجلالين حول قوله (تعالى) : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ : أي على قدرهما في الدنيا وليس في الجنة نهاراً ولا ليل ، بل ضوء

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٦٢ .

(٢) تفسير الدر المنثور : المجلد ٤ ، صفحة ٢٧٨ .

ونور أبداً» . وفي تفسير علي بن ابراهيم : «ليس في جنات الخلد ونيرانها شمس ولا قمر»^(١) .

﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً﴾^(٢) .

بعض المفسرين يقول بأن الزمهرير يعني القمر ، والبعض الآخر يقول : إن الزمهرير يعني البرد ، وعليه فإن معنى هذه الآية هو : أن أصحاب الجنة لا يرون شمساً ولا قمراً ، أو أنهم لا يعانون من حر الشمس ولا يتضايقون من البرد .

وجاء في تفسير البيضاوي حول معنى الآية المذكورة : والمعنى هواؤها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس وقمر .

الهواء المعتدل في الجنة :

وجاء في الحديث الشريف : «هواء الجنة سَجْسَجٌ لا حَرٌّ ولا قَرٌّ»^(٣) .

السجسج في اللغة تعني الهواء المعتدل ، لا حار ولا بارد .

وجاء في تفسير الكشاف في معنى الآية المذكورة : «والمعنى أن الجنة ضياءٌ فلا يحتاج فيها إلى شمس ولا قمر» .

كما أن في الجنة ماء ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ ، ولكن مصدر هذه المياه ليس أشعة الشمس وتبخير مياه البحار وتكوّن الغيوم وهطول الأمطار وتساقط الثلوج ، ففي الجنة لا يوجد شمس ولا بحار ولا توجد ظاهرة تبخر المياه وتكون الغيوم ، بل أن المياه في ظل النظام الحكيم في الآخرة تتكون وفقاً لقوانين وسنن جديدة تسود ذلك العالم بأمر من الله ، ونحن لا نعرف شيئاً عن طبيعة هذه القوانين وماهيتها .

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٧٣ .

(٢) سورة الإنسان ؛ الآية : ١٣ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : المجلد الرابع ، صفحة ١٩٧ .

نعم الجنة :

أصحاب الجنة يتناولون في عالم الآخرة مختلف أنواع الأغذية والفاكهة ، ولكن أيّاً من هذه الفاكهة والأطعمة لم تنضج وتنمو في ظل أشعة الشمس - كما هو الحال بالنسبة لأطعمة وفاكهة الدنيا - ، فالجنة الخالدة ليس فيها ربيع وصيف وخريف وشتاء وليل ونهار وحرّ وبرد ، ولكن رغم ذلك فإن أصحاب الجنة يتمتعون بجميع أنواع الفاكهة الموجودة في كافة فصول العالم في الدنيا ، كما أن الفوائد والمنافع التي يحصل عليها سكان الدنيا نتيجة تغير الفصول وتتابع الليل والنهار ، يحصل عليها أيضاً أصحاب الجنة في الآخرة .

وخلاصة الكلام : أن قانون الحياة وعدد آخر من القوانين والسنن التكوينية (الإلهية) الأخرى التي تترك تأثيرها على الكائنات الحية في عالم الطبيعة ، هذه القوانين والسنن التكوينية إنما تتحقق عملياً نتيجة لأشعة الشمس ، أما في الجنة وفي جهنم فليست هناك شمس ، وبالتالي فإن مسألة الحياة وسائر العوامل الأخرى التي تضمن وجود الحياة واستمرارها في الآخرة ، إنما تتحقق وتستمر من خلال قوانين وسنن تكوينية جديدة تسود عالم الآخرة بمشيئة الله (سبحانه وتعالى) .

تجسد الأعمال :

ومن الإختلافات الأخرى المهمة بين عالم الطبيعة - أي عالم قبل الموت - وعوالم ما وراء الطبيعة - أي ما بعد الموت - ، من حيث نظام التكوين ، مسألة تجسّم أعمال الإنسان وتمثلها ، حيث يتضح من خلال الآيات القرآنية الشريفة والروايات المنقولة عن أولياء الدين ، فإن أعمال الصالحين وأعمال الفاسقين والسيئين تتجسد في عالم البرزخ وفي يوم القيامة بطريقة مجهولة بالنسبة لنا ، وأن جميع الأعمال سواء كانت صالحة أو سيئة والتي يقوم بها الأفراد في الدنيا - ومهما كانت صغيرة أو كبيرة - ، هذه الأعمال تحضر أمامهم بحيث أنهم يشاهدونها عن كثب ، وهذه هي من أعقد الأمور وأصعبها والتي

يواجهها الإنسان في عوالم ما بعد الموت .

عالم البرزخ وتجسد الأعمال :

استناداً إلى بعض الروايات (المنقولة عن الأئمة عليهم السلام) فإن أعمال كل إنسان تتمثل أمامه بعد لحظات من موته ، أي في المراحل الأولى من عالم البرزخ ، حيث يرى صاحب هذه الأعمال وبعين برزخية - داخل ملكوت القبر ، يرى أعماله تلك التي تبقى معه إلى يوم تقوم القيامة ، فيفرح الصالحون لدى مشاهدتهم أعمالهم ، أما الفاسقون المذنبون فيتألمون عندما يشاهدون أعمالهم ، كما أن جميع الأشياء وجميع الناس يصلون إلى مرحلة التكامل والنمو النهائي في عالم الآخرة الذي هو دار العلو والتكامل ، حيث أن تجسد الأعمال لا يستثنى من هذا المبدأ العام .

والجدير بالذكر في هذا المجال أن الأعمال الجسمانية والأعمال الحسنة والسيئة التي نقوم بها بصورة علنية ليست هي وحدها التي تتجسد وتتمثل أمامنا ، بل أن النوايا الحسنة والسيئة للأفراد التي هي بمثابة أعمالهم الروحية ، تتجسد أيضاً كأعمالهم الجسمانية .

وفي هذا المجال يقول الشاعر ما معناه : إن أي خيال وأي تصور يستقر ويرابط في قلب الإنسان وباطنه . هذا التصور أو الخيال سوف يتجسد يوم المحشر (يوم القيامة) ويظهر أمام صاحبه .

تجسيد الأعمال والنوايا :

(يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «عندما يوضع المؤمن في قبره يفتح له باب يرى منه مقعده في الجنة ، ويخرج من ذلك رجل لم تر عيناه شيئاً قط أحسن منه فيقول : يا عبد الله ما رأيت شيئاً قط أحسن منك فيقول : أنا رأيتك الحسن الذي كنت عليه وعملك الصالح الذي كنت تعمله . وعندما يوضع الكافر في قبره يفتح له باب يرى منه مقعده في النار ثم أنه يخرج منه رجل أقبح من رأيي قط قال : فيقول يا عبد الله من أنت ؟ ما رأيت شيئاً أقبح منك فيقول

أنا عمَلُكَ السيِّء الَّذِي كُنْتَ تَعْمَلُهُ ورَأْيُكَ الخَبِيثُ»^(١) .

وجاء في الأحاديث والروايات : أن قيمة نوايا الصالحين والفاسقين تُقاس مع أعمالهم ، حيث تُعتبر نوايا كل فئة أهم من عملها .

(عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ وَنِيَّةُ الْكَافِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ وَكُلُّ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَلَى نِيَّتِهِ»^(٢) .

العمل وصاحب العمل :

ولعله يمكن القول على ضوء مثل هذه الروايات والأحاديث بأن تجسّد النوايا الحسنة الطيبة في البرزخ والقيامة ، يسّر ويفرح الصالحين أكثر مما تسرّهم وتفرحهم أعمالهم الصالحة ، كما أنّ الفاسقين غير المؤمنين يتألّمون من تجسّد نواياهم السيئة أكثر من تألمهم من أعمالهم السيئة .

واستناداً إلى الأحاديث والروايات (المنقولة عن النبي صلواته
والله وسلم والأئمة عليهم
السلام) عندما يحين يوم القيامة يعود الناس إلى الحياة بأمر من الباري (تعالى) ، حيث يخرجون من قبورهم ويدخلون مسرح القيامة وساحة المحشر. والأعمال الحسنة أو السيئة لكل إنسان والتي تجسّدت أمامه في عالم البرزخ ، هذه الأعمال تخرج مع الإنسان من قبره .

(عَنِ النَّبِيِّ صلواته
والله وسلم قَالَ : «فَإِذَا أُخْرِجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ خَرَجَ مَعَهُ كُلُّ إِنْسَانٍ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ عَمَلُهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا لِأَنَّ عَمَلَ كُلِّ إِنْسَانٍ يَصْحَبُهُ فِي قَبْرِهِ»^(٣) .

جمال العمل الصالح :

ويتّضح من خلال الآيات الكريمة والأحاديث والروايات أنّ جميع

(١) أصول الكافي : المجلد ٣ ، صفحة ٢٤١ .

(٢) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ٨٤ .

(٣) تفسير البرهان : المجلد ٤ ، صفحة ٨٧ .

الأعمال الصالحة التي قام بها الأفراد الصالحون المؤمنون في الدنيا تتمثل وتتجسد أمام صاحبها على هيئة مخلوق جميل . ويستفاد من بعض الأحاديث الشريفة أن بعض الأعمال الصالحة التي يقوم بها الإنسان في الدنيا تتمثل بصورة مستقلة . وفيما يلي نذكر مثالين لهذه الأعمال :

(فمن النبي ﷺ قال : «الجنةُ قيعانٌ وإنَّ غراسَها سبحانُ الله وبِحَمْدِهِ»^(١) .

الأعمال تحدث صاحبها :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «إنَّ المؤمنَ إذا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ خَرَجَ مَعَهُ مِثَالٌ مِنْ قَبْرِهِ يَقُولُ لَهُ : أَبَشِّرْ بِالْكَرَامَةِ مِنَ اللَّهِ وَالسَّرُورِ فَيَقُولُ لَهُ بِشْرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ . . . فلا يزالُ مَعَهُ يُؤْمِنُهُ مِمَّا يَخَافُ وَيُبَشِّرُهُ بِمَا يُحِبُّ حَتَّى يَقِفَ مَعَهُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا أُمِرَ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ لَهُ الْمِثَالُ : أَبَشِّرْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ بِكَ إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ : فَيَقُولُ مِنْ أَنْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ تُبَشِّرُنِي مِنْ حِينِ خَرَجْتُ مِنْ قَبْرِي وَأَنْسَتَنِي فِي طَرِيقِي وَخَبَّرْتَنِي عَنْ رَبِّي قَالَ : فَيَقُولُ أَنَا السَّرُورُ الَّذِي كُنْتَ تُدْخِلُهُ عَلَيَّ إِخْوَانِكَ فِي الدُّنْيَا خُلِقْتُ مِنْهُ لِأَبَشِّرَكَ وَأُؤْنِسَ وَحَشَّتَكَ»^(٢) .

نظرية الفلاسفة والمتكلمين :

إنَّ موضوع تجسّد العمل هو أمر غير ممكن استناداً إلى النظرية التي وضعها الفلاسفة والمتكلمون منذ القدم حول الجوهر والعرض .

بحث الجوهر والعرض :

يقول هؤلاء الفلاسفة : إنَّ الماهية التي يمكنها أن تظهر وتبرز بشكل مستقل وبدون موضوع ، ليست سوى الجوهر ، أمّا العرض الذي هو وجود تابع وغير

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٥٧ .

(٢) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ١٩١ .

أصيل فلا يمكن أن يتحقق ويظهر بدون موضوع .

ونظراً لأن أعمال البشر - سواء كانت مشروعاً أو غير مشروعاً - هي من مجموعة العَرَضِيَّات وهي قائمة وموجودة من خلال وجود الإنسان ، إذن فإنها غير قابلة للتجسّد والتمثّل ، وبالتالي فهي لا تتحقق إلاّ إذا تعلّقت وارتبطت (هذه العَرَضِيَّات) بالموضوع (الجوهر). فمثلاً : عملية الركوع أمام الله (سبحانه وتعالى) هي من العبادات ، كما أن السرقة هي من المعاصي. فالذي يركع وينحني بجسده ويَطأطأء برأسه عن إرادة وقصد بهدف تعظيم الله والتقرب إليه ، إنما يُقرّ بالعبودية لله .

فالذي يُشاهد في الظاهر بصورة مستقلة هو جسم الإنسان ، أمّا كيفية الركوع والانحناء بالرأس ونصف الجسد وكذلك الفترة الزمنية التي يستغرقها الركوع وعدد الركعات ، فهو أمر عَرَضِيٌّ وقائم بالجسم . فبمجرد أن يغيّر الراكع وضعيّة جسمه ويتخذ حالة أُخرى أو وضعاً مختلفاً فإن الركوع ينعدم تماماً ويزول ، ولكن هل أن هذه الكيفية والكمية العَرَضِيَّة غير الثابتة وغير المستقرة بإمكانها أن تتجسّد بصورة مستقلة وبعيداً عن الجسم ، بحيث أن الراكع يشاهدها أمامه وفي حضوره كوجود مستقل ؟ .

فالذي يذهب إلى متجر للمجوهرات بهدف السرقة ، فإنّه يمد يده للسرقة من اللحظة التي يكون فيها صاحب المتجر غافلاً ، حيث يثني السارق أصابعه ويلتقط علبة صغيرة تحتوي على خاتم ثمين ، وهو بهذا العمل يكون قد ارتكب جريمة السرقة . فالشيء الموجود في الظاهر هو يد السارق وأصابعه ، أمّا مدّ اليد وتحريك الأصابع التي هي أداة لالتقاط العلبة فهي عَرَضِيَّة ومرتبطة أو قائمة بجوهر البدن أو الجسم . فهل أن هذه الأعمال العَرَضِيَّة بإمكانها أن تتجسّد وتتحقق في العَلَن دون وجود يد وأصابع السارق ؟ .

إن الردّ على كلا السؤالين وفقاً لنظرية الفلاسفة والمتكلمين التي تبحث حول الجوهر والعَرَض ، هذا الردّ لا يخرج عن الإطار الفلسفي ، وأن

العرضيات لا وجود لها بدون الموضوع (الجوهر) .

تأويل الآيات والروايات :

وعلى هذا الأساس فإن كثيراً من العلماء والمفسرين ومن أجل الخروج من هذا المأزق وتجاوز هذه المشكلة ، تجاهلوا ظواهر الآيات القرآنية وروايات الأئمة ، حيث قاموا وبطريقة ما بتفسير وتأويل موضوع تجسد وتمثل الأعمال ، مستندين إلى بعض الآيات الكريمة ومنها هذه الآية :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(١) .

وهناك أبيات شعرية نظمها شاعر إيراني بالفارسية وهي ترتبط بالموضوع الذي تتكلم عنه ، تقول هذه الأبيات^(٣) ما معناه :

(إنَّ الناس في يوم النشور (يوم القيامة) يشاهدون أعمالهم الحسنة وأعمالهم السيئة ظاهرة وماثلة أمامهم ، بحيث أن الشخص في يوم القيامة يتمنى لو أن بينه وبين أعماله السيئة بون شاسع ومسافة لا تعد ولا تحصى . فجميع الأعمال (الحسنة والسيئة التي قام بها الفرد في الدنيا) تظهر وتمثل وتتجسد أمام عينيه عندها يتمنى لو أنه لم يرتكب تلك الأعمال السيئة .

حول رؤية الأعمال :

على أن المفسر الجليل المرحوم الشيخ الطبرسي يشير في تفسيره إلى الآية المذكورة ويستشهد بآيتين أخريين فيقول :

(ثمَّ اختلف في كيفية وجود العمل محضراً فقليل : تجدُ صحائف الحسنات والسيئات عن أبي مسلم وغيره وهو اختيار القاضي . وقيل ترى جزاء عملها من الثواب والعقاب . فأما أعمالهم فهي أعراض قد بطلت ولا يجوز

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٠ .

(٢) الصفحة ١٢٦ و١٢٧ من الأصل الفارسي لهذا الكتاب .

عليها الإعادة فيستحيل أن ترى محضرة^(١) .

من كلام الشيخ البهائي :

وينقل العلامة المجلسي (رضوان الله تعالى عليه) كلام العالم الجليل
المرحوم الشيخ البهائي (أعلى الله مقامه) فيما يتعلق بموضوع تجسد الأعمال
فيقول :

(قال الشيخ البهائي (قدس الله روحه) : تجسّم الأعمال في النشأة
الأخروية قد ورد في أحاديث متكررة عن طرق المخالف والمؤلف .

وبعدها ينقل حديثاً مطولاً رواه قيس بن عاصم عن النبي صلواته
والله وسلم حتى
يصل إلى قول النبي صلواته
والله وسلم لقيس :

النبي (ص) يعظ قيس بن عاصم :

«وإنه لا بدّ لك يا قيس من قرينٍ يُدْفَنُ مَعَكَ وهو حيٌّ وأنت ميّتٌ ، فإن
كان كريماً أكرمك ، وإن كان لئيماً أساءك ثم لا يُحشَرُ إلا معك ولا تحشَرُ إلا
معه ولا تُسألُ إلا عنه فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح أنستَ به وإن فسَدَ لا
تستوحشُ إلا منه وهو فعلك» .

ثم قال (الشيخ البهائي) : قال بعض أصحاب القلوب إن الحيات
والعقارب ، بل والنيران التي تظهر في القيامة هي بعينها الأعمال القبيحة
والأخلاق الذميمة والعقائد الباطلة التي ظهرت في هذه النشأة بهذه الصورة^(٢) .

وهنا يقول الشاعر ما معناه^(٣) : (إن أقوالك (في الدنيا) هي كالحيات
والعقارب التي تلتف حولك وتأخذ بتلابيبك يوم القيامة) .

(١) تفسير مجمع البيان : المجلد ١ ، ٢ ، صفحة ٤٣١ .

(٢) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة : ٢٥٧ .

(٣) الصفحة ١٢٩ من الأصل الفارسي لهذا الكتاب .

تجسد الحسنات والسيئات :

كذلك فإن رُوح الجنة وريحانها ونعيمها هي عبارة عن تلك الأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة الحسنة والإعتقادات الحقّة الصائبة التي نؤمن بها ، لأن الحقيقة الواحدة تتخذ أشكالاً عديدة في العوالم المختلفة ، وإنها في كل نشأة ترتدي تلك ثوب النشأة، وفي هذا المجال يقول الشاعر ما معناه^(١) : (إنّ كل عَرَض يظهر يوم المحشر على هيئة وشكل معين ، أي يتلبس بلباس نشأته ، وأن صورة كل عَرَض تعرض على صاحبها الواحدة تلو الأخرى ، وهذه العَرَضيات تتحول وتنقل إلى شكل آخر ، وإن حشر أي شيء فإن أو زائل (في الدنيا) هو بحد ذاته كون آخر ، ولو لم يحشر ويتحول العَرَض لكانت أعمال البشر كلها باطلة وأقوالهم تافهة ومجرد قشور . إلا أن هذا العالم هو دار امتحان واختبار ، أمّا العالم الآخر (عالم الآخرة) هو عالم يجازى فيه الإنسان على أعماله تلك ، ويحصل على نتيجة امتحان الدنيا) . وقد أكمل المرحوم الشيخ البهائي حديثه حول موضوع تجسد الأعمال ، وأنهى كلامه في هذا المجال بعد أن استشهد بآيات من القرآن وأحاديث وروايات منقولة عن الأئمة عليهم السلام .

وبعد أن نقل العلامة المجلسي كل ما قاله الشيخ البهائي في هذا المجال ، أعطى وجهة نظره حول هذا الموضوع بالقول :

أقول : القول باستحالة انقلاب الجواهر عرضاً والعرض جوهراً في تلك النشأة مع القول بإمكانها في النشأة الآخرة قريب من السفسطة . إنّ النشأة الآخرة ليست إلا مثل تلك النشأة وتخلل الموت والأحياء بينهما لا يصلح أن يصير منشأاً لمثال ذلك .

وفي نهاية كلامه يقول العلامة المجلسي : (وأما الآيات والأخبار فهي

(١) الصفحة ١٢٩ الأصل الفارسي لهذا الكتاب .

غير صريحة في ذلك ، إذ يمكن حملها على أنّ الله (تعالى) يخلق هذه بإزاء تلك أو هي جزاؤها^(١) .

المحدثين تأثروا بالفلاسفة :

إن معظم المفسرين والمحدثين وكبار العلماء بينهم المحدث الجليل العلامة المجلسي (رضوان الله (تعالى) عليه) قد تأثروا بنظريات الفلاسفة والمتكلمين حول موضوع الجوهر والعرض ، واعتبروا ذلك مسألة عقلية لا شك فيها ، واستناداً إلى ذلك اعتبروا تجسد الأعمال في الآخرة بأنه أمر غير ممكن ، حيث فسروا الآية الكريمة : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٢) ، حيث قال بعض هؤلاء المفسرين والمحدثين : بأن المقصود هو صحيفة الأعمال ، والبعض الآخر منهم قال : إن المقصود هو مشاهدة جزاء الأعمال .

وقال المرحوم المجلسي : يمكن تفسير الآيات والروايات بالقول : إن كل عمل يخلق مكانه شيء يشبهه يوم القيامة .

إذن ، وكما لاحظتم من خلال ما ذكرناه ، بأن العلامة المجلسي - واستناداً إلى نظرية الجوهر والعرض - رفض ما قاله الشيخ البهائي والذين يؤمنون بموضوع تجسد الأعمال الحسنة والسيئة في الآخرة ، وقال : إن الدنيا هي مثل الآخرة وتخلل الموت والإحياء بينهما (بين هاتين النشأتين) لا يمكن أن يكون منشأ لانقلاب العرضِ جوهرًا .

ومن الضروري قبل مناقشة نظرية الفلاسفة والمتكلمين حول موضوع الجوهر والعرض ودراستها من وجهة نظر العلم الحديث ، من الضروري أن تتوضح هذه النقطة وهي : هل حقاً أن النشأة الآخرة ليست إلا

(١) بحار الأنوار : المجلد ٣ ، صفحة ٢٥٧ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٠ .

مثل النشأة الدنيا؟ وهل أن الإختلاف بين الدنيا والآخرة ينحصر في أنه خلال هاتين النشأتين يتعرض البشر للموت والعودة إلى الحياة (الإحياء)؟ هل أن عالم الآخرة وعالم الدنيا متساويان ومتشابهان من وجهة نظر الكتاب والسنة؟ .

الإختلافات الموجودة بين الدنيا والآخرة :

إن القرآن الكريم والأحاديث الشريفة كلها تبين هذه الحقيقة بشكل جلي وواضح ، حقيقة أن هناك اختلافات أساسية وجذرية كثيرة بين النشأة الآخرة والقوانين والسنن التكوينية والأوضاع والظروف السائدة فيها - وفقاً لتقدير الله ومشيئته - ، وبين القوانين التكوينية الدنيوية والأوضاع والظروف السائدة في هذا العالم .

وقد أشرنا من قبل إلى بعض هذه الإختلافات ، وسنتطرق إلى قسم آخر منها فيما بعد .

وفيما يلي نشير بإيجاز إلى بعض تلك الإختلافات :

١ - في هذه النشأة (نشأة الدنيا) ، الإنسان يخرج من بطن أمه ليبدأ الحياة في الدنيا ، أمّا في تلك النشأة (النشأة الآخرة) فالإنسان يخرج من بطن الأرض ليبدأ الحياة الأخروية .

٢ - في هذه النشأة ، الإنسان يولد وينشأ بصورة تدريجية (على مراحل) خلال القرون والعصور ، أمّا في تلك النشأة فإن الناس يولدون مرة واحدة ، حيث يُبعث الخلق جميعاً من الأولين والآخرين دفعة واحدة .

٣ - في هذه النشأة يمر الإنسان بمرحلة الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة ، أمّا في النشأة الآخرة فالإنسان لا يمرّ لا بمرحلة الطفولة ولا

بمرحلة الشيخوخة .

الدنيا المؤقتة والآخرة الخالدة :

٤ - إن الحياة الدنيا هي مؤقتة ، فبعد انقضاء أيام العمر يحين موعد الموت ويُغلق ملف حياة الإنسان في الدنيا ، أما في الآخرة فليس هناك موت ، بل إن الحياة هناك خالدة ليس لها نهاية .

٥ - الأرض في النشأة الأولى عبارة عن جماد ، وهي لا تتحدث عما يرتكبه الناس فيها من أعمال ، أما في النشأة الآخرة فإن الأرض يطرأ عليها تغيير يجعلها تتحدث وبأمر من الله (سبحانه وتعالى) عن الأعمال المشروعة وغير المشروعة التي يقوم بها الناس فيها .

٦ - في هذه النشأة ، اللسان هو العضو الوحيد في جسم الإنسان الذي له القدرة على الكلام ، أما سائر أعضاء الجسم فلا قدرة لها على التكلم ، وفي عالم الآخرة - وكما ينص على ذلك القرآن الكريم - فإن الأيدي والأرجل (وجميع أعضاء الجسم وجوارحه حتى الجلد) تبدأ بالتكلم وتشهد على أعمال صاحبها .

يوم تنكشف الأسرار :

٧ - في دار الدنيا تبقى أسرار الناس مخفية ، حيث أن الناس لا يعرفون شيئاً عن نوايا وبواطن بعضهم البعض ، أما في عالم الآخرة فإن السرائر تنكشف وتزول الحجب عن ضمائر وبواطن الناس ، وتتضح أمام الملائكة في يوم القيامة أفكار ونوايا الأفراد جميعاً ، ويشاهد الناس يوم المحشر صحف أرواح العباد .

ولكن رغم هذه الاختلافات والاختلافات الأخرى من هذا القبيل ، هل يمكن القول بأن النشأة الأولى (الدنيا) والنشأة الآخرة (الآخرة) متشابهتان ، وأن تخلل الموت والإحياء بين الدنيا والآخرة هو وحده الذي يفصل بين هذين العالمين (الدنيا والآخرة) ؟ .

الحكيم الجليل صدر المتألهين الشيرازي يفسر موضوع تجسد الأعمال على أساس الطريقة التي يُحشر بها الناس يوم القيامة وفقاً لملكاتهم النفسانية وسجاياهم الخلقية الباطنية .

كلام لصدر المتألهين :

وعلى سبيل المثال يشير صدر المتألهين إلى حالة الهيجان والغضب عند الإنسان ويقول :

إن حالة الغضب الشديد عند الإنسان تزيد من سرعة دوران وحركة الدم في الجسم وتؤدي إلى توهج واحمرار الوجه وارتفاع درجة حرارة الجسم واحتراق المواد في داخل الجسم .

على أن الغضب هو من صفات النفس وموقعه في روح الفرد وملكوت الإنسان ، أما حركة الدم وارتفاع درجة الحرارة واحتراق المواد فهي من صفات الجسم . وعندما تنتج هذه الأعراض الجسمانية عن تلك الصفات النفسانية في هذا العالم فليس عجباً إذا قلنا بأن الغضب الشديد - هذه الصفة المدمومة وما يرافقها من جرائم وآثام كالضرب والشم والقتل - يتجسد في عالم الآخرة على شكل نار وجحيم يصيب أعماق صاحب هذه الصفة الذميمة (الغضب) ويحرقه . كما أن سائر الصفحات الذميمة والعادات الخلقية السيئة تتجسد في عالم الآخرة على غرار تجسد صفة الغضب .

والشاعر الإيراني «جلال الدين» يشير إلى هذه المسألة ضمن أبيات باللغة الفارسية يقول فيها ما معناه :

(يا من افترست يوسف ونهشت لحمه ومزقت جسمه ، سوف تستيقظ من نومك العميق هذا وأنت على هيئة ذئب . إن صفاتك وسجاياك أصبحت الواحدة تلو الأخرى كصفات وسجايا الذئاب التي تنهش وتفترس أعضاء جسديك من شدة الغضب) .

كذلك فإن الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة والمعتقدات الحقّة التي هي في مقابل الأخلاق السيئة والمعتقدات الباطلة ، تتجسّد بدورها يوم القيامة على شكل أنواع من نعم الجنة حيث يستلذ صاحب هذه الصفات والأخلاق الحميدة والحسنة بهذه النعم .

سؤال يطرح نفسه :

وبعد ذلك يُطرح السؤال التالي في مجال تجسّد الأخلاق السيئة ، وهذا السؤال هو أنه عندما تتمثل الملكات والصفات الذميمة في الآخرة على هيئة نار وحيوانات لاسعة ومفترسة فإن الألم والعذاب الناجم عن هذه النار وتلك الحيوانات المفترسة (والعقارب والحيات) كيف يصل إلى هذا الشخص السيء الخلق والصفات وبأية طريقة وما هو الشيء الذي يربط هؤلاء المذنبين بتلك النيران وتلك الحيوانات المؤذية ؟ .

الجواب على السؤال :

فيجيب بالقول : إنه في هذه الدنيا ، إذا أراد أحد أن ينتقم من عدّوه ويؤذيه ، فيجب أولاً وبالذات أن يؤذي نفسه ، وثانياً وبالعرض يؤذي عدوه لأن ممارسة قوة الغضب والانتقام تستلزم هيجانات داخلية وتصاعد لحالة الغيظ وإثارة الأعصاب و تسمم الدّم واختلال النظام الداخلي للجسم والشعور بالتعب والإرهاق وفقدان الراحة والهدوء . وهذا بحد ذاته عذاب عظيم وحذر كبير يبرز في أعماق الشخص الغاضب ويعذبه هو أولاً وبالذات . وبعد كل هذا العذاب والإرهاق إذا ظفر المنتقم بعدوه ومارس غضبه وحقق هدفه بالانتقام ، عندها يكون قد استطاع أن ينتقم ، هذا أولاً وبالذات وثانياً وبالعرض يجعل عدوّه يتعذّب ، أمّا إذا لم ينتصر على العدو لم يتمكن من الانتقام ، فإنه يكون قد أضر نفسه فقط ، وجعل نفسه وليس شخصاً آخر تواجه العذاب والبلاء .

أما في عالم الآخرة فإن الصفات الخلقية السيئة التي تتجسد على شكل نار وحيوانات مؤذية ، فإنها تعذب صاحبها فقط ، ولا تلحق الضرر بالآخرين وهو يقول في هذا المجال :

(فإذا تحقق بذلك وأتضح لديك كيفية تجسّم الأعمال علمت أنّ الأخلاق الذميمة إذا تمثّلت وتصوّرت بصورةٍ كريمةٍ مناسبة لها في الآخرة كالحيات والعقارب فإنما يجب أن يصل إيلامها وإيذاؤها بالإنسان الذي هو صاحب تلك الأخلاق دون غيره لا بالذات ولا بالعرض ، فإن العلاقة الوضعية التي بها يتحقق التأثير والتأثر من الماديات بالعرض في هذا العالم مرتفعة في عالم آخر : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [سورة المؤمنون ؛ الآية : ١٠١] . وكذا الأخلاق الحسنة إذا تمثّلت وتصوّرت أشخاصها كريمة بهية مناسبة لها فإنما تصل لذاتها ونعيمها بالإنسان الموصوف بها لا بغيره كما بيّنا^(١) .

تجسد الأخلاق :

يلاحظ بأن المرحوم صدر المتألهين لا ينفي موضوع تجسد الأعمال ، ولكنه طبّقها فقط في مجال الملكات الأخلاقية والمعتقدات والنوايا التي هي من شؤون النفس وأعمال الروح ، ولم يتطرق إلى ذنوب الأعضاء والجوارح والتي تدخل في مبحث الجوهر والعرض .

وبالطبع فإن تجسد النوايا والملكات (الصفات) الأخلاقية هو أحد فروع تجسد الأعمال ، وكما أشرنا في المحاضرة الثانية من هذا الكتاب فإن الناس يُحشرون يوم القيامة على نياتهم وملكاتهم (وصفاتهم وسجاياهم) الروحية ، وعلى هذا الأساس فإن الأشخاص ذوي الأخلاق الفاسدة يُحشرون على شكل حيوانات ترمز إلى تلك الأخلاق المذمومة السيئة .

(١) المبدأ والمعاد : صفحة ٣٤٤ .

أما موضوع تجسّد الأعمال السيئة والحسنة حسب ما يفهم من الآيات القرآنية والأحاديث والروايات ، له مفهوم أوسع ، وتشير هذه الآيات والأحاديث إلى أن كل إنسان مهما كانت الصورة أو الشكل الذي يُحشر به (يوم القيامة) ، فإنه يرى أعماله الصالحة والسيئة أمامه بطريقة تجهلها ، حتى أن بعض الأحاديث والروايات تقول بأن الإنسان يتبادل الحديث والكلام مع أعماله المتجسّدة والمتمثلة أمامه .

العلم الحديث وتجسّد الأعمال :

بعد التقدم والتطور الذي حصل في عصرنا الحاضر في مجال علم الفيزياء والعلوم الطبيعية بشكل عام ، فإنه لم تعد هناك حاجة لمبحث الجوهر والعرض في مجال الأعمال الصالحة والسيئة التي يقوم بها الناس ، والتي ينصب عليها موضوع التجسّد أو التمثل (يوم القيامة) ، إذ حلّت المادّة والطاقة محل مبحث الجوهر والعرض ، بحيث أصبح الآن بالإمكان دراسة موضوع تجسّد الأعمال من هذا المنطلق بالذات ، وبالتالي التخلّص من الشكل الوجودي التبعي غير الثابت للعرض والذي ورد في الكتب الفلسفية والكلامية ، أي بعبارة أخرى : أن علماء اليوم يعتبرون كلام الناس وأعمالهم عبارة عن سلسلة من الأمور الواقعية لها وجود أصيل ومستقل ، وبالتالي فإن مصاديق الجواهر^(١) والعرضيات التي هي نظرية الفلاسفة والمتكلمين يجب البحث عنها من خلال الكميات والكيفيات الإعتبارية^(٢) كوزن ومساحة الأشياء ، أو المساوىء والمحاسن الإنتزاعية ، وليس من خلال الأعمال الصالحة أو الشائنة القبيحة التي يقوم بها الناس .

وتوضيحاً لهذه النقطة نقول : إنه طبقاً لما يقوله الفلاسفة والمتكلمون ، فإن العبادات التي يمارسها الناس من قيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة القرآن

(١) جمع جَوهَر ، ماهية .

(٢) الإعتبارية أي المتداولة أو المتعارفة .

الكريم وغيرها من العبادات والأعمال التي فرضها الشرع الإسلامي على الأشخاص المكلفين ، وكذلك الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الناس كالغيبة وتلفيق التهم للآخرين والسب وإيجاد الفتنة بين الأشخاص والسرقة والغش وسائر الأعمال التي نهى عنها الشرع الإسلامي ، هذه كلها تعتبر من العَرَضِيَّات التي ليس لها وجود مستقل ، بل إن وجودها مرتبط بوجود الموضوع أي أعضاء وجوارح جسم الشخص المكلف .

إذن ، فالشيء الذي وجوده تابع لوجود الغير ومرتبطة به وبالتالي فإنه يزول ويفنى بزوال هذا الغير ، لا يمكنه أن يكون له وجود أصيل يوم القيامة ، وأن يتجسد بشكل موجود مستقل أمام صاحب العمل .

أما علماء الفيزياء في عصرنا الحاضر فإنهم - واستناداً إلى مشاهداتهم العلمية ، وكذلك استناداً إلى العلم التجريبي - يعتبرون العالم عبارة عن كتلة من المادّة والطاقة ، وهم يعتقدون بأن المادّة هي عبارة عن طاقة مضغوطة ، وهم يعتبرون أن للمادّة والطاقة وجود أصيل ومستقل (أي أنهما موجودان بذاتهما) ، وهم يقولون كذلك بإمكانية استحالة كل منهما إلى الآخر ، أي أن تتحول المادّة إلى طاقة وبالعكس ، أي تتحول الطاقة إلى مادّة في نظام الطبيعة .

العلاقة بين المادّة والطاقة :

«في عام ١٩٠٥ قدّم (اينشتاين) نظريته المعروفة بالنظرية النسبيّة حيث بيّن العلاقة بين المادّة والطاقة ، حيث كان الإعتقاد السائد حتى ذلك الوقت بأن المادّة والطاقة شيئان متميزان مختلفان ، وأثبت أينشتاين إمكانية استحالة المادّة إلى طاقة والطاقة إلى مادّة»^(١) .

(١) چه ميدانم ، (ماذا أعلم) زندگي ومرگ ستاركان : صفحة ٤٤ .

«وعندما تحدث الإستحالة ويقع هذا التبدل ، فمن الممكن أن تصبح المادة على شكل طاقة أو نور أو حرارة دون أن يتلف أو يستهلك شيء أو أن تتحول الطاقة الضوئية إلى مادة دون أن يستهلك أو يفنى شيء . إذن ، فقانون بقاء الطاقة يسمّى في الحقيقة بقانون بقاء المادة والطاقة ، وأن كلاً من الطاقة والمادة يمكن أن تتحول من شكل إلى آخر (أي أن تتحول الطاقة إلى مادة والمادة إلى طاقة)^(١) ، ولكن كمية الطاقة الإجمالية تبقى ثابتة لا تتغير»^(٢) .

كما ثبت من الناحية العلمية بأن أنواع الطاقة بأشكالها وصورها المختلفة كالطاقة الكهربائية والحرارية والإشعاعية والكيميائية والثقلية والذرية يمكن أن تتحول من صورة إلى أخرى أو من شكل إلى آخر ، وبالتالي تؤدي أعمالاً وأغراضاً عديدة .

والنقطة التي تسترعي الإنتباه في هذا المجال هي أن الطاقة مهما تحولت وتغيرت من شكل إلى آخر ومن صورة إلى أخرى هذه الطاقة تبقى موجودة وثابتة .

وعندما تتحول المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة ، وعندما يتغير شكل هذه الطاقة من شكل إلى آخر فإن الطاقة لا تزول ولا تفنى ، وليس هذا فحسب بل إن كمية هذه الطاقة لا تنقص وتبقى موجودة وثابتة في عالم الطبيعة .

قانون بقاء الطاقة :

«إن مفهوم بقاء الطاقة هو قاعدة أو قانون أساسي ينطبق على جميع الظواهر الطبيعية ويجعل موضوع بقاء الطاقة بالنسبة لهذه الظواهر الطبيعية أمراً لا بد منه ، أي أن الطاقة بمجموعها لا تتغير خلال

(١) المترجم .

(٢) R. Stollberg, F.F. Hill. physics. p. 127.

جميع التغيرات التي تطرأ في الطبيعة . على أن بقاء الطاقة لا يعبر عن أنواع التغيرات التي تحدث في الطبيعة بل إنه يعكس هذه الحقيقة وهي أن الكمية التي تسمى طاقة تبقى ثابتة بغض النظر عن الفترة التي تقاس فيها هذه الكمية من الطاقة وبغض النظر أيضاً عن التغيرات التي تحدث خلال فترات التقييم أو القياس المتتالية . إن الطاقة يمكن أن توجد بصور وأشكال مختلفة أو أن تتحول من شكل إلى آخر ضمن إطار قانون بقاء الطاقة . فالطاقة قد تكون طاقة ثقلية أو طاقة حركية أو طاقة حرارية أو طاقة ارتدادية أو طاقة كهربائية أو طاقة كيميائية أو طاقة شعاعية (الإشعاعية) أو طاقة نووية .

على أن الإستخدام العام والواسع لقانون بقاء الطاقة وكونه قانوناً متكاملًا في صورته المختلفة ، هو الذي جعل من هذا القانون قانوناً رائعاً ونافعاً^(١) . إن أنواع الطاقة يمكن أن تتغير وتتحوّل من شكل إلى آخر أو من صورة إلى أخرى بسهولة . فالطاقة الناتجة عن سقوط مياه الشلالات بإمكانها أن تحرك مراوح المولدات الكهربائية ، وهذه المولدات تحوّل الطاقة الحركية إلى طاقة كهربائية أو الكهرباء ، وإذا مرّ التيار الكهربائي عبر المصباح ينتج عن ذلك النور أو الضياء ، حيث تتحوّل الطاقة الكهربائية هنا إلى طاقة شعاعية أو إشعاعية . وإذا مرّت هذه الطاقة الكهربائية عبر المكواة (أو المدفأة أو السخان) فإنها تتحوّل إلى طاقة حرارية ، كما يمكن اختزان الكهرباء في بطارية السيارة والإستفادة منه (من الكهرباء) لتشغيل محرك السيارة أو إضاءة مصابيحها^(٢) .

(١) The New encyclopedia britannica macvikipedia vol. b 1974, p. 894.

(٢) كتاب المادّة والطاقة (مادة وانرژي) صفحة ٤٩ .

تحويل المادة الى طاقة :

إن خير مثال على إمكانية تحويل المادة إلى طاقة نووية هو الشمس (وهي مادة^(١)) وطاقتها الحرارية . ويقول العلماء بأن مائتين وخمسين مليون طن من المادة التي يتكون منها كوكب الشمس ، يتحول إلى طاقة في الدقيقة الواحدة ، حيث تنتشر هذه الطاقة في الفضاء السحيق ما عدا كمية قليلة منها تصل إلى كوكب الأرض ، وهي التي تعتبر منشأ الحياة ومصدر جميع النشاطات التي تقوم بها الكائنات الحية فوق سطحها .

كما أن جسم الإنسان الذي هو مصنع قائم بذاته تحدث فيه سلسلة من التفاعلات الطبيعية وبصورة مستمرة وفقاً لبرنامج الخلقة ، وتنتج عن هذه التفاعلات أنواع مختلفة من الطاقة الضرورية لاستمرار حياة الإنسان ، وعلى ضوء هذه الطاقة يقوم الجسم بأعماله الحياتية وسائر الأعمال الأخرى الإرادية (أي تلك التي يقوم بها الشخص بمحض إرادته كالمشي وتحريك اليدين وغيرها فهذه الأعمال خاضعة لإرادة الشخص)^(٢) ، واللاإرادية (أي التي لا تخضع لإرادة الشخص كعملية التنفس ونبض القلب ودورة الدم في الجسم وسائر الأعمال التي تقوم بها أعضاء الجسم الداخلية الأخرى مثل الرئتين والكليتين والكبد وغيرها فهذه الأعمال لا يستطيع الشخص التحكم بها)^(٣) .

إن الإنسان مخلوق ضعيف ويحتاج باستمرار إلى تعويض ما يفقده جسمه خلال عملية الإحترق الداخلي ، وبالتالي فإن جسم الإنسان خلال مسيرته الحياتية عليه أن يحصل على الغذاء والماء والهواء من بيئته التي تحيط به ، لكي يعوض تلك المواد التي فقدها خلال الدورة الحياتية ، ويستطيع - بالتالي - أن يُنتج طاقة جديدة بأنواعها المختلفة ، الأمر الذي يمكنه من

(١ و ٢ و ٣) المترجم .

مواصلة نشاطاته العديدة .

وبالطبع كلما ازداد نشاط الجسم من الناحية الكمية والنوعية كلما ازداد استهلاكه للطاقة . فالشخص الذي يجلس في فصل الشتاء في الهواء الطلق ويستنشق الهواء البارد فإنه يستهلك كمية من الطاقة الحرارية تكفي لتسخين الهواء البارد الذي يدخل إلى الرئتين ، حيث يخرج هذا الهواء ساخناً على شكل زفير . ولكن هذا الشخص إذا قام إلى جانب ذلك بحركات رياضية ، أو شارك في مباراة رياضية ، أو ألقى كلمة بصوت مرتفع ، أو إذا رفع جسماً ثقيلاً من على الأرض ، وصعد به على السلم ووضعته على سطح المنزل ، ففي جميع هذه الحالات يزداد استهلاك الجسم للطاقة بنفس نسبة زيادة الجهد الجسماني أو العضلي .

الفلاسفة والمتكلمون لم يتصوروا وجوداً أصيلاً ومستقلاً للأفعال والأعمال التي يقوم بها الإنسان ، بل كانوا يعتبرون هذه الأفعال عرضية وقابلة للإنذار والزوال ، ووجودها قائم ومستند إلى جوهر البدن . وقد لقي هذا الموضوع قبولاً واسعاً واعتبر صحيحاً من وجهة النظر العقلية والعلمية ، إلى درجة أن الكثير من المفسرين ورجال الحديث اعتبروا أن موضوع تجسد الأعمال يوم القيامة هو أمر غير ممكن ومستحيل ، وكانوا يقولون : إن تجسد العمل يتطلب ويستلزم تحوّل العرض إلى جوهر ، وهذا أمر غير ممكن ومستحيل من الناحية العقلية .

نظرة الفلاسفة وعلماء الفيزياء :

كما بيّنا من قبل ، فإن هؤلاء المفسرين ورجال الحديث فسروا الآيات القرآنية والأحاديث والروايات (التي تدور حول موضوع تجسد الأعمال يوم القيامة) على أساس احتمالات كانت تبدو مناسبة ومنطقية من وجهة نظرهم . أمّا اليوم فإن علماء الفيزياء يقولون بأن الأعمال التي يقوم بها الإنسان - سواء كانت إرادية أو غير إرادية - هي عبارة عن استهلاك كمية من الطاقة ، وعلى هذا

الأساس فإن الأعمال التي يقوم بها الناس بمحض إرادتهم واختيارهم ، حيث جاءت التعاليم والواجبات الدينية لتنظيم هذه الأعمال ووضعها في إطارها الصحيح (لكي تؤمن سعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة)^(١) ، نقول : إن هذه الأعمال هي عبارة عن قيام الشخص المكلف بتشغيل قسم من طاقته بصورة متعمدة وبمحض إرادته ووفقاً لرغبته للقيام بالعمل الذي يبتغيه ويريده ، سواء كان هذا العمل مشروعاً أو غير مشروع .

ونظراً لأن الطاقة هي كالمادة لها وجود حقيقي وخارجي ، ومع الأخذ بنظر الاعتبار حقيقة أن الطاقة باقية وثابتة باستمرار وهي لا تزول ولا تفتنى ، فإننا نستنتج هذه الحقيقة وهي أن جميع الأعمال التي يقوم بها الإنسان - سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة - هي أمور حقيقية لها أصلتها واستقلالها الذاتي ، وليست أموراً اعتبارية أو انتزاعية .

ولنتصور مثل هذه الأعمال على أنها أعراض (عَرَضِيَّات) مرتبطة وقائمة بوجود الجوهر ، إذن فإن موضوع تجسّد الأعمال الذي أشارت إليه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، ليس فقط يتحقق على أساس أصالة الطاقة واستقلالها الوجودي ، بل يجب اعتباره من أنباء الغيب والمعجز العلمية التي جاء بها الإسلام .

بقاء العمل أو بقاء الطاقة :

إن الأعمال التي تُنجز نتيجة استهلاك الطاقة وتواصل بقاءها حيث تتجسّد يوم القيامة أمام صاحبها ، لا تقتصر على الأعمال البدنية والجسدية الظاهرية التي نقوم بها ، بل إن الكلام الذي هو عمل يقوم به اللسان وكذلك نوايا الإنسان وما يضمّره في باطنه والأفكار التي تراوده ، وكذلك الإيمان والصفات والسجايا الخلقية التي هي من أعمال الروح ، هذه أيضاً تتجسّد يوم القيامة أمام صاحبها كأعمال البدنية الظاهرية ، حتى أنّ الأئمة الطاهرين عليهم السلام في الأحاديث

(١) المترجم .

والروايات المنقولة عنهم ، استخدموا كلمة (العمل) للتعبير عن كافة الأعمال التي يقوم بها الإنسان - سواء كانت باطنية أو ظاهرية (الأعمال البدنية) - بل أن الأئمة عليهم السلام اعتبروا الإيمان الذي هو عبارة عن مجموعة المعتقدات الباطنية والأعمال البدنية والإعترافات اللفظية الكلامية ، اعتبروه أيضاً كعمل .

وظائف القلب وجوارح البدن :

وكمصداق على كلامنا هذا ننقل فيما يلي مقاطع من حديث مفصل منقول عن الإمام الصادق عليه السلام :

(حدثنا أبو عمرو الزبيري عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : قلت له : أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : « ما لا يقبل الله شيئاً إلا به » . قلت وما هو ؟ قال : « الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو » . قلت ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل ؟ فقال : « الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل » . وقد فرض الله الإيمان على جميع جوارح ابن آدم وكلف كل واحد منها بوظيفتها .

فأما ما فرض على القلب من الإيمان بالإقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلوات الله عليه وآله والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب فذلك ما فرض الله على القلب من الإقرار والمعرفة وهو عمله . وفرض الله على اللسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقر به . قال الله تبارك وتعالى : ﴿وقولوا للناس حسناً﴾^(١) وقال : ﴿قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾^(٢) - فهذا ما فرض الله على اللسان وهو عمله^(٣) .

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٨٢ .

(٢) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٤٦ .

(٣) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ٣٣ .

وبعد أن بين الإمام الصادق عليه السلام عمل القلب وعمل اللسان تحدث بالتفصيل عن أعمال سائر أعضاء وجوارح البدن ، حيث بين عمل كل عضو من أعضاء الجسم مستشهداً بآيات من القرآن الكريم ، - حيث لا نرى ضرورة للإشارة إلى ذلك - .

ونستنتج من مجمل ما ذكرنا ما يلي :

(١) أن كلمة «العمل» وردت في الروايات بمعناها الواسع والشامل ، وهي تعني كافة أعمال الروح واللسان و(أعضاء) الجسم .

(٢) أن كافة الأعمال الباطنية والظاهرية للإنسان كالنية والتفكير والتحدث والإستماع وسائر الأعمال الأخرى التي يقوم بها أعضاء الجسم ، تتحقق نتيجة استهلاك كمية من الطاقة .

الوجود الأصيل للطاقة :

(٣) أن الطاقة ليست من الأمور الإعتبارية أو الإنتزاعية ، كما أنها ليست عَرَضاً قائماً بوجود جوهر ما ، بل أنها كالمادة لها وجود خارجي حقيقي أصيل وهي لا تتعرض للفناء والزوال .

(٤) استناداً لصريح الآيات القرآنية والأحاديث والروايات الشريفة ، فإن جميع أعمال البشر - سواء كانت روحية أو بدنية جسمانية - تتجسد في يوم القيامة بحيث أن كل إنسان يشاهد نواياه وأفكاره ومعتقداته الباطنية كما يشاهد كل ما نطق به وما سمعه ، وكل حركاته وسكناته ومجيئه وذهابه وسائر أعماله الأخرى ، يجدها متجسدة وماثلة أمامه .

وفي ختام بحثنا هذا نشير إلى بعض ما ورد من آيات وأحاديث حول تجسد الأعمال وذلك من أجل تنوير ذهن القارئ الكريم .

يقول (سبحانه وتعالى) : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ ﴿١﴾ .

كما يقول (جل شأنه) : ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٢﴾ .

عندما تنكشف الأعمال :

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ ﴿٤﴾ .

أي أن كل إنسان في يوم القيامة يرى أعماله الصالحة والسيئة التي قام بها في الدنيا ، والكافر عندما يرى أعماله (السيئة) ، فإنه يتأثر ويحزن بشدة إلى درجة أنه يتمنى لو كان تراباً ولا يواجه مثل هذا الموقف وهذا الوضع .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ﴿٥﴾ .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم

فقال : يا محمد عش ما شئت فإنك ميتٌ وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك ملاقيه) ﴿٦﴾ .

إن القرآن هو كلام الله الذي هو خالق عالم الوجود بأسره ، وهو العالم بكل شيء ولا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض . وقد أنزل (سبحانه وتعالى) القرآن الكريم لكي يهدي الناس ، ويؤمن السعادة للأجيال المتلاحقة حتى نهاية عمر الدنيا .

(١) سورة ال عمران ؛ الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الكهف ؛ الآية : ٤٩ .

(٣) سورة الزمر ؛ الآية : ٤٨ .

(٤) سورة النبأ ؛ الآية : ٤٠ .

(٥) سورة الزلزلة ؛ الآيات : ٦ - ٨ .

(٦) أصول الكافي : المجلد ٣ ، صفحة ٢٥٥ .

ونظراً لأن البشر يتطور باستمرار على الصعيد العلمي ويسير دائماً على طريق الكمال ، فمن المحتمل أن تكون بعض الحقائق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم مجهولة بالنسبة لجيل من الأجيال ، ولكن هذه الحقائق تصبح معلومة وواضحة بالنسبة للأجيال اللاحقة ، وذلك على ضوء ما تحققه تلك الأجيال اللاحقة من تقدم علمي . وقد وردت هذه النقطة في بعض الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام :

(فمن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام أنه سُئِلَ عن التوحيد فقال : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَقْوَامٌ مُتَعَمِّقُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، والآيات من سورة الحديد إلى قوله ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾»^(١) . وعليه ؛ يمكن القول بأن موضوع تجسّد الأعمال هو من هذا القبيل ، لأن الفلاسفة والمتكلمين وحتى جمع من المحدثين والمفسرين اعتبروا موضوع تجسّد الأعمال أمراً غير ممكن ومستحيل ، وذلك استناداً إلى مبحث الجوهر والعرض ، وهم بذلك كانوا يفسرون الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة (التي تنص على موضوع تجسّد الأعمال يوم القيامة) كانوا يفسرون هذه الآيات والأحاديث بصور مختلفة أمّا العلم الحديث فإنه يعتبر أقوال وأفعال ، بل وحتى النوايا الباطنية للأفراد التي تنتج على أثر استهلاك الطاقة ، يعتبرها أمراً واقعياً وأصيلاً .

وهنا يتطرق الشاعر إلى هذه الحقيقة من خلال أبيات شعرية باللغة الفارسية يقول فيها ما معناه : لقد ذكر القدماء بكل صراحة ووضوح بأن العمل هو نوع من العرض . ونظراً لأن العرض ليس قائماً بذاته فكيف يمكنه أن يكون مصدراً للحياة . ولكن العلم الحديث - ولا سيما علم الفيزياء - قد عثر

(١) تفسير الصافي ، صفحة : ٥٧٨ .

على حلّ لهذه القضية الغامضة فالعلم يقول بأن جميع أعمالنا هي عبارة عن أنواع من الطاقة انفصلت عن أجزاء الجسم . والمؤكد أن هذه الأعمال تتجسّد يوم القيامة وتصبح ظاهرة للعيان ، وبالتالي «تجدُّ كلُّ نفسٍ ما عمِلت» استناداً إلى هذا المنطق وهذا التحليل .

المحاضرة الخامسة عشرة :

القرآن وأسماء القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ العاجلةَ وَيَذَرُونَ وراءَهُم يَوماً ثَقِيلاً ﴾^(١) .

اليوم العصيب :

إن يوم القيامة الذي يُسمّى في القرآن الكريم باسم اليوم الموعود هو يوم صعب وعصيب جداً ، فالبلايا والمصائب العظيمة والمضنية التي تحل في ذلك اليوم شديدة إلى درجة يبدو تصورهما مستحيلاً وغير ممكن بالنسبة لنا .

وكما يتبيّن من خلال الآيات القرآنية والأحاديث والروايات المنقولة عن الأنبياء السابقين والأئمة عليهم السلام فإن الله (سبحانه وتعالى) يُعيد إلى الحياة في ذلك اليوم المشهود ، جميع أفراد البشر ، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين ، ذوي أخلاق حسنة أو سيئة ، صالحين أو غير صالحين ، عادلين أو ظالمين . هؤلاء الناس جميعاً من الذين جاؤوا إلى الدنيا على مرّ العصور والأزمان ، وأمضوا في الدنيا فترة من الزمن ثم ماتوا وغادروا هذه الدنيا ، ويدقق في جميع

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ٢٧ .

أعمالهم الصالحة منها والسيئة ، فيثب ويجزي الصالحين الأخيار ويعاقب السيئين الأشرار .

ولسوء الحظ فإن البشر قد غرّته وبهرته هذه الحياة الدنيوية القصيرة العابرة ، وشغل نفسه بالمغريات المادية والشهوات النفسية إلى درجة أنه أصبح غافلاً عن مستقبله المرعب الخطير ، ولم يعد يفكر في يوم القيامة العظيم ويقول القرآن الكريم في وصف هؤلاء :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (١) .

القرآن وأسماء القيامة :

إن يوم القيامة الثقيل الذي لا مثيل له ، له أبعاد عديدة ومختلفة ، حيث أن الأسماء المختلفة التي تطلق على يوم القيامة يمكنها - إلى حد ما - أن توضح جانباً من هذه الأبعاد .

فالله (سبحانه وتعالى) أطلق في القرآن الكريم أسماء عديدة على يوم القيامة وكل اسم من هذه الأسماء يعبر عن أحد خصائص هذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة .

على أن مفهوم بعض هذه التسميات واضح بالنسبة لعامة الناس ، « كيوم الدين » الذي يعني يوم الجزاء ، و « يوم الحساب » . ولكن هناك تسميات أخرى ليوم القيامة تحتاج إلى شرح وتعريف وبيان ، ولتوضيح هذه النقطة ، فإننا سوف نستعرض في هذه المحاضرة بعض تلك التسميات التي أطلقها القرآن الكريم على يوم القيامة :

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

و «اليوم الحق» هو اسم من أسماء يوم القيامة ورد في القرآن الكريم ، وكلمة «حق» لها معان كثيرة في اللغة العربية ، كما وردت هذه الكلمة في

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ٢٧ .

(٢) سورة النبأ ؛ الآية : ٣٩ .

القرآن الكريم بعدة معانٍ . وعندما تستخدم كلمة «حق» في موضوع المعاد ، فإنها في الغالب تعني مفهومين ، أحدهما : «الحق» بمعنى الأمر المطابق للواقع في مقابل ما هو خلاف للواقع ، أي الكذب والباطل . وهذين المفهومين هما أساس مبدأ المعاد ، أي أن المعاد طبقاً لما وعد به الله ووفقاً لإرادة الباريء (تعالى) المؤكدة وقضائه المحتوم هو أمر مؤكد ومحقق ولا مفر منه ، وأن الاعتقاد والإيمان بالمعاد إنما هو اعتقاد وإيمان بأمر حقٍّ وواقعيٍّ يؤكد الوقوع .

والمفهوم الآخر لكلمة «حق» فهو يعني العدل في مقابل ما هو خلاف للحق ، أي الظلم والجور .

وهذان المعنيان ينطبقان على الأحكام الإلهية يوم القيامة أي أن الحاكم ومالك يوم الجزاء (ويوم الدين) هو الله (سبحانه وتعالى) ، حيث أن الثواب والعقاب الذي يخصص للصالحين والفساقين في ذلك اليوم وبأمر من الله (تعالى) ، هذا الثواب والعقاب يعطى على أساس الحق والعدالة ، حيث لا وجود للظلم والجور في الأحكام الإلهية .

منطق الذين ينكرون المعاد :

ولتوضيح هذا الجانب لا بد لنا أن نستعرض باختصار كلا هذين المفهومين .

المفهوم الأول : لقد تحدث أنبياء الله عن المعاد على مرّ العصور والأزمان ، ودعوا الناس للإيمان بيوم الجزاء . ولكن معظم الناس في كل عصر وزمان كذبوا دعوة الأنبياء وكلامهم ورفضوا قبول دعوتهم ، واعتبروا المعاد أمراً مستحيلاً .

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى هذا الموضوع :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا أَنَّنَا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١)

(١) سورة النمل ؛ الآيتان : ٦٧ و ٦٨ .

كلام الأنبياء :

وفي مقابل كلام الكفار والمشركين الذين كانوا يكذبون بالمعاد ويعتبرونه أمراً مستحيلاً ، كان هناك كلام الأنبياء الذين كانوا يقولون بأن المعاد هو أمر حتمي ومؤكّد ووعد حقّ وقضاء محتمّ ، وكانوا يبلغون الناس بالمعاد بكلّ قوة وحزم :

﴿ وَيَسْتَنْبُوتُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾^(١) .

يوم حقّ ومؤكّد الوقوع :

المقصود بكلمة «حقّ» في الآية المذكورة هو إيهام الناس بأن المعاد أمر حقيقي وواقعي ، وأن الأنبياء لم يخطئوا ولم ينطقوا كذباً وباطلاً (العياذ بالله) عندما أبلغوا الناس بأمر المعاد .

وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم وردت فيها كلمة «حقّ» بنفس هذا المعنى والمفهوم :

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾^(٢) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾^(٣) .

مالك يوم الجزاء :

المفهوم الثاني : أن المالك والحاكم في يوم الجزاء هو البارئ (تعالى) . ففي ذلك يدقّ الله في حساب الناس ويحكم بينهم على أساس الحق والعدل ، حيث لا يلحق أدنى ظلم بأيّ أحد ، ولهذا السبب فإن يوم الجزاء يسمى يوم الحق .

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٣ .

(٣) سورة الأنعام ؛ الآية : ٣٠ .

الحكم المطلق لله :

﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾^(١) .

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٢) .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(٣) .

الظلم دليل على الضعف والعجز :

إن الوجود الإلهي المقدس لا يعرف الظلم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأن الظلم هو دليل العجز والضعف والله (جل وعلا) منزّه من العجز والضعف .

يخاطب الإمام علي بن الحسين السّجّاد عليه السلام الله فيقول : « وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ وَلَا فِي نِقْمَتِكَ عَجَلَةٌ وَإِنَّمَا يَعَجَلُ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا »^(٤) .

ويقول الله (سبحانه وتعالى) في آية أخرى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾^(٥) .

يوم انفصل الصالحون عن الفاسقين :

« يوم الفصل » هو أحد أسماء القيامة ، وهذه التسمية التي وردت في القرآن الكريم تعني انفصال الصالحين من الناس عن الفاسقين منهم يوم القيامة .

(١) سورة الفرقان ؛ الآية : ٢٦ .

(٢) سورة غافر ؛ الآية : ٢٠ .

(٣) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٩ .

(٤) الصحيفة السجّادية ، الدعاء الثامن والأربعون ، صفحة ٢٨٤ .

(٥) سورة النبأ ؛ الآية : ١٧ .

الإِنسان والحياة الفردية والإجتماعية :

وتوضيحاً لهذه النقطة نقول : إن حياة الإنسان في الدنيا هي من ناحية ذات طابع فردي ، ومن ناحية أخرى ذات طابع اجتماعي . فمن الناحية الفردية كل إنسان يتحمل بنفسه وذاته مسؤولية الحفاظ على حياته وسلامته وصحته ، وعلى سائر الأمور الأخرى التي تسبب له السعادة والهناء ، كما عليه أن يبذل ما في وسعه للوصول إلى مراحل السمو والكمال الإنساني ، وأن يتجنب كل ما يؤدي به إلى السقوط والانحطاط ، ومن الناحية الإجتماعية فإن كل فرد هو بمثابة عضو في جسد المجتمع ، وجزء لا يتجزأ من البيئة التي يعيش فيها .

ومما لا شك فيه أن كل ما يواجهه الأفراد من سعادة أو شقاء ونجاح أو فشل وعسر وضائقة أو يسر ورخاء وموفقية أو حرمان ، وبصورة عامة كل ما يناله الأفراد من تقدم ونجاح أو تخلف وفشل في مختلف شؤونهم المادية والمعنوية ، إنما يرتبط في جانب منه بأوضاع وظروف البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه . فإذا كان أفراد المجتمع في غالبيتهم أفراداً صالحين يعرفون واجباتهم ، ويراعون بصورة عملية حقوق بعضهم البعض ، ولا يتجاوزون حدود القوانين ونظم العدالة الإجتماعية ، وإذا انبرى أصحاب الخير في ذلك المجتمع لمساعدة الآخرين ، ومدّ يد العون لهم ، وتكاتفوا وتعاضدوا لحلّ مشاكل المعوزين والمحتاجين ، ومساعدة المتألمين والمرضى ، والفقراء والمساكين ، واليتامى والعاجزين - بإخلاص وعن طيب خاطر - عندها يمكن القول بأن مثل هذا المجتمع هو مجتمع سامٍ ومثالي ، حيث أن هذا المجتمع يسوده العدل والإنصاف ، كما تسوده المشاعر والأحاسيس الإنسانية ، فمن جهة يتمتع عموم الأفراد في هذا المجتمع بالعدل والقوانين العادلة ، ومن جهة أخرى يتمتع الأفراد الضعفاء فيه بالعطف والمشاعر الإنسانية .

المجتمع والبلاء الشامل :

أما إذا كان غالبية أفراد المجتمع من الذين يرتكبون الذنوب والمعاصي

الإجتماعية ، ولا يراعون مبادئ الحق والفضيلة ، ولا يتورعون عن الكذب والإفراء والغيبة ، وكشف أسرار الآخرين ، وإيجاد الفتنة ونشر الفساد وإهانة الآخرين ، وتوجيه الشتائم والسباب لهم . فإن التشاؤم وسوء الظن سرعان ما يسود في مثل هذا المجتمع ، وتزول الثقة من بين أفرادها ، وتصبح أعراض الناس وكرامتهم وسمعتهم مهددة ومعرضة للخطر .

وفي مثل هذه المجتمعات قد تتخذ الفئات الفاسدة وتستغل هذه الحالة المرضية التي يعاني منها المجتمع ، وحالة سوء الظن السائدة بين أفرادها ، فتقوم بممارسة عمليات التخريب والاعتداء ، فتتهب أموال وممتلكات الناس ، وتخّل بالأمن والاستقرار . في مثل هذا الوضع ، فإن الأقلية الصالحة والشريفة في المجتمع تحترق بنار تلك الفئات الفاسدة ، رغم أنها لم تناصر تلك الفئات الفاسدة ، ولم تقف إلى جانبها . ولهذا نجد أن هذه الأقلية الصالحة والمؤمنة في المجتمع تحترق بالنار التي أضرمت وينالها العذاب (الإلهي) الذي ينزل بذلك المجتمع ، وهذا من متطلبات الحياة الإجتماعية والتكاتف بين أفراد المجتمع ، حيث يقول القرآن الكريم .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (١)

فالحياة الإجتماعية هي ضرورة لا بدّ منها في حياة الإنسان ، والإنسان - لكي يصل إلى مرحلة الكمال التي تليق به ، وينال السمو والعلو المادي والمعنوي - لا بد أن يعيش بصورة اجتماعية ، ويجدّ ويسعى مع أبناء مجتمعه الذي يعيش فيه . على أن الناس في حياتهم الإنسانية لا يمكنهم أن يستغنوا عن بعضهم البعض ، فهم - ومن منطلق الجبر الطبيعي - مضطرون لتقسيم الأعمال فيما بينهم ، حيث تتولى كل مجموعة القيام بعمل معين لكي يتمكنوا من خلال نشاطهم الجماعي من تحريك عجلة الحياة ، وتأمين متطلباتهم الروحية والجسمية في آن معاً .

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٥ .

الإستغناء عن شرار الخلق :

(قال رجلٌ عند أبي جعفرٍ الباقر عليه السلام : اللهم أغننا عن جميع خلقك . فقال أبو جعفرٍ عليه السلام : « لا تُقل هكذا ولكن قل : اللهم أغننا عن شرارِ خلقك ، فإن المؤمن لا يستغني عن أخيه »)^(١) .

دخل في أحد الأيام على الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه ، فأخذ يتحدث للإمام عن أوضاعه الخاصة وبعدها قال :

(جُعِلت فِداك أدعُ الله لي أن يغنيني عن خلقه قال : «إن الله قَسَمَ رِزقاً من شاء على يَدَي من شاء ولكن سَلِ الله أن يُغنيكَ عن الحاجة التي تضطرُّكَ إلى لِثامِ خلقه»)^(٢) .

الإلتزام بالعدل تجاه الصديق والعدو :

ولكي يتمكن الناس من تأسيس مجتمع سليم ويمتعوا أنفسهم بفوائد الحياة الإجتماعية ، ويصونوا أنفسهم ويحفظوها من مزار مثل هذه الحياة الإجتماعية ، فما عليهم إلا أن يجتهدوا ويجهدوا لإحياء العدالة والإحسان فيما بينهم ، وتطبيقهما في كافة شؤون الحياة ، ولهذا السبب فإن الإسلام فرض على جميع المسلمين بأن ينتهجوا سبيل العدل والعدالة قولاً وعملاً في جميع الأحوال ومع جميع الناس ، وأمرهم بأن يطبقوا هذا المبدأ المقدس حتى مع أعدائهم ، حيث يقول (جل وعلا) في كتابه العزيز :

﴿ ولا يجرمَنَّكُم شَتَانُ قومٍ على ألاَّ تَعدِلُوا أَعَدِلُوا هو أقربُ للتقوى ﴾^(٣) .

ومن ناحية الحقوق الأخلاقية ، فإن الإسلام قد آخى بين المسلمين ،

(١) تحف العقول : صفحة ٢٩٣ .

(٢) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ٢٦٦ .

(٣) سورة المائدة ؛ الآية : ٨ .

وأكد بأنهم من حيث تكاتفهم وتضامنهم المعنوي مع بعضهم البعض بمثابة جسد الإنسان الحي إذا اشتكى وتآلم منه عضو تألمت سائر أعضائه الأخرى .

(عَنْ أَبِي بصيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول : «المؤمنُ أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكى شيئاً منه وجدَّ ألم ذلك في سائر جسده»^(١) .

ضرورة وجود إشراف عام :

ولكي يستتب العدل وترسخ في المجتمعات الإسلامية ولا يقوم البعض بانتهاك حرمة القوانين بدافع من الأنانية وهوى النفس ، فإن المشرع الإسلامي أوجب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنوع من الإشراف العام على حسن تطبيق القوانين الشرعية الإسلامية بحيث إذا أراد أحد من الناس أن يتجاوز حدود القوانين ويتجاهل وينتهك حدود الله ، فإن الجميع مكلفون بالوقوف بوجه هذا الفرد وبوجه هذا العمل اللا مشروع ، وإلا فإن المجتمع يصبح عرضة للانحيار والانحراف .

الوقوف بوجه العصاة والمذنبين :

وقد بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحقيقة بأسلوب تشبيهي واضح وممتع ، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم : «إن قوماً ركبوا سفينةً في البحر واقتسموا فصار كل واحدٍ منهم موضِعَهُ فنقرَّ رجلٌ موضِعَهُ بفأسٍ فقالوا ما تصنع ؟ قال هو مكاني أصنعُ به ما شئتُ فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن لم يأخذوا على يديه هلك وهلكوا»^(٢) .

إن الذين يشاهدون المعاصي والذنوب ترتكب في مجتمعاتهم ورغم ذلك

(١) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ١٦٦ .

(٢) مجموعة وارم : المجلد ٢ ، صفحة ٢٩٤ .

يقفون أمامها، وأمام مرتكبيها موقف المتفرج دون أن يصدر منهم أي احتجاج أو اعتراض على ذلك ، هؤلاء يستحقون العقاب نتيجة صمتهم هذا .

وإذا ما تعرض المجتمع للبلايا والمحن والمصائب بسبب ارتكاب الذنوب والمعاصي ، فإنهم لن يكونوا بمنأى عن تلك البلايا والمحن . ولو أن ركاب السفينة (في الحديث الشريف الذي ذكرناه آنفاً) لم يكثرثوا بما حاول ذلك الشخص الجاهل القيام به (عندما أراد أن يثقب السفينة) لكانت السفينة قد غرقت بجميع ركابها وليس فقط ذلك الشخص المذنب .

العذاب الذي يلحق بالأشرار والأحياء :

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «أوحى الله إلى شعيب النبي : إني مُعَذَّبٌ مِنْ قَوْمِكَ مِائَةَ أَلْفٍ ، أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ شَرَارِهِمْ ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ . فَقَالَ يَا رَبِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ فَمَا بِالْأَخْيَارِ ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : دَاهَنُوا أَهْلَ الْمَعَاصِي فَلَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي»^(١) .

ونستنتج مما ذكرنا أن الإنسان في هذه الدنيا تناله منافع وأضرار اجتماعية إلى جانب ما يحصل عليه من منافع وأضرار فردية ، وأن جانباً من هذه المنافع والأضرار أو الخيرات والشُرور إنما تصيبه في هذه الدنيا نتيجة ارتباطه بالمجتمع الذي يعيش فيه ، ولا علاقة لها بالجانب الفردي أو الشخصي للفرد .

أمّا في يوم القيامة فالوضع ليس كذلك ، وإن مثل هذه المنافع والأضرار لا تلحق بالناس في ذلك العالم ، لأن ذلك اليوم هو يوم ﴿يوم الفصل﴾ أي يوم ينفصل وينعزل فيه الصالحون عن الأشرار، والخيرون عن الفاسقين والمذنبون عن المتقين . وفي ذلك اليوم ينادى المذنبون :

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾^(٢) .

(١) مشكاة الأنوار : صفحة ٥١ .

(٢) سورة يس ؛ الآية : ٥٩ .

أيها المذنبون المجرمون لا تختلطوا بالصالحين والملتقين واخرجوا من صفوفهم .

وفي يوم القيامة يُكافأ ويثاب الصالحون كما يعاقب الأشرار وفقاً لأعمالهم وتصرفاتهم الفردية أو الشخصية ، ولا يعذب ويعاقب أحد نتيجة معاصٍ وذنوب ارتكبها غيره .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) .

النفع والضرر الفردي :

وخلاصة الكلام : أن النفع أو الضرر الذي يصيب البشر في هذا العالم هو على نوعين : فهناك نفع أو ضرر يصيب الفرد نتيجة عمله هو ، وهناك أيضاً نفع أو ضرر يصيب الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه ، ولكن في يوم القيامة الذي هو يوم الفصل ينفصل الناس عن بعضهم البعض ولا يعود هناك وجود للنفع أو الضرر الإجتماعي ، وكل إنسان يحاسب لوحده من قبل الله وينال وحده ثواب أو عقاب أعماله ، حيث يقول الله (سبحانه وتعالى) :

﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (٢) .

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (٣) .

«يوم تبلى السرائر» هو من الأسماء الأخرى ليوم القيامة والذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، أي تنكشف فيه الأسرار المخفية .

(والسرائر ما أسرّه من خير أو شر وما أضمّره من إيمان أو كفر . وروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : يبدي الله يوم القيامة كل شر ويكون زيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه) (٤) .

(١) سورة فاطر ؛ الآية : ١٨ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٩٥ .

(٣) سورة الطارق ؛ الآية : ٩ .

(٤) تفسير مجمع البيان : المجلد ١٠ ، صفحة ٤٧٢ .

ويقول الله في محكم كتابه :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١) .

عن عليّ عليه السلام قال : «هم أهل البدع والأهواء والآراء الباطلة من هذه الأمة» (٢) .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُم ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

الوجوه الناضرة :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٥) .

عن الرضا عليه السلام قال : «يعني مشرقة ثواب ربها» (٦) .

﴿ وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (٧) .

وهناك أفراد يدخلون ساحة القيامة ووجوههم مكتئبة عابسة ، وهم ينتظرون حدثاً مرهقاً وصعباً يقصم ظهورهم .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ (٨) .

كما تُشاهد في يوم القيامة وجوه نيرة مشرقة حيث أن هذه الوجوه تنتظر

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠٦ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ٩٨ .

(٣) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٠ .

(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠٧ .

(٥) سورة القيامة ؛ الآيتان : ٢٢ و ٢٣ .

(٦) تفسير الصافي : صفحة ٥٥١ .

(٧) سورة القيامة ؛ الآيتان : ٢٤ و ٢٥ .

(٨) سورة عبس ؛ الآيتان : ٣٨ و ٣٩ .

الفضل الإلهي وهي تضحك مستبشرة .

﴿ وجوه يومئذٍ عليها غبرة * ترهقها قتره * أولئك هم الكفرة
الفجرة ﴾ (١) .

كما نشاهد في يوم القيامة وجوه مغبرة قائمة وقد غطاها الظلام والسواد ،
حيث أن أصحاب هذه الوجوه هم من الذين قضوا أعمارهم في الدنيا بالكفر
وارتكاب المعاصي والذنوب .

ملامح المدنيين :

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (٢) .

﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم
بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز
العظيم ﴾ (٣) .

والخلاصة : أن أسرار الناس تنكشف يوم القيامة وتتضح الأمور المخفية
للعيان ، ويشاهد على وجوه المؤمنين الصالحين علامات الصلاح والإيمان ،
وعلى وجوه الفاسقين علامات السوء والفسق . وهذه من جملة الاختلافات
الواضحة بين الأحكام والقوانين التكوينية في الدنيا ، والأحكام والقوانين
التكوينية في الآخرة . فالنوايا الحسنة والنوايا السيئة للأفراد ، وكذلك الملكات
والصفات الحسنة أو السيئة تكون في الدنيا مخفية في نفوسهم وضمائرهم ،
بحيث لا يلاحظ أي فرق أو اختلاف ظاهري بين الأفراد الصالحين وغير
الصالحين الذين يعيشون في مجتمع واحد . فلا الأشخاص الصالحين تظهر على
وجوههم ملامح الصلاح ، ولا الأشخاص الفاسقين تبدو عليهم إمارات الفسق
والشر .

(١) سورة عبس ؛ الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

(٢) سورة الرحمن ؛ الآية : ٤١ .

(٣) سورة الحديد ؛ الآية : ١٢ .

أما في يوم القيامة ، فإن الأمور المخفية المضمرة تنكشف وتظهر للعيان ، ويُحشر الصالحون والأشرار بوجهين مختلفين متفاوتين ، فبمجرد أن ينظر الناس في يوم القيامة إلى وجوه بعضهم البعض فإنهم يعرفون ما بداخل بعضهم البعض ، ويطلعون على مدى نزاهة وطهارة ضمائر الآخرين ، أو خبثها وسوتها .

والقرآن الكريم أشار إلى هذا الموضوع ضمن آيات عديدة وبصيغ وتعابير مختلفة :

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾^(١) .

ولهذا السبب فإن الله (سبحانه وتعالى) أطلق على يوم القيامة تسمية «يوم تبلى السرائر» باعتبارها أحد أسماء القيامة ، حيث تظهر وتنكشف الأسرار في ذلك اليوم .

يوم الحسرة :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾^(٢) .

﴿يوم الحسرة﴾ هو اسم آخر للقيامة ورد في القرآن الكريم . أي يوم يتحسر الناس على الدنيا التي انقضت والفرصة التي ذهبت منهم .

كثير من البشر عندما يدخلون مسرح القيامة ، ويشاهدون الأوضاع المرعبة في الآخرة ، فإنهم يدركون حقيقة أن أعمارهم في الدنيا قد انقضت في غفلة وبطالة ، وأنهم لم يستفيدوا من أيام حياتهم ، وليس هذا فحسب ، بل أنهم استخدموا هذه الثروة القيمة الثمينة في مجالات باطلة ومضرة ، ولم يدخروا من الدنيا لآخرتهم سوى المعاصي والذنوب والسيئات والآثام . هؤلاء

(١) سورة العاديات ؛ الآيات : ٩ - ١١ .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٣٩ .

عندما يشاهدون وضعهم المأساوي البائس في ذلك اليوم العصيب ، يتأسفون ويتأثرون بشدة ، وهذا التأسف والتأثر يكون مؤلماً جداً ولا يمكن التعويض عنه .

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) .

مزرعة الآخرة :

ولكي تتوضح - إلى حدٍّ ما - الحالة النفسية للمذنبين وأصحاب المعاصي والذنوب ، ولسبب تحسّرهم يوم القيامة ، فلا بد أن نعطي توضيحاً مختصراً حول هذه النقطة : فالحديث الشريف يقول : «الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ» .

وعن عليّ عليه السلام قال : « والعَمَلُ الصَّالِحُ حَدُثُ الْآخِرَةِ »^(٢) .

فإذا كانت هناك مجموعة من المزارعين يعيشون معاً في قرية واحدة ، وهم على اتصال مع بعضهم البعض على مدى اليوم في الليل والنهار ، ويستفيدون بصورة متساوية من الأرض ومياه الري والبذور والأدوات الزراعية ، ولكن بعض هؤلاء المزارعين يستغلون هذه الفرصة وهذه الإمكانيات المتاحة لهم فيقومون في الوقت المناسب بحرث الأرض وزرع البذور ومراقبة أرضهم وزرعهم . أمّا البعض الآخر من المزارعين فيقضون أعمارهم ويمضون أوقاتهم هدرًا ، ولا يستفيدون من الماء والتربة ، ويفرطون بالفرص المثمرة النافعة المتاحة لهم .

والفرق بين هاتين المجموعتين من المزارعين يظهر عندما يحين موسم الحصاد ، فالذين بذلوا الجهود في الوقت المناسب وجمعوا محاصيلهم الآن ، فإنهم فرحون مسرورون ، فهم قد أمّنوا قوت عامهم ، وبالتالي فهم يقضون

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٤٠ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٣ .

أيامهم القادمة بسعادة ورفاهية ، ويواصلون حياتهم بكل عز واحترام .

العمر الضائع :

أما الذين لم يستفيدوا من الماء والتربة والأرض الزراعية ، وأمضوا عُمرهم الثمين هدراً ودون طائل ، فإنهم يندمون بشدة ، ويظهر الحزن والآسى على وجوههم تماماً ، حيث يواجهون الفقر المادي والخذلان ، ويعم اليأس وجودهم وكيانهم .

وهنا يقول الشاعر ما معناه : «إنّ الذي لم ينشر البذور في الأرض في فصل الشتاء فإنه لا أمل له في الحصول على دخل عندما يحين فصل الصيف» .

استغلال فرصة الحياة الدنيا :

على أن أوضاع الناس في يوم القيامة ، حيث يجني فيه كل إنسان ناتج عمره في الدنيا ، تسير على نفس هذا المنوال ، فالأفراد المؤمنون الصالحون مسرورين وفرحين لأنهم اغتتموا الفرصة في الدنيا ونشروا بذور السعادة من خلال أعمالهم الصالحة ، واليوم (يوم القيامة) فهم يحصدون ثمار ما زرعوه في الدنيا . أما الأشخاص غير المؤمنين الذين عاشوا في الدنيا في غفلة من أمرهم ، وأمضوا عُمرهم في ارتكاب المعاصي والذنوب وسوء الخلق ، ولم يدخروا ليومهم هذا (لآخرتهم) غير الشرّ والشقاء ، فهم في حالة حزن وتألم شديدين يتأسفون على ماضيهم المهذور الضائع .

﴿قد خسرَ الذين كذبوا بقاءِ الله حتّى إذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾^(١) .

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ٣١ .

النقطة الجديرة بالاهتمام :

النقطة الجديرة بالاهتمام في هذا المجال ، هي أنّ حالة التأسف والتأثر الشديدين التي تسيطر على الإنسان العاصي غير المؤمن يوم القيامة ، لا يمكن مقارنتها مع حالة الندم والتأثر التي تسيطر على المزارع الغافل الذي لم يستغل المياه والأرض المتاحة له ولم يستفد منهما . لأن هذا المزارع ونتيجة عدم شعوره بالمسؤولية قد حرم نفسه من دخل أو إيراد عام زراعي كامل ، ولم يتمكن من جني أي محصول زراعي ، ولكنه رغم ذلك فهو لا يزال يمتلك الماء والأرض وبإمكانه أن يستغل الفرص المتاحة له في العام التالي والأعوام القادمة . ويؤدّي واجبه بكل جد ونشاط ، وأن يستفيد من الأرض والماء كما يجب . أمّا الشخص الذي يموت ، فإنه ينفصل إلى الأبد عن الدنيا التي هي دار العمل ومزرعة الآخرة .

والحقيقة ، فإن الإنسان عندما يموت تنتهي فترة نشاطه (الديني) وتخرج مزرعة الآخرة (الدنيا) من يده .

ومن الواضح أن تحسّر وتألّم مثل هذا الإنسان في يوم القيامة هو أشد من تحسّر وتألّم ذلك المزارع الغافل في الدنيا .

وكما يبدو من خلال الأحاديث والروايات ، فإن حالة الندم والتأسف والتألّم يوم القيامة لا تقتصر على فئة معينة من الناس ، بل إن جميع الناس صالحين أو غير صالحين يواجهون هذه الحالة الروحية .

الندامة التي لا تنفع :

(عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « ما من مخلوق يوم القيامة إلا ويندم ولكن لا تنفعه الندامة فأما السعيد إذا رأى الجنة وما أعد الله فيها لأوليائه المتقين يندم حيث لا عمل له مثل عملهم وإن كان من الأشقياء إذا رأى النار

وزفيرها وما أعدَّ الله فيها من العذابِ الأليمِ صرَّخَ ونَدِمَ حيثُ لم يكنْ أقلعَ عن ذنوبِهِ ومعاصيهِ لِيَسْلَمَ ممَّا هو فيه»^(١) .

بغضِ النظر عن الحسرة التي يصاب بها الجميع يوم القيامة ، فإن بعض الأفراد يتحسرون لسبب معين بالذات ، وهذا ما جاء في بعض الآيات ، وكذلك الروايات (المنقولة عن الأئمة عليهم السلام) .

(عن الباقر عليه السلام قال : إنَّ أشدَّ النَّاسِ حَسْرَةً يومَ القيامة الَّذِينَ وصفوا العَدْلَ ثُمَّ خالفوه وهو قوله عزَّ وجلَّ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٢) .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) أنه قال : «هُوَ الرَّجُلُ يَكْتَسِبُ الْمَالَ وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ خَيْرًا فَيَرِيثُهُ مَنْ يَعْمَلُ فِيهِ عَمَلًا صَالِحًا فَيَرَى الْأَوَّلُ مَا كَسَبَهُ حَسْرَةً فِي مِيزَانٍ غَيْرِهِ»^(٤) .

وجدير بالذكر في هذا المجال ، أنه استناداً إلى الأحاديث والروايات التي ينقلها السنَّة والشيعَة ، فإن حالة الندم والتأسف والتأثر لدى الأفراد غير المؤمنين والمذنبين يوم القيامة تصل إلى ذروتها عندما ينادي المنادي بأن هؤلاء سيخلدون في العذاب ، حيث لم يعد هناك موت بالنسبة لهؤلاء ينهي حياتهم المؤلمة المفجعة .

أقصى درجات الندم :

(أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿أُنذِرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾

(١) لآلئ الأخبار : صفحة ٤٦٩ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ٤٦٨ . في تفسير سورة الزُّمَر الآية : ٥٦ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٦٧ .

(٤) تفسير مجمع البيان : المجلد ١ و ٢ ، صفحة ٢٥١ .

قال : يُصَوِّرُ اللَّهُ المَوْتَ فِي صُورَةٍ كَبَشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبِحُ فَيَسِّرُ أَهْلَ النَّارِ مِنَ المَوْتِ فِيمَا يَرْجُونَهُ فَتَأْخُذُهُمُ الحَسْرَةُ مِنْ أَجْلِ الخُلُودِ فِي النَّارِ (١) .

(عن الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : يَوْمَ الحَسْرَةِ يَوْمٌ يَأْتِي بِالمَوْتِ فَيُذْبِحُ) (٢) .

ويقول - عزَّ من قائل - : ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ (٣) .

يَوْمَ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ :

إنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ هُوَ يَوْمَ حَسْرَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِلبَعْضِ ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلبَعْضِ الآخِرِ يَوْمَ نَدَامَةٍ . وَكَمَا بَيْنَا مِنْ قَبْلِ ، فَإِنَّ الَّذِينَ يَتَحَسَّرُونَ هُمُ الَّذِينَ كَانَ بِإِمْكَانِهِمْ أَنْ يَشْغَلُوا عَقُولَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَفْكَرُوا وَيَتَمَعَّنُوا فِي أَقْوَالِ الأنْبِيَاءِ ، وَيَعْتَنِقُوا الدِّينَ الإِلَهِيَّ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ ، بَلْ قَضَوْا أَعْمَارَهُمْ وَحَيَاتِهِمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَفِي نَهَايَةِ الأَمْرِ مَاتُوا بِدُونِ إِيمَانٍ .

فَالقِيَامَةُ بِالنِّسْبَةِ لهؤلاءِ يَوْمَ حَسْرَةٍ وَأَسْفٍ ، حَيْثُ يَدْرِكُونَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ قِيَمَةَ أَعْمَارِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَيَأْسِفُونَ لذهابِ هَذِهِ الفُرْصَةِ القِيَمَةِ وَالثَّمِينَةِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَلَكِنَّ النَّدَمَ بِالنِّسْبَةِ لِأَفْرَادِ هَذِهِ المَجْمُوعَةِ أَشَدَّ وَطَأَةً وَأَلَمًا مِنْ التَّحَسُّرِ ، لِأَنَّ هَؤُلاءِ قَدْ اسْتَمَعُوا إِلَى أَقْوَالِ الأنْبِيَاءِ وَأَحَادِيثِهِمْ ، وَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِمْ وَقَبِلُوا بِهَا ، وَبِالتَّالِي فَهَمُ اعْتَنَقُوا دِينَ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهُمْ - وَنَتِيجَةً لِمَجَالَسَةِ وَمَعَاشِرَةِ الفَاسِقِينَ مِنَ النَّاسِ وَالإِسْتِمَاعِ إِلَى وَسَاوِسِهِمُ الشَّيْطَانِيَّةِ - انْحَرَفُوا عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ وَتَخَلَّوْا عَنْ دِينِ اللَّهِ ، وَأَلْقَوْا بِأَنْفُسِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى فِي أَحْضَانِ الشَّرْكِ وَالكُفْرِ .

وَفِي وَصْفِ هَؤُلاءِ يَقُولُ القُرْآنُ الكَرِيمُ :

(١) الدَّر المُنْتَوَر : المَجْلَد ٤ ، صَفْحَةٌ ٢٧٢ .

(٢) تَفْسِيرُ الصَّافِي : صَفْحَةٌ ٣٣٨ .

(٣) سُورَةُ الفِرْقَانِ ؛ الآيَةُ : ٢٧ .

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا *
يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾^(١) .

خطر جليس السوء :

الأفراد المؤمنون - ولا سيما جيل الشباب - يجب أن يكونوا على حذر ،
ويتجنبوا مجالسة الفسقة والضالين ، لكي لا يقعوا في فخ وساوسهم الشيطانية ،
وبالتالي لا يفقدوا ثروة الإيمان التي يتمتعون بها . فهؤلاء من ذوي الصفات
الشيطانية بإمكانهم وبسهولة خداع البسطاء من الشباب وتسميم أفكارهم
واستغلالهم لتحقيق أهدافهم ومآربهم الشيطانية الباطلة ، وذلك من خلال
كلامهم المخادع وكتاباتهم المضللة . فالشباب يتمتعون - من جهة - بفطرة
نظيفة ، ويتصورون بأن هؤلاء المضللين على حق وما يقولونه صحيحاً ، ومن
جهة أخرى فإن الشاب ليست عنده القدرة على تحليل القضايا والأمور الدينية ،
وبالتالي فهو لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل وبين الصحيح والخطأ ، ولهذا
السبب فهو ينخدع بسهولة وينحرف عن الصراط المستقيم بكل بساطة ،
وينحرف في تيار الذنوب والمعاصي ، حيث ينسى الله شيئاً فشيئاً ، الأمر الذي
يقوده في النهاية إلى السقوط والضياع .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٢) .

يوم الخسران :

فكما أن يوم القيامة هو بالنسبة للبعض من الناس يوم حَسْرَةٍ تأسف ،
وبالنسبة للبعض الآخر يوم ندامة . فهو بالنسبة لبعض الناس الذين اتبعوا سبيل
الباطل في الدنيا وأمضوا أعمارهم باللغو والعبث ، يوم خسران وضرر . فالذين

(١) سورة الفرقان ؛ الآيات : ٢٧ - ٢٩ .

(١) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٧ .

يمارسون لغو الحديث ويقومون بأعمال تافهة وعابثة وباطلة قد يكونون في باطنهم أفراداً مؤمنين وأعمالهم صحيحة - إلى حدٍ ما - ، ولكن من أجل أن يتظاهروا أمام الآخرين ويجلبوا أنظار الناس إليهم ، فإنهم يمارسون اللغو في حديثهم وهم لا يعلمون بأن من علامات المؤمن الإعراض عن اللغو في الحديث ، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك بشكل صريح حيث يقول :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾^(١) .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «هُوَ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ عَلَيْكَ بِالْبَاطِلِ أَوْ يَأْتِيكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ فَتُعْرِضَ عَنْهُ اللَّهُ»)^(٢) .

فاللغو: هو كل كلام باطل وكل عمل تافه وعبث لا يستحصل منه لا على عائد مادي ولا على نفع معنوي . إن الذين يؤمنون بالله ويذكرونه قياماً وقعوداً وفي جميع الأحوال ، هؤلاء يسعون دائماً لاستخدام قواهم وطاقاتهم في الأعمال وفي المجالات المشروعة التي ترضي الله (سبحانه وتعالى) ، كما أن هؤلاء ويدافع من إيمانهم بالله يراقبون كافة تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم ولا يحومون حول اللغو والعبث (من القول والفعل)^(٣) ولا يلوثون أنفسهم بأعمال الباطل . وعلى العكس من ذلك فإن الأفراد الذين ينسون الله ويغفلون عن المسؤولية التي تقع على عاتقهم تجاهه ، فإنهم يتعرضون للانحراف والسقوط الخلقي ويصبحون عرضة للإبتلاء باللغو في الكلام والعمل الباطل .

(عن علي عليه السلام قال : «كُلُّ قَوْلٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ فَهُوَ لَغْوٌ»)^(٤) .

ويروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : كان بالمدينة رجل بطل يضحك الناس منه ، فقال : قد أعيانني هذا الرجل أن أضحكه - يعني علي بن

(١) سورة المؤمنون ؛ الآية : ٣ .

(٢) مجمع البيان المجلد الرابع ص ٩٩ .

(٣) المترجم .

(٤) تفسير الصافي : صفحة ٣٦٨ .

الحسين عليه السلام - قال فمرّ علي عليه السلام وخلفه موليّان له فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبتة ثم مضى فلم يلتفت إليه علي عليه السلام فاتبعوه وأخذوا الرداء منه فجاءوا به فطرحوه عليه ، «فقال لهم : من هذا؟» فقالوا له : هذا رجُلٌ بَطالٌ يُضحكُ أهلَ المدينةِ فقال : «قولوا له إنَّ اللهَ يوماً يخسرُ فيه المبطلون»^(١) .

القيامة يوم المواجهة :

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾^(٢) ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ هو اسم آخر للقيامة ورد في القرآن الكريم ، ومعناه يوم المواجهة .

إنَّ جميع الأنبياء الذين بُعثوا على مرّ العصور والأزمان ، كُلفوا من قبل الباري (تعالى) بإطلاع الناس على حقيقة يوم القيامة ويُنذرونهم من ذلك اليوم ويحذرونهم منه .

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرشِ يُلْقِي الرُّوحَ من أَمْرِه على من يشاء من عباده لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾^(٣) .

ولكن ماذا يعني ﴿يوم التلاق﴾ أي يوم المواجهة ؟ هناك عدة احتمالات في هذا المجال .

الإحتمال الأول : هو أن الناس في يوم القيامة يشاهدون الملائكة وجهاً لوجه ، لأن هذه الملائكة التي تتولى تدبير وإدارة النظام الكوني لا يمكن رؤيتها من قبل الناس في دار الدنيا ، وهي لا تشاهد إلا في لحظة الموت . أمّا في مسرح القيامة ، فإن هذه المشاهدة وهذا التلاقي يأخذ طابعاً عاماً وعلنياً للغاية ، بحيث أن جميع الناس صالحين أو غير صالحين يشاهدون الملائكة عن قرب في يوم القيامة .

(١) الأمالي للشيخ الصدوق : المجلس ٣٩ ، صفحة ١٣٣ .

(٢ و ٣) سورة غافر ؛ الآية : ١٥ .

عندما يلتقي أهل السماء بأهل الأرض :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

«يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض»^(١) .

والإحتمال الثاني : هو أن يلتقي ويتواجه الظالم والمظلوم ، والمستضعف والمستكبر ، والمستغيب والمستغاب في يوم القيامة .

وبشكل عام يلتقي كل الذين اعتدوا بأي شكل من الأشكال على حقوق الآخرين بالذين انتهكت حقوقهم واعتدي عليها ، وفي ذلك اليوم يكون الحاكم والقاضي هو الله الذي يحكم بين الناس (بالقسط والعدل) ، وبدون أي ظلم (والعياذ بالله) .

﴿اليوم تُجزى كُلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ لا ظُلمَ اليومَ إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ﴾^(٢) .

إنَّ يومَ الظالم هو الدنيا المؤقتة الفانية ، ويوم المظلوم هو الآخرة الخالدة الباقية ، فالظالم في يومه (في الدنيا) يعتدي على المظلوم ويتهك حقوقه بدعم من العناصر الفاسدة والطاغية في المجتمع ، والمظلوم في يومه (في الآخرة) يقف أمام الظالم وجهاً لوجه ، ويستوفي حقوقه منه بدعم من الله القادر العادل .

القيامة يوم المظلوم :

وبالتأكيد فإن هذين اليومين ليسا متساويين حيث يقول الإمام علي عليه السلام : «يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ»^(٣) .

الإحتمال الثالث : هو أن الناس في ذلك اليوم يواجهون أعمالهم

(١) تفسير الصافي : صفحة ٤٧١ .

(٢) سورة غافر ؛ الآية : ١٧ .

(٣) نهج البلاغة ، الكلمة : ٢٤ .

المجسدة وكل ما قاموا به من أعمال في الدنيا يرونها متمثلة ومتجسدة أمامهم في يوم القيامة ، وقد تطرقنا إلى هذا الموضوع في المحاضرة السابقة تحت عنوان تجسد الأعمال وتمثل أقوال وأعمال البشر (يوم القيامة) .

حيث عززنا بحثنا حول هذا الموضوع بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، والروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾^(١) . ﴿يَوْمِ التَّغَابُنِ﴾ أي اليوم الذي يتضح فيه للناس مدى الغبن الذي لحق بهم خلال معاملاتهم الدنيوية . وهذه الآية تتضمن اسمين من أسماء القيامة هما ﴿يَوْمِ الْجَمْعِ﴾ و﴿يَوْمِ التَّغَابُنِ﴾ .

على أن مفهوم يوم الجمع الذي ورد ذكره في الآيات الكريمة والأحاديث والروايات واضح بالنسبة لأتباع الإسلام ولا يحتاج إلى شرح وتوضيح ، حيث أن المقصود بيوم الجمع : اليوم الذي يحيي الله فيه الخلائق من الأولين والآخرين دفعة واحدة ، ويجمع البشر جميعاً على أرض واحدة ، ولكن لكي يتضح معنى التغابن فلا بد لنا أن نعطي توضيحاً مختصراً حوله :

فالغبن في المعاملات الدنيوية التي يقوم بها الأفراد في مجالات البيع والشراء هو نوع من الغفلة حيث ينخدع الشخص في معاملة ينجزها ، والسبب في ذلك هو الخطأ الذي يقع فيه الشخص عند تقييمه للسلعة المعينة . وبعد إنجاز المعاملة يدرك المشتري أو البائع الخطأ الذي وقع فيه والغبن الذي لحق به .

والغبن في المعاملات المعنوية هو أيضاً نتيجة الغفلة عن التفكير وانخداع الشخص بأهواء النفس والشهوات ، والسبب في هذه الغفلة وهذا الإخداع هو التحكيم غير الصحيح والنظرة الخاطئة تجاه أنبياء الله ، والخطأ الذي يقع فيه الفرد في تقييمه للتعاليم والأحكام الدينية .

(١) سورة التغابن ؛ الآية : ٩ .

الخطأ في التقييم :

والنقطة الجديرة بالإهتمام في هذا المجال هي أنه فيما يتعلق بالمعاملات الدنيوية ، فإن الخطأ في التقييم يكون في الدنيا ، كما أن اكتشاف الخطأ يكون أيضاً في الدنيا . فالشخص المغبون يدرك خطأه في هذه الدنيا ويطلع على الغبن الذي لحق به ، أما في المعاملات المعنوية فالخطأ في التقييم يكون في الدنيا ، ولكن اكتشاف ذلك الخطأ يكون في ﴿يوم التغابن﴾ أي يوم القيامة . فعندما ينتهي أجل دار التكليف (دار الدنيا) ، فإنه من غير الممكن ردّ الغبن ، كما لا يمكن التعويض عن الضرر الناجم عن هذا الغبن .

(وسئل بعضهم عن يوم التغابن فقال : تبدو الأشياء لهم بخلاف مقاديرهم في الدنيا)^(١) .

فالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والروايات ، كثيراً ما تشبه الأعمال الصالحة أو السيئة التي يقوم بها الناس في حياتهم الدنيوية . بمعاملات البيع والشراء والصفقات الظاهرية الأخرى التي يقوم بها الناس في سوق الدنيا ، وذلك من الناحية المعنوية والروحانية ومن ناحية الثواب والعقاب الأخرى . ولهذا السبب فإن الحديث يدور أيضاً حول النفع والضرر والغابن والمغبون بالنسبة لتلك الأعمال .

التجارة الخاسرة :

والقرآن الكريم يعتبر يوم القيامة بأنه ﴿يوم التغابن﴾ بالنسبة للكثير من الناس ، أي اليوم الذي يطلع فيه الناس على الغبن الذي أصابهم ولحق بهم من جراء معاملاتهم التي قاموا بها في الدنيا ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾^(٢) .

(١) المفردات في غريب القرآن مادة (غبن) .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ٧٧ .

ويقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام :

«وَلَيْسَ الْمَتَجَرُّ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمناً وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضاً» (١) .

إنَّ الذين أخطأوا في تقييم عهد الله وتعاملوا به بثمان بخس ، والذين لم يعرفوا قيمتهم الحقيقية وتصوروا أن ثمن الإنسانية هو هذه الدنيا العابرة الفانية ، والذين يعرضون أنفسهم للبيع كسلعة رخيصة الثمن في سوق الدنيا وباعوا أنفسهم بثمان بخس ، فإنهم يطلعون يوم المحشر - الذي هو ﴿يوم التغابن﴾ - على الغبن الذي لحق بهم ، عندها يفهمون بأنهم في دار الدنيا لم يعرفوا القيمة الواقعية والحقيقية لأنفسهم ، ونتيجة لذلك فإنهم ارتكبوا خطأ فاحشاً في تقييم أنفسهم ، وبالتالي فإنهم أضاعوا ثروة العمر القيمة في ارتكاب المعاصي والذنوب .

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٢) .

إنَّ الدنيا دار تزاحم وتنازع ، حيث يبذل الأفراد جهودهم ومساعيهم في خضم الحياة لينالوا أهدافهم المشروعة ، ويصلوا إلى مركز مرموق يتمكنوا من خلاله من إزالة المشاكل والعقبات التي تعترض سبيلهم ، ويحققوا - بالتالي - الأهداف والآمال التي يصبون إليها .

أثر القوة المعنوية :

على أن القدرات التي تترتب عليها آثار في هذه الدنيا ، ذات أشكال عديدة ، منها : القدرة المعنوية . فالأشخاص الذين يتمتعون بنفوذ روحاني ويحظون بمحبة الناس ، ويحتلون مكانة في قلوبهم وفي أعماق وجودهم ، هؤلاء يمتلكون قوة هائلة بإمكانهم إذا اتخذوا قراراً حساماً للاستفادة من هذه القوة الجماهيرية التي يمتلكونها في حل الكثير من المشاكل ، والتغلب على

(١) نهج البلاغة ، الخطبة ٣٢ .

(٢) سورة الشعراء ؛ الآية : ٨٨ .

الكثير من العقبات الكأداء ، وتمهيد الطريق للوصول إلى أهدافهم ونواياهم .

والقدرة الأخرى التي تمدّ الأفراد بالقوة والطاقة ، وتمهد أمامهم سبيل النصر والنجاح هي : القدرة العلمية . فالمثقفون والذين تدرجوا في مراتب العلم ، يمكنهم أحياناً أن يستفيدوا من درجاتهم العلمية ، ويبادروا إلى حل مشاكلهم ، والوصول إلى أهدافهم المرجوة ، وذلك عن طريق أشخاص كفوئين مؤهلين يقدرّون مكانتهم العلميّة .

وأحياناً يبذل الأشخاص جهودهم من أجل الوصول إلى الإقتدار والقوة، لكي يتمكنوا عن طريق ذلك من نيل مناصب عسكرية أو مدنية في الدولة ، ويصبحوا على ضوئها من أرباب القوة والإقتدار ، فيقضون بواسطة هذه القوة التي يتمتعون بها على منافسيهم ، ويزيلون العقبات من أمامهم .

وهناك من ينالون القدرة والإقتدار عن طريق اكتساب الثروة والمال ، حيث يستخدمون أموالهم في الوقت المناسب لاكتساب الآخرين وإخضاعهم ، ويحققون من خلالهم أهدافهم التي يصبون إليها .

وهناك من يستفيدون من الدعم والمساندة التي يقدمها لهم إخوانهم وأبناؤهم وأقاربهم وأبناء قومهم وعشيرتهم ، فيتكلمون (ويعملون) من منطلق القوة والإقتدار ، ويحققوا عن هذا الطريق أهدافهم وأغراضهم ، معتمدين في ذلك على الإخوان والأبناء والأقارب .

وخلاصة القول : أن الناس في الدنيا يسعون للوصول إلى القوة والإقتدار ليتمكنوا من الدفاع عن حقوقهم عند الضرورة ، أو الإعتداء على حقوق الآخرين في بعض الأحيان . وفي يوم القيامة لا وجود لأي من هاتين الحالتين لأن الحكم في ذلك اليوم هو لله الواحد القهار ، حيث لا يحتاج الإنسان - وهو أمام الله - إلى القوة لاستيفاء حقوقه ، كما لا يستطيع أحد الإعتداء على حقوق الآخرين بالقوة .

إذن ، فإن القوى أو القدرات التي تُستخدم في الدنيا عن حق أو عن غير

حق (بصورة مشروعة أو غير مشروعة) ، لا تنفع الإنسان في الآخرة ، حيث يقول - عز من قائل - :

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١) .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : ﴿السَّلِيمُ﴾ : أي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ سِوَاهُ وَكُلُّ قَلْبٍ فِيهِ شِرْكٌ أَوْ شَكٌّ فَهُوَ سَاقِطٌ) ^(٢) .

(وعنه عليه السلام قال : «صَاحِبُ النِّيَّةِ الصَّادِقَةِ صَاحِبُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ») ^(٣) .

حكى أنس قال : كنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يطلع عليكم الآن من هذا الفج (٤) رجل من أهل الجنة»، قال فطلع رجل من الأنصار ينظف لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان من الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل وقال في اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت إن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله (تعالى) فلم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال : غير أنني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مرت الثلاث وكدت أن أحترق عمله قلت : يا عبدالله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عمك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك ، قال : ما هو إلا ما رأيت .

فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد

(١) سورة الشعراء ؛ الآيتان : ٨٨ و ٨٩ .

(٢) تفسير البرهان : المجلد ٣ ، صفحة : ١٨٤ .

(٣) تفسير الصافي : صفحة ٣٩٣ .

(٤) الفج : الطريق الواسع بين الجبلين .

من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خيرٍ أعطاه الله إياه ، قال عبدالله :
هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق^(١) .

إنَّ القلب السليم يفيد صاحبه وينفعه يوم القيامة ويوصله إلى الفوز
والفلاح ويجعله يتمتع بالسعادة الأبدية .

سلامة القلب بكافة أبعاده :

إنَّ قلب الإنسان له جوانب عديدة وأبعاد مختلفة ، والذي يريد أن يكون
له قلب سليم يجب أن يضمن سلامة قلبه من كافة الأبعاد والجوانب ، فمن
ناحية الإيمان عليه أن يتوجه فقط إلى الله الواحد الأحد ، وينزه نفسه ويبعدها
عن الشرك والنفاق بمختلف أنواعه .

ومن ناحية الأخلاق والملكات النفسانية ، يجب أن يتمتع بنوايا صادقة
وضمير نزيه ونظيف ، وعليه أن لا يلوث قلبه بالنوايا السيئة والأفكار الباطلة ،
حيث أن هاتين النقطتين تتجليان بوضوح من خلال الروايتين اللتين ذكرناهما من
قبل .

ومن ناحية المحبة يجب (على من يريد أن يكون له قلب سليم) أن يكون
محباً لله ولكل ما يُرضي الله ، وأن يتجنب محبة الأشخاص أو الأشياء التي
تتنافى وتتعارض مع سلامة القلب ، وتحول دون سعادة الإنسان .

(رُوي عن الصادق عليه السلام أنه قال : هو القلب الذي سَلِمَ من حُبِّ
الدُّنيا)^(٢) .

المقصود بحب الدنيا في هذا الحديث والأحاديث الأخرى المماثلة ،
ليس الحب العادي والطبيعي الذي يشعر به الإنسان تجاه الزوجة والأولاد وتجاه
متجره وبضاعته وبيته وأثاث بيته وسائر الأشياء الدنيوية الأخرى (التي يتعلق بها

(١) مجموعة ورام ، المجلد الأول ، صفحة : ١٢٦ .

(٢) تفسير مجمع البيان ، المجلد السابع ، صفحة ١٩٤ .

الإِنسان ويحبّها) (١)، لأن مثل هذا الحب موجود لدى الإنسان بالفطرة ، حيث أودعه الله (سبحانه وتعالى) في ذات كل إنسان من أجل إدارة نظام عالم الوجود على أن التعاليم والأحكام الإسلامية تحترم هذا الحب الفطري عند الإنسان إلى درجة أنه جاء في الحديث الشريف : «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» (٢) .

والمقصود بالدنيا (التي نهى الإسلام عن حبّها وذمّ التعلّق بها على لسان النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام هي تلك الدنيا التي تجعل الإنسان ينسى الله ويغفل عنه ، كما تجعل الناس يغفلون عن طاعة الله لكثرة ما فيها من مغريات وملذّات ، وهذه المغريات تمهد طريق المعاصي والذنوب أمام الناس ، وتؤدّي بهم إلى السقوط والانحطاط والضياع .

هذا النوع من الحب هو الذي لا يتفق مع سلامة القلب ، وهو الذي قال عنه الرسول ﷺ : «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» (٣) .

(١) المترجم .

(٢) سفينة البحار ، مادة شهد ، صفحة ٧٢٠ .

(٣) مجموعة ورام ، المجلد الأول ، صفحة ١٢٨ .

المحاضرة السادسة عشرة

القيامه ومواقف الحساب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ * بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾^(١) .

عالم النوم وعالم اليقظة :

عندما يغطُّ الإنسان في نوم عميق ، فإنه ينقطع عن عالم اليقظة واليقظين ، وينهمك في مشاهدة أحلامه ، وفجأة يسمع (هذا الشخص النائم) صوتاً مدوياً يملأ الفضاء من حوله ، ونتيجة لهذا الصوت القوي يهبّ من نومه مذعوراً ، وينتقل خلال لحظة من عالم إلى آخر ، ولكنه لا يعرف كيف حدث هذا الانتقال من عالم إلى آخر ، وما هو التفاعل الذي طرأ في وجوده مما تسبب في حصول هذا الأمر ؟ .

إنَّ الإنسان أو الحيوان عندما ينام بالقدر الكافي وتتأمن حاجته الطبيعية من النوم ، فإنه يستيقظ تلقائياً وبصورة طبيعية ، وبدون أدنى قلق أو اضطراب ، ويستأنف نشاطه اليومي بجدٍ ونشاط . أما عندما يهبّ الإنسان من نومه بصورة

(١) سورة الصافات ؛ الآيات : ٢٤ - ٢٦ .

مفاجئة إثر سماع صوت رهيب مفرع ، فإن الإستيقاظ في هذه الحالة يكون غير طبيعي ومؤلم ، ويرافقه توتر عصبي .

يقول الرسول الأكرم ﷺ : «ألا إنكم تموتون كما تنامون وتبعثون كما تستيقظون» .

إنَّ الناس عندما يبعثون يوم القيامة ، ويستيقظون من رقاد الموت يقولون : ﴿يا ويلنا من بَعَثْنَا مِنْ مَرَقِدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١) .

الإستيقاظ المُرْعَب :

ولكن هذا الإستيقاظ - وفقاً لما تنص عليه الآيات الكريمة والأحاديث والروايات الشريفة - ليس استيقاظاً طبيعياً يبعث على النشاط ، بل هو نوع من الإستيقاظ المرعب المخيف . وكما أشرنا إلى ذلك من قبل فإن الصوت الذي على إثره يُبعث الناس ويخرجون من قبورهم (يوم القيامة) ، هو عبارة عن النفخة التي يطلقها إسرائيل في الصور بأمر من الله (سبحانه وتعالى) . فهذه الصيحة المجهولة أرادها الله بمشيئته وإرادته أن تكون وسيلة بَنَاءة تحيي البشر وأيضاً تؤدي إلى بعثهم (يوم القيامة) . ونتيجة لتلك الصيحة الرهيبية فإن قيام الناس (وخروجهم من قبورهم) في ذلك اليوم ، يرافقه شعور شديد جداً بالخيبة والدهشة ، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة : ﴿القَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٢) . (القارعة اسم من أسماء يوم القيامة ، لأنها تفرع القلوب بالفزع)^(٣) .

أي القارعة هو اليوم الذي يكون فيه الناس كمجموعة من الفراشات التي تدرؤ أثناء الليل - وبدون هدف - حول الفانوس أو الشمعة ، فتقوم بحركات غير

(١) سورة يس ؛ الآية : ٥٢ .

(٢) سورة القارعة ؛ الآيات : ١ - ٤ .

(٣) تفسير مجمع البيان : المجلد العاشر ، صفحة ٥٣٢ .

متزنة وغير هادفة ، حيث تصطدم ببعضها البعض ، وتسقط في نهاية المطاف في النار مجموعات مجموعات .

وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ * خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾^(١) .

(عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام قَالَ :

«أَشَدُّ سَاعَاتِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ : السَّاعَةُ الَّتِي يُعَايَنُ فِيهَا مَلَكُ الْمَوْتِ وَالسَّاعَةُ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا مِنْ قَبْرِهِ وَالسَّاعَةُ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَإِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»^(٢) .

إن الكافرين والظالمين يعيشون يوم البعث أصعب الظروف وأقساها ، حيث يحيط الإضطراب والقلق والخوف بكل وجودهم ومن جهاتٍ عديدة ، والسبب الأول لهذا القلق والإضطراب وهذا الشعور بخيبة الأمل هو الملف الأسود لحياتهم الدنيوية ، والخوف من العقاب الذي ينتظرهم نتيجة أعمالهم في الدنيا .

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾^(٣) .

والسبب الآخر الذي يجعل هؤلاء الكفار والظالمين يعيشون حالة من القلق والخوف ، هو أنهم يرون بأن علاقات القربى والصدقة والثروة والجاه وكل الوسائل التي كانوا يملكونها في الدنيا وكانوا يستخدمونها بشكل أو بآخر لتحقيق أهدافهم وأغراضهم قد انتهى مفعولها ولم تعد تنفعهم ، ولم يعد لها أي أثر وأية قيمة في يوم القيامة .

(١) سورة القمر ؛ الآيات : ٦ - ٨ .

(٢) الخصال للشيخ الصدوق ، صفحة ١١٩ .

(٣) سورة الشورى ؛ الآية : ٢١ .

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(١) .

الصحيفة السوداء :

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾^(٢) .

العامل الثالث الذي يسبب القلق والاضطراب لدى المشركين والكفار والمذنبين ، هو أن الحاكم المطلق في يوم القيامة هو الذات الإلهية المقدسة (أي الله سبحانه وتعالى) ، حيث لا مجال للمداهنة والتأمر والتحزب وإخفاء الحقائق ومحوها ، ولا يستطيع أي إنسان عن طريق الخداع والاحتيال أن يخلص نفسه من عقاب سيئات أعماله ، وبالتالي عليه أن يخضع ويستسلم بذلّ وهوان للعقاب الذي ينزل به نتيجة الذنوب التي ارتكبتها .

العقاب المشين :

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾^(٣) فكما أن الأشخاص البالغين والعاقلين في أي بلد يتحملون مسؤولية أعمالهم أمام محاكم البلد الذي يعيشون فيه ، حيث تنفذ بحقهم العقوبة تبعاً لطبيعة الجرائم والمخالفات القانونية التي يقترفونها ، كذلك هو الحال من الناحية الدينية والمعنوية ، فإن جميع أفراد البشر في هذه الدنيا مسؤولون عن أعمالهم أمام الله ، حيث يوقفون يوم القيامة (للحساب) في مواقف عديدة بأمر من الله ، حيث تُدرس ملفاتهم وصحائف أعمالهم في كل موقف من تلك المواقف ، ويحاسبون على أساسها فينالون الثواب أو العقاب - وفقاً لطبيعة الأعمال التي ارتكبوها - حيث يقول القرآن الكريم :

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٦٦

(٢) سورة الحاقة ؛ الآيات : ٢٥ - ٢٩ .

(٣) سورة يونس ؛ الآية : ٢٧ .

﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١) .

(ويقول الإمام الصادق عليه السلام : «فحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا عَلَيْهَا فَإِنَّ لِلْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفًا كُلُّ مَوْقِفٍ مِقْدَارُ أَلْفِ سَنَةٍ» ثم تلا : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ - سورة المعارج ؛ الآية : ٤ -)^(٢) .

ونظراً لأن العدل والظلم والحق والباطل والعمل المشروع وغير المشروع موجود في جميع الشؤون الإعتقادية والأخلاقية والعملية ، وأن الناس مكلفين من الناحية الدينية بأداء واجبهم من كافة الشؤون المذكورة ، إذن لا بد والحالة هذه أن تكون هناك مواقف متعددة للحساب والتدقيق (في أعمال البشر) يوم القيامة ، وذلك لكي تتم محاسبة كل شأن في موقفه الخاص به . وفي الحديث المذكور يقول الإمام الصادق عليه السلام «إِنَّ لِلْقِيَامَةِ خَمْسِينَ مَوْقِفًا» .

ولكي يتضح - إلى حد ما - موضوع الحساب يوم القيامة ، وبالتالي يتمكن القارئ الكريم من فهم هذا الموضوع بصورة أفضل ، فمن الضروري أن نعطي توضيحاً مختصراً حول الاختلاف بين أنواع الذنوب من وجهة نظر الشرع الإسلامي المقدس ، وأيضاً حول مراتب ودرجات المسؤولية التي يتحملها الناس إزاء تلك الذنوب ، مستندين في ذلك إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث والروايات ، حيث نأمل أن يكون ذلك مفيداً ونافعاً للقارئ الكريم .

أنواع الظلم الثلاثة :

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ : ظَلَمْتُ يَغْفِرُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَظَلَمْتُ لَا يَغْفِرُهُ وَظَلَمْتُ لَا يَدْعُهُ . فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ فَالشَّرْكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ اللَّهُ فَظَلَمْتُ الرَّجُلَ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَدْعُهُ فَالْمَدَائِنَةُ بَيْنَ الْعِبَادِ»^(٣) .

(١) سورة الصافات ؛ الآية : ٢٤ .

(٢) علم اليقين : صفحة ٩١٢ .

(٣) الخصال للشيخ الصدوق .

إنَّ الشرك بالله في الدين الإسلامي يعتبر ظلمٌ عظيمٌ وذنوبٌ كبيرٌ جداً ،
وهناك آيات وأحاديث كثيرة في هذا المجال ، بينها تلك العبادة التي يخاطب
بها لقمان الحكيم ابنه والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ
لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) .

الشرك ذنب لا يغفر :

ويقول عزّ من قائل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) .

الشرك هو من أكبر الذنوب في الإسلام ، فالمشرك في الواقع هو الذي
يقمع عقله بهذا العمل ، ويسحق فكره ويتخذ بعض المخلوقات الإلهية كالقمر
أو الشمس أو الأفعى أو البقرة أو أشياء أخرى (مصنوعة من قبل البشر) معبوداً له
من دون الله ، حيث يتعبّد لهذه الأشياء ويتقبل عبوديته لها ، موجّهاً بذلك هذه
الإهانة الكبرى للذات الإلهية المقدسة ، ولعقله الشريف القيم . فمثل هذا
الذنب لا يغفر عند الله ، ويحقيق العذاب الإلهي بصاحب هذا الذنب .
وهناك أبيات شعرية بالفارسية في هذا السياق يقول فيها الشاعر ما معناه :

(إنَّ الله يغفر ذنب أي شخص إذا كان المذنب يستحق المغفرة ، ولكنه لا
يغفر ذنب الإنسان المشرك . فالذي يتخذ لله شريكاً إنما يرتكب ذنباً عظيماً . إنَّ
الشرك عند العرفاء ليس مجرد ذنب ، بل هو سوء ذات وسوء خلق . وعلى هذا
الأساس فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ولكن المشرك لا يُغفر له على كلامه ،
فالشرك هو إنكار لوجود الله ، وهو وجود يجب الإعتقاد والإيمان به ، وبالتالي
فالمشرك لا يستحق الرحمة والمغفرة) .

والنقطة الجديرة بالاهتمام من الناحية الدنية هي أنَّ المشرك لا يحاسب
على سائر أعماله الأخرى ، لأنَّ هذا الذنب لوحده (ذنب الشرك الذي لا يغفر)
يكفي لجعل صاحبه يخلد في العذاب ، وهذا الأمر يتّضح من خلال الروايات

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ١٣ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ٤٨ .

المنقولة عن الأئمة عليهم السلام .

كلام للإمام السَّجَّاد (ع) عن المشركين :

(عن عليّ بن الحسين السَّجَّاد عليه السلام قال :

«اعلموا عبادَ الله أنَّ أهلَ الشُّركِ لا تُنصَبُ لَهُمُ الموازين ولا تُنشرُ لَهُمُ
الدَّواوين وإنما تُنشرُ الدَّواوينُ لأهلِ الإسلامِ»^(١) .

أما الظلم الذي يغفره الله فهو ظلم الإنسان لنفسه ، أي الظلم الذي يرتكبه الإنسان بينه وبين ربّه دون أن يعتدي على حق أحدٍ من الناس . فصاحب الحق في هذا الظلم الواقع هو الله . فالذين يظلمون أنفسهم يستحقون العذاب الإلهي لأنهم تمردوا على أوامر الله ، ولكن إذا أراد الله أن يشملهم بعفوه ورحمته فإنه يغفر ذنوبهم وينجيهم من العذاب .

(عن أبي بصير قال : سمعت أبا جعفر الباقر (ع) يقول : «إذا دَخَلَ أَهْلُ
الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ بِأَعْمَالِهِمْ فَأَيْنَ عِتْقَاءُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ إِنَّ اللَّهَ عُتِقَاءُ مِنَ النَّارِ»^(٢) .

أما الظلم الذي لا يُدَع ويحاسب عليه ويُسأل عنه بدقة (يوم القيامة) فهو الظلم الذي يترتب على الديون المالية بين الناس وحقوق الناس تجاه بعضهم البعض ، سواء كانت هذه الحقوق قد ترتبت بالطرق المشروعة كالقرض والمعاملات بالأجل وغيرها ، أو بالطرق غير المشروعة كالسرقة والغش وغيرها . على أية حال ، فإن الله لا يتنازل عن حقوق الناس . وعليه يجب إرضاء أصحاب الحقوق وتصفية وتسوية الحسابات المالية معهم .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «كُلُّ ذَنْبٍ يُكْفَرُهُ الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ إِلَّا الدِّينَ فَإِنَّهُ لَا كَفَّارَةَ لَهُ إِلَّا أَدَاؤُهُ أَوْ يَقْضَى صَاحِبُهُ أَوْ يَعْفُو الَّذِي لَهُ
الْحَقُّ»^(٣) .

(١) الأمالي للشيخ الصدوق ، المجلس السادس والسبعون ، صفحة ٣٠٣ .

(٢) أمالي الشيخ الطوسي : المجلد الأول ، صفحة ١٨٢ .

(٣) وسائل الشيعة ، كتاب التجارة ، باب وجوب قضاء الدين ، صفحة ١٠٩ .

الشهيد والدين المالي :

(عن عليّ عليه السلام قال : «لقد صلّى رسول الله بأصحابه ذات يومٍ فقال ما ههنا من بني النجارِ أحدٌ وصاحبُهُم مُحْتَبَسٌ عليّ بابِ الجنّةِ بثلاثةِ دراهمٍ لفلانٍ اليهوديِّ وكان شهيداً»^(١) .

(عن معاوية بن وهب قال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : بلغنا أنّ رجلاً من الأنصار مات وعليه دينٌ فلم يُصلَّ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال : لا تُصلّوا عليّ صاحبكم حتى يُقضى عنه الدين ، فقال عليه السلام : «ذلك حقٌّ» ثم قال عليه السلام : إنّما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ليتعاطوا الحقَّ ويؤدّي بعضهم إلى بعضٍ ولئلا يستخفوا بالدين»^(٢) .

الإمام والدين الذي بذمه المتوفى :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أيما مؤمناً أو مسلماً مات وترك ديناً لم يكن في فسادٍ ولا إسرافٍ فعلى الإمام أن يقضيه»^(٣) .

يستفاد من هذه الروايات وروايات أخرى مماثلة ويفهم منها جيداً بأن يولي كل الإهتمام بالحقوق المالية للناس ، إلى درجة أنه إذا مات مدين مسلم فقير الحال ولم يبادر ذوو الميت وأقاربه إلى مساعدته وتسديد الدين الذي بذمته ، فإنه يجب على الإمام أن يسدد ديون هذا المتوفى من بيت المال شريطة أن لا يكون منشأ هذا الدين الذي بذمه المتوفى الإسراف أو الفساد أو الأعمال غير المشروعة .

وكما أشرنا من قبل فإن في يوم القيامة مواقف عديدة ، والمسؤوليات التي تقع على عاتق الناس في مختلف الشؤون الاعتقادية والأخلاقية والعبادية

(١) الإحتجاج للطبرسي : المجلد الأول ، صفحة ٣٣٣ .

(٢) سفينة البحار مادة : دين صفحة : ٤٧٧ .

(٣) أصول الكافي : المجلد الأول ، صفحة ٤٠٧ .

والعملية ، مسؤوليات كثيرة كل واحدة منها يحاسب عليها الإنسان ويسأل عنها في الموقف الخاص بها .

السؤال عن العمر والشباب :

ولتوضيح هذه النقطة من المناسب أن نشير هنا - واستناداً إلى عددٍ من الروايات - إلى بعض مواقف القيامة والأمر التي يُسأل عنها الإنسان ويحاسب عليها في ذلك اليوم .

(عن النبي ﷺ قال : « لا تزولُ قَدَمًا عَبدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسألَ عن أربعٍ : عن عُمرِهِ فيما أفنَاهُ وعن شِبابِهِ فيما أبْلَاهُ وعن مالِهِ من أين اكتسَبَهُ وفيما أنفقَهُ وعن حُبِّنا أهلَ البيتِ »)^(١) .

السؤالان الأول والثاني يرتبطان بأيام العمر وفترة شباب الإنسان ، رغم أن مرحلة الشباب هي جزء من العمر . وعندما يسأل الإنسان عن أيام العمر يكون قد سُئِلَ أيضاً عن فترة شبابه .

ولكن كون الرسول ﷺ يشير بشكل خاص إلى فترة الشباب إلى جانب إشارته إلى أيام العمر ، فيفهم من ذلك أن مرحلة الشباب تحظى بأهمية خاصة خلال فترة العمر ، وأن مرحلة الشباب هذه الجوهرة الثمينة هي من الأهمية ، بحيث أن الإنسان يُسأل عنها (يوم القيامة) بشكل مستقل وهي حقاً جديرة بذلك ، لأنَّ مرحلة الشباب هي بداية الدخول إلى الحياة الإجتماعية . فالفرد يبني نفسه خلال سني الشباب ، ويختار الطريق الذي يجب أن يسلكه طوال حياته ويكون وبني شخصيته وفقاً للطريق الذي اختاره . ولهذا السبب فإن جيل الشباب عليه أن يستفيد - إلى أقصى الحدود - من مرحلة الشباب ويستغل هذه المرحلة المصيرية ما أمكنه ذلك من أجل الوصول إلى مرحلة التكامل والسمو النفسي والمعنوي . وعلى الشباب في هذه الدنيا أن يحاسبوا أنفسهم على فترة

(١) الخصال للشيخ الصدوق : صفحة ٢٥٣ .

شبابهم قبل أن تحاسبهم الملائكة عليها يوم القيامة .

السؤال عن الأمور المالية :

السؤال الثالث الذي يواجهه الإنسان يوم القيامة يتعلق بالأمور المالية ، حيث يُسأل الإنسان يوم القيامة عن كيفية وطريقة حصوله على المال واكتسابه في دار الدنيا . وكيف أنفق هذا المال الذي حصل عليه . وكما نعلم فإن المال هو جانب أساسي في حياة كل إنسان ، وبالتأكيد فإن جانباً من السعادة أو الشقاء الذي يواجهه الفرد أو المجتمع في كل مكان في هذا العالم يرتبط بطبيعة العمل وطريقة الحصول على المال والدخل ، أو أنه يرتبط بكيفية الإنفاق والجوانب التي ينفق فيها الناس أموالهم أو أنهما (السعادة والشقاء الفردي أو الاجتماعي) يرتبطان بكلا الجانبين أي جانب اكتساب المال وجانب إنفاق المال . والإسلام أعطى أهمية بالغة لموضوع الحصول على المال وإنفاقه ومدى تأثير ذلك على تكامل المجتمع ورقية أو سقوطه وانحطاطه .

ولكي يدرك المسلمون أهمية ذلك فقد نصّت بعض الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام ، على أن الالتزام بحدود الحق والقانون فيما يتعلق باكتساب المال والإنفاق ، يحافظ على كيان الإسلام والمسلمين ويضمن بقاءهما ، وأن عدم مراعاة حدود الحق والقانون يؤدي إلى فناء المسلمين والإسلام .

المجتمع ودور المال :

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «إنَّ بقاءَ المسلمينَ وبقاءَ الإسلامِ أنْ تصيرَ الأموالُ عندَ مَنْ يعرفُ فيها الحقَّ ويصنعُ فيها المعروفَ وإنَّ منْ فناءِ المسلمينَ وفناءِ الإسلامِ أنْ تصيرَ الأموالُ عندَ مَنْ لا يعرفُ فيها الحقَّ ولا يصنعُ فيها المعروفَ»^(١) .

(١) مستدرک الوسائل : المجلد الثاني ، صفحة ٣٩٣ .

الكسب الذي يؤدي إلى فساد المجتمع :

إنَّ أي كسب أو عمل يضرّ من جهة واحدة أو من عدة جهات بسعادة المجتمع وكيانه ، ويسوق المجتمع نحو الفساد والضياع يعتبر مكسباً أو عملاً محرماً في الإسلام ، حيث يعتبر الشرع الإسلامي مثل هذه المكاسب والأعمال باطلة ، كشرب الخمر والقمار والفحشاء والسرقة والرشوة وغيرها من الأعمال المماثلة .

وعلى هذا الأساس فإن المال الذي يحصل عليه الشخص من الطرق المذكورة آنفاً أو المال الذي ينفق في المجالات المذكورة ، هو مال حرام يمنع الإسلام .

وقد حذر القرآن الكريم المسلمين من اكتساب المال من الأعمال المذكورة حيث يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾^(١) .

المقامرة في الجاهلية :

(عن الصادق عليه السلام قال : عَنِ بِهَا الْقِمَارَ وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَقَامِرُ الرَّجُلَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ فَنَهَاها اللهُ عَنْ ذَلِكَ)^(٢) .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «الرِّبَا وَالْقِمَارَ وَالْبَخْسَ وَالظُّلْمَ»)^(٣) .

الشخص المدين يتعذب بعد الموت :

إذن ، فإن الأمر الثالث الذي يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة - وذلك كما جاء في الحديث الشريف المذكور آنفاً - هو المال وكيفية الحصول عليه وطرق

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٢٩ .

(٢٣) تفسير الصافي : صفحة ١١٨ .

إنفاقه . فالذين يموتون وهم مدينون للآخرين بمبالغ من المال ، ولم يقم أحد بتسديد هذه الديون بعد مماتهم ولم تبرأ ذمتهم من تلك الديون ، فإنهم يواجهون موقفاً صعباً يوم القيامة ، ويعانون كثيراً في ذلك اليوم ، لأن الله (سبحانه وتعالى) لا يدعُ حقوق الناس ولا يتجاوز عنها ، إلا إذا تمت تسويتها أو تنازل أصحاب هذه الحقوق عنها .

على أن هذا الحساب الدقيق يكون صعباً ومرهقاً جداً بالنسبة للذين لم يهتموا بحقوق الآخرين وماتوا وهم مدينون للآخرين ، ولهذا فإن الشخص المدين للآخرين يجب عليه أن يفي ديونه في أقرب فرصة تتاح له لكي يُبرئ ذمته ، وإذا لم يتمكن من تسديد ديونه في الدنيا عليه أن يوصي ويطلب من وصيه المؤمن أن يسدد عنه ديونه للدائنين من الإرث الذي يتركه ، وذلك على وجه السرعة ، ويخلصه من عذاب البرزخ .

ولكن الإمام عليّ عليه السلام يفضل أن يقوم الإنسان في حياته بتلك الأمور التي يطلب من الآخرين أن يقوموا بها بعد مماته ، لأن الشخص المؤمن الحقيقي الذي يؤمن ويعتقد بيوم الجزاء ، بإمكانه أن يقوم بهذه الأمور أفضل من أي وصي مخلص يستطيع أن يسعى أكثر من غيره لتسوية حساباته وديونه مع الدائنين ، ويبرئ ذمته . وفي هذا يقول عليه السلام :

« يابن آدم كُن وصي نفسك في مالك واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك »^(١) .

(عن عنبسة بن مُصعب قال : قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : أوصني . فقال : « أعدّ زادك وهتيء جهازك وكن وصي نفسك ولا تأمر غيرك يرسل إليك بما يصلحك »)^(٢) .

(١) نهج البلاغة ، الكلمة : ٢٥٤ .

(٢) مشكاة الأنوار : صفحة ٧٢ .

موظف حكومة بني أمية :

يقول علي بن أبي حمزة : كان لي صديق يعمل موظفاً في حكومة بني أمية ، وفي أحد الأيام قال لي : إحصل لي على إذن من الإمام الصادق لكي أتشرف بمقابلته . وفي الموعد المقرر تشرف بمقابلة الإمام فسلم وجلس ثم قال : لقد كنت أعمل في بلاط بني أمية ، وجمعت مالاً كثيراً من طرق مختلفة .

وهنا قاطعه الإمام قائلاً : لو لم يلتف الكتاب والجباة والمقاتلون وجماهير الناس حول بني أمية ويتعاونوا معهم لما تمكنوا من اغتصاب حقنا ، ولو أن الناس انفضوا وتفرقوا من حولهم ولم يساعدهم بأموالهم لما تمكنوا أبداً من الوصول إلى السلطة ولما ارتكبوا تلك الأعمال اللأمشروعة . وبعد أن أنهى الإمام الصادق عليه السلام كلامه بدأ موظف حكومة بني أمية الكلام مرة ثانية وقال : هل لي من سبيل للتخلص من تلك الأموال الملوثة وأنجو من المسؤولية ؟ . فقال عليه السلام : «هل تعمل بموجب ما أقول لك ؟» فقال الرجل : نعم سأعمل . فقال عليه السلام : «يجب عليك أن تتخلص من جميع الأموال التي حصلت عليها خلال وجودك في حكومة بني أمية وتبعتها عنك وتعيد أموال الأشخاص الذين تعرفهم إليهم أما الأموال التي لا تعرف أصحابها فعليك أن تتصدق بها وإذا فعلت ذلك فأنا أضمن لك بأن الله سيدخلك الجنة . فأطرق الرجل برأسه إلى الأرض وأخذ يفكر ملياً ثم رفع رأسه وقال للإمام عليه السلام : سوف أنفذ ما قلت لي . يقول ابن أبي حمزة : إن هذا الرجل الموظف في حكومة بني أمية رجع معنا إلى الكوفة وقام بتنفيذ كل ما قاله الإمام بشأن الأموال التي جمعها طوال فترة عمله مع بني أمية ، حتى الملابس التي كان يرتديها تصدق بها للآخرين كما أعاد الأموال التي لديه إلى أصحابها والأموال التي لا يعرف أصحابها وتعتبر مجهولة المالك تصدق بها على الفقراء إلى درجة أنه لم يبق لنفسه أية ملابس يرتديها . ويقول ابن أبي حمزة : فقمنا بجمع مبلغ من المال اشترينا به بعض الملابس لهذا الرجل والباقي أعطيناه له

لتغطية نفقاته اليومية . ولم تضر سوى عدة شهور حتى مرض هذا الرجل فزرناه عدة مرات وآخر مرة ذهبنا لعيادته كان في حالة الإحتضار ففتح عينه للحظة واحدة ونظر إليّ وقال : يا عَلِيُّ وَفِي لِي وَاللَّهِ صَاحِبُكَ ثُمَّ مَاتَ فَوَلَّيْنَا أَمْرَهُ فَخَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ : « يَا عَلِيُّ وَفِينَا وَاللَّهِ لِصَاحِبِكَ » فَقُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ هَكَذَا قَالَ لِي وَاللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ ^(١) .

حَبَّ أَهْلِ الْبَيْتِ :

السؤال الرابع الذي يوجه للإنسان في يوم القيامة كما جاء في حديث الرسول الأكرم عليه السلام المذكور آنفاً ، هو : عن حَبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام الذي يعتبر من أمهات القضايا الاعتقادية .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في الآية الشريفة التالية : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(٢) .

وهناك أحاديث عن الرسول الأكرم عليه السلام نقلها العامة والخاصة حول مفهوم ومعنى هذه الآية ، وتشير هذه الأحاديث النبوية إلى أن المقصود بـ «المودَّة في القربى» هو حَبُّ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام . وتوخياً للاختصار فإننا نكتفي بالإشارة إلى حديثين من طرق أهل السنة وحديثين من طرق الشيعة .

لقد ذكر «الزمخشري» في تفسير الكشاف و«البيضاوي» في تفسير أنوار التنزيل و«السيوطي» في تفسير الدر المنثور ومفسرين آخرين ، ذكروا الحديث الشريف التالي في ذيل الآية الشريفة المذكورة آنفاً .

(رُويَ أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ مَوَدَّتُهُمْ عَلَيْنَا قَالَ : «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا» .

(١) بحار الأنوار : المجلد الحادي عشر ، صفحة ١٤٤ .

(٢) سورة الشورى ؛ الآية : ٢٣ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أَنْ تَحْفَظُونِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَتَوَدُّوهُمْ بِي (١) .

(عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قَالَ : «هُمْ الْأَئِمَّةُ ﷺ» (٢) .

أَصْحَابُ الْكِسَاءِ :

(عَنْ الصَّادِقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : مَا يَقُولُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ؟ قِيلَ : إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهَا لِأَقْرَبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : «كَذَّبُوا . إِنَّمَا نَزَلَتْ فِينَا خَاصَّةً ، فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فِي عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ﷺ أَصْحَابِ الْكِسَاءِ» (٣) .

إِنَّ مَوَدَّةَ أَهْلِ الْبَيْتِ ﷺ (وَحُبَّهُمْ) هُوَ وَاجِبٌ إِسْلَامِي فَرَضَهُ اللَّهُ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَفَوْقَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَيَجْدُرُ بِنَا فِي هَذَا الْمَجَالِ أَنْ نَسْتَعْرِضَ بِإِخْتِصَارٍ مَوْضُوعَ مَوَدَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ لِكَيْ نَدْرِكَ - إِلَى حَدِّ مَا - الْقِيَمَةَ الْمَعْنَوِيَّةَ لِهَذَا الْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ (وهذه الفريضة الإلهية وهي محبة أهل البيت ومودتهم) ، وما يترتب على محبة أهل البيت من نتائج تتمثل في ضمان سعادة المسلمين . ولقد كرّر الله (سبحانه وتعالى) في كتابه العزيز في سورة الشعراء الآيات ١٠٩ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠ على لسان نوح وصالح ولوط وشعيب ﷺ ، ومن أجل النبوة والتبليغ لدين الله ، كرّر العبارة التالية :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطي ، المجلد السادس ، صفحة ٧ .

(٢) تفسير البرهان : المجلد الرابع ، صفحة ١٢١ .

(٣) تفسير الصافي : صفحة ٤٨٠ .

أجر نبي الإسلام (ص) :

أما بالنسبة لنبي الإسلام محمد ﷺ ، فإن الكلام الوارد في القرآن الكريم يتغير ، حيث يقول الله :

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) .

لقد تحدث نبي الإسلام طوال فترة رسالته ، كثيراً حول المنزلة الرفيعة والمقام السامي لأهل البيت عليهم السلام ، ودورهم التوجيهي في إرشاد الناس وهدايتهم ، وقد وردت هذه الأحاديث النبوية في كتب العامة والخاصة (الشيعة والسنة) ، وسوف نشير في هذه المحاضرة إلى بعض من تلك الأحاديث ، حيث يستطيع الأفراد الفاهمين الحاذقين المنصفين - ومن خلال التمعن في تلك الأحاديث الشريفة والروايات - ، الوقوف على القيمة الحقيقية لأهل البيت ، ويدركوا بالتالي سبب جعل الله (تعالى) مودة ومحبة أهل البيت فرضاً وواجباً على المسلمين .

الأحاديث المنقولة عن مصادر أهل السنة :

(أخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال : «أذْكُرْكُمْ اللهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»^(٢) .

أمانة الكتاب والعترة :

(وأخرج الترمذي وابن الأنباري في المصاحف عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لئن تضلّوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٢٣ .

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطي : المجلد السادس ، صفحة ٧ .

فيهما»^(١) .

في هذه الأحاديث وأحاديث أخرى مماثلة يعتبر الرسول الأكرم عليه السلام أهل البيت عدل^(٢) القرآن الكريم ، مؤكداً أن أهل البيت هم بمنأى عن الإنحراف والذنوب .

وجعل عليه السلام مودة أهل البيت فريضة وواجباً على المسلمين بأمر من الله (سبحانه وتعالى) .

وأعلن الرسول عليه السلام بكل صراحة بأن القرآن وأهل البيت لن يفترقا أبداً ، أي أن أفعالهم وأقوالهم هي دائماً مطابقة لتعاليم القرآن الكريم ، وإذا ما تمسك الناس بالقرآن وبأهل البيت وساروا على نهجهما بصدق وإخلاص فإنهم لن يضلوا أبداً .

سؤال يطرح نفسه :

قد يتساءل البعض بأن المودة والعداوة أو المحبة والبغض هما حالتان نفسيتان لا إراديتان .

فكيف أن الله يأمر الناس بشيء وينهاهم عن شيء آخر ليس لهم خيار فيه ، ويطلب من الناس أن يكونوا المحبة لأهل البيت في قلوبهم ، ويظهروا ضمائهم ونفوسهم من أي بغض أو عداة لأهل البيت ؟ .

والأمر الملفت للانتباه في هذا المجال هو أن القرآن الكريم اهتم بهذه الحالة النفسية ، إلى درجة أن الرسول عليه السلام قال في حديث مضمونه أن الناس يُستوقفون يوم الجزاء ويُسألون عن مودة أهل البيت عليهم السلام .

وردّاً على هذا التساؤل نقول : إذا كان شيء ما خارجاً عن إرادتنا واختيارنا ، ولكن الظروف والتمهيدات التي تؤدي إلى تحقق هذا الأمر

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطي : المجلد السادس ، صفحة ٧ .

(٢) العُدل جمع عُذول وأعدال : النظير والمثل (منجد اللغة : صفحة ٤٩١) .

اللاإختياري هي في يدنا وتحت اختيارنا وإرادتنا ، فإن عقلاء العالم يعتبرون مثل هذا العمل اختياريًا وإرادياً بالنسبة للناس ، وينسبون ذلك العمل للاختياري أو اللاإرادي للشخص الذي يُهَيء ظروف ومقدمات تحقق هذا العمل .

وبشكل عام ، فإن الأعمال التي تتم وفقاً لنظام التكوين وقوانين الخلق التي لا مفرّ منها هي من هذا النوع ، فمثلاً إذا صعد شخص إلى سطح بناية مكونة من ستة طوابق وألقى بنفسه من أعلى البناية عن وعي وإرادة وسابق تصميم ، فسقط في الشارع وتهشم رأسه ، فإن كافة عقلاء العالم يقولون بأن هذا الشخص قد انتحر . وكما نعلم فإن العمل الذي قام به هذا الشخص بمحض إرادته وهو عبارة عن القفز من سطح البناية والإنطلاق في الفضاء ، ولكن هذا ليس السبب الرئيسي في موته ، بل إن موته كان لسبب قوة جاذبية الأرض التي جذبتة إليها من الأعلى وجعلته يرتطم بالأرض بقوة ، وبالتالي فإن قوة الجاذبية تلك هي التي أنهت حياة هذا الشخص . فقوة الجاذبية الأرضية هي من القوانين التكوينية في نظام الخلق ، وهذه القوانين تطبق بالإجبار ، وهي خارجة عن إرادة الإنسان ، ولكن الذي ينتحر إنما يُهَيء - بمحض رغبته وإرادته - الظروف والمقدمات لتحقيق هذا الأمر اللاإرادي .

وبالنسبة للشخص المذكور ، فإنه ألقى بنفسه من فوق البناية عن عمد وسابق إصرار ، وبعمله هذا يكون قد وضع نفسه تحت تصرف قوة الجاذبية الأرضية وتسبب بالتالي في موته ، ولهذا فإن الناس يقولون عنه بأنه قد انتحر وأنهى حياته بتصميم اتخذه عن وعي .

المودة بعد المعرفة :

إذن ، فرغم أن محبة أهل البيت ومودتهم هو من الناحية النفسية خارج عن إرادتنا ، ولكن معرفة أهل البيت المعرفة الحقّة التي هي شرط لتحقيق المودة ، خاضعة لإرادتنا ، أي إذا عرف شخص أهل البيت كما عرفهم الرسول الأكرم عليه السلام ، وأصبح عارفاً بحقهم وأدرك مكانتهم الحقيقية ومقامهم الواقعي ،

فمن المؤكد أنه سيصبح محباً لأهل البيت بدافع من المحبة نفسها ، وسيميل إلى مودتهم من منطلق حب الذات ، لأنه يعلم بأنه بفضل هداية أهل البيت وتوجيهاتهم سيفهم الإسلام الحقيقي الأصيل ويشق طريقه نحو السعادة الأبدية ويصل إلى قمة كماله الإنساني ، كما يعلم جيداً بأن عدم الإمثال لتوجيهات أهل البيت وعدم التمتع بهدایتهم إنما يتخلف عن إدراك وفهم الإسلام الحقيقي ، وينجرف نحو الضلال ، حيث يكون مصيره في النهاية السقوط والضياع .

ولا شك بأن الإنسان المسلم الذي يتعرف على أهل البيت على هذا النحو ويدرك فضلهم وحقانيتهم ، فإنه بالتأكيد يصبح محباً لهم ، ومثل هذا المسلم لا يمكنه أن يمر مرور الكرام أمام شخص هو مصدر سعادة أبدية بالنسبة له .

مثال توضيحي :

لقد أورد الرسول الأكرم ﷺ في أحاديثه حول أهل البيت عليهم السلام وتمسك المسلمين بهم مثلاً يوضح العلاقة بين المعرفة والمحبة ، ولكي يتضح هذا التشبيه الذي أورده قائد الإسلام (الرسول ﷺ) بصورة أفضل للقراء الكرام ، وينتبهوا أكثر وبشكل أفضل للموضوع الذي نريد أن نبحثه فلا بد لنا أن ندخل في مقدمة لهذا الموضوع .

تصوروا شخصاً يعيش في مدينة ساحلية ، حيث يشاهد في أغلب الأحيان السفن الكبيرة والصغيرة التي تنقل البضائع والركاب وهي ترسو في الميناء ، حيث يجري شحن أو تفريغ بعض هذه السفن . كما يشاهد الناس وهم يصعدون إلى بعض هذه السفن المخصصة لنقل الركاب أو يهيمون بالنزول منها .

والشخص الذي يشاهد حركة السفن في الميناء ليست له أية علاقة بها وهو يمر في كل يوم من أمامها مرور الكرام ، ولا يفكر لا بوجود هذه السفن في

الميناء أو عدم وجودها ولا بما يحققه أصحابها من أرباح أو خسائر .

على أن هذا الشخص نفسه إذا قرر يوماً أن يسافر بطريق البحر وصعد على متن إحدى تلك السفن وسلك طريق البحر ، فمن الطبيعي أن يتعلق بتلك السفينة بحيث إذا تعرضت هذه السفينة لحادث في وسط البحر أو أصيبت بعطل جعلها تواجه خطراً ما ، فإن هذا الشخص يقلق بشدة لهذا الأمر لأنه يعرف بأن بقاءه على قيد الحياة مرتبط ببقاء السفينة وسلامتها . ونظراً لأنه يحب نفسه فعليه أيضاً أن يحب السفينة التي تحافظ على جسمه وروحه .

وفي مثل هذه الظروف حيث هذه السفينة في وسط البحر إذا جاء أشخاص وقالوا لهذا الرجل : إقطع رجاءك وأملك من هذه السفينة وأوقف حبك لها ، فإننا نريد أن نفصلك عنها ونلقي بك في البحر ، فإن هذا الكلام يُغضب الرجل المذكور أشد الغضب بحيث أنه ليس فقط لا يرضخ لهذا العمل ولا يفصل عن السفينة ، بل أنه يحاول بأقصى ما في وسعه أن يُبعد هؤلاء الأشخاص عنه ، ويواصل بقاءه في السفينة لكي لا يصبح طعمة لأمواج البحر ، وبالتالي لا يتعرض للهلاك والموت (غرقاً) ، لأنه يعلم بأن السفينة هي الوسيلة الوحيدة للنجاة وسط هذا البحر المتلاطم ، وهي التي تستطيع إنقاذه من هذه الأهوال المرعبة ، وتوصله إلى ساحل النجاة .

ولهذا فإن الرسول الأكرم ﷺ في بعض أحاديثه شبه دور أهل البيت  في إنقاذ المسلمين بالسفينة .

(عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا  عن آبائه عن أمير المؤمنين عن النبي صلى الله عليه وعليهم قال : «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي كَمَثَلِ سَفِينَةِ نُوحٍ مِنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زُجَّ فِي النَّارِ»^(١) .

وخلاصة القول أن المودة التي وصفها الله بأنها كأجر لرسالة النبي الأكرم

(١) سفينة البحار : المجلد الأول مادة (سفن) صفحة ٦٣٠ .

وجعل هذه المودة فريضة دينية يجب على الناس أداءها ، نقول : إنَّ هذه المودة هي من أجل نجاة المسلمين وإنقاذهم وهدايتهم وفلاحهم ، وفي الحقيقة إنَّ فائدة محبة أهل البيت تعود على الناس أنفسهم ، وهذا ما أكدّه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة :

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(١) .

(ففي الكافي عنه عليه السلام يقول : أجر المودة الذي لم أسألكم غيره فهو لكم تهتدون به وتنجون من عذاب يوم القيامة)^(٢) .

المسلمون ينقسمون إلى ثلاث مجموعات من حيث نظرتهن إلى أهل البيت ، فهناك من المسلمين من اتبعوا أقوال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتفحصوا ودرسوا كتب السنة والشريعة وأدركوا مكانة أهل البيت واعتبروا نجاتهم وسعادتهم رهن بمودة أهل البيت ومحبتهم . المجموعة الثانية هي التي لم تتحقق في أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم تتعرف على المكانة الشامخة لأهل البيت ، ولم تطلع على أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي أوصى (المسلمين) بشكل مؤكد بأهل البيت (ودعاهم للتمسك بهم) ،^(١) وبالتالي فإن أفراد هذه المجموعة ليس عندهم موقف واضح ومحدد تجاه أهل البيت وهم يتصفون بالجهل سواء كانوا قاصرين أو مقصرين في جميع الأحوال ، فإنهم محرومون من محبة أهل البيت ، وأن مصيرهم يوم الجزاء يحدده حكم الله .

دوافع الإستعلاء :

المجموعة الثالثة هم المعاندون وأعداء أهل البيت ، حيث أن كثيراً من هؤلاء كانوا في صدر الإسلام على علم واطلاع بالمكانة الرفيعة والسامية لأهل البيت ، وقد سمعوا ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حولهم ، ولكن أهواءهم النفسية

(١) سورة سبأ ؛ الآية : ٤٧ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ٤٤٣ .

وغرورهم وشعورهم الإستعلائي وإحساسهم بالتفوق على الآخرين وحب الجاه والأفكار الشيطانية التي سيطرت عليهم ، هي التي جعلتهم يميلون عن سبيل الحق ، وبالتالي يضمرون البغض والحقد لأهل البيت . ومثل هؤلاء كمثل أولئك الذين شاهدوا معاجز موسى بن عمران عن كذب وتيقنوا في قرارة أنفسهم بأنه مرسل من قبل الله ، وأن الأعمال التي قام بها هي آيات إلهية ، ولكنهم في الظاهر اعتبروا معاجزه ضرباً من السحر ، وبالتالي فإنهم أنكروا رسالته ، حيث يقول القرآن الكريم : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (١) .

إن الأحاديث الشريفة التي نقلها كبار علماء الدين ورجال الحديث عن الرسول الأكرم ﷺ حول محبة ومودة أهل البيت عليهم السلام والآثار الإيجابية المترتبة على هذه المحبة ، وكذلك حول بغض ومعاداة أهل البيت والأضرار المترتبة على ذلك - والتي ورد ذكرها في أمهات كتب الحديث - كثيرة نكتفي في هذا المجال بالإشارة إلى بعضها ، حيث نشير في الختام إلى حديث نقلته مصادر أهل السنة ، حيث أشار الزمخشري في تفسير الكشاف في ذيل الآية الكريمة : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ (٢) إلى الحديث المذكور ، كما سنقل حديثاً نبوياً شريفاً أشار إليه العالم الكبير ابن بابويه في كتاب عيون أخبار الرضا .

كلام النبي (ص) حول أهل البيت :

(قال رسول الله ﷺ : «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيداً . إِلَّا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مَغْفُوراً لَهُ . إِلَّا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ تَائِباً . إِلَّا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤْمِناً مُسْتَكْمِلاً الْإِيمَانَ إِلَّا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . إِلَّا وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشْمَ رَائِحَةَ

(١) سورة النمل ؛ الآيتان : ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة الشورى ؛ الآية : ٢٣ .

الجنة» (١) .

السؤال عن النعمة :

(في العيون عن الرضا عليه السلام قال : «ليس في الدنيا نعيم حقيقي» فقال له بعضُ الفقهاء ممن حضره : فيقول الله عز وجل : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٢) أما هذا النعيم في الدنيا وهو الماء البارد .

فقال له الرضا عليه السلام - وعلا صوته - : كذا فسرتموه أنتم وجعلتموه على ضروب ، فقالت طائفة : هو الماء البارد ، وقال غيرهم : هو الطعام الطيب ، وقال آخرون : هو طيب النوم ، ولقد حدثني أبي عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام أن أقوالكم هذه ذكرت عنده في قول الله عز وجل : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فغضب عليه السلام وقال : إن الله عز وجل لا يسأل عباده عما تفضل عليهم به ولا يمن بذلك عليهم ، والإمتنان بالإنعام مستقبح من المخلوقين فكيف يضاف إلى الخالق عز وجل ما لا يرضى للمخلوقين به؟ ، ولكن النعيم حَبْنًا أهل البيت ومولاتنا ، يسأل الله عنه بعد التوحيد والنبوة ، لأن العبد إذا وفى بذلك أداه إلى نعيم الجنة التي لا تزول .

ولقد حدثني بذلك أبي عن أبيه عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا علي إن أول ما يُسأل عنه العبد بعد موته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنتك وليُّ المؤمنين بما جعله الله وجعلته لك ، فمن أقر بذلك وكان يعتقده صار إلى النعيم الذي لا زوال له» (٣) .

تنبيه للأزواج والزوجات :

إن تصرفات المرأة الكلامية والعملية تجاه زوجها ، وكذلك تصرفات الزوج تجاه زوجته - سواء كانت تصرفات صحيحة أو غير صحيحة - هي من الأمور التي يحاسب ويسأل عنها الإنسان بدقة يوم القيامة . وهناك أحاديث وروايات

(١) تفسير الكشاف : المجلد الثالث ، صفحة : ٤٦٧ .

(٢) سورة التكاثر ؛ الآية : ٨ .

(٣) بحار الأنوار : المجلد الثالث ، صفحة ٢٦٩ .

كثيرة في هذا المجال منقولة عن الرسول ﷺ والأئمة المنتهين ، حيث نكتفي بالإشارة إلى الحديثين الشريفين التاليين :

(عن النبي ﷺ قال : «أَيُّ امْرَأَةٍ آذَتْ زَوْجَهَا بِلِسَانِهَا لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهَا صَرْفًا وَلَا عَدْلًا وَلَا حَسَنَةً مِنْ عَمَلِهَا حَتَّى تُرْضِيَهُ وَإِنْ صَامَتْ نَهَارَهَا وَقَامَتْ لَيْلَهَا وَكَانَتْ أَوَّلَ مَنْ يَرِدُ النَّارَ وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهَا ظَالِمًا»^(١)) وعنه ﷺ قال : «أَلَا وَأَيُّ امْرَأَةٍ لَمْ تَرْفُقْ بِزَوْجِهَا وَحَمَلَتْهُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَمَا لَا يُطِيقُ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا حَسَنَةٌ وَتَلَقَى اللَّهُ وَهُوَ عَلَيْهَا غَضَبَانٌ»^(٢) .

نعلم أن منشأ الكثير من الانحرافات الإعتقادية والخلقية والانحرافات على صعيد الممارسات العملية للناس ، هو أصدقاء وجلساء السوء .

ولهذا السبب فإن أولياء الدين وعلى رأسهم الأنبياء والأئمة المنتهين ركزوا على أهمية الرفيق أو الجليس الذي يعاشره الإنسان وأكدوا بأن الإنسان يُسأل قبل أي شيء يوم القيامة عن أصدقائه وجلسائه الذين عاشروهم وخالطهم في الدنيا .

(في الحديث : «أَنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ جُلَسَائِهِ»^(٣)) .
إن مواقف الحساب والسؤال يوم القيامة كثيرة ومتعددة ، كما إن الأمور التي يُسأل عنها الإنسان في تلك المواقف أيضاً كثيرة . فبعض الأمور التي يُسأل عنها الإنسان ترتبط بمعتقدات الناس وأفكارهم ، هذه المعتقدات التي هي منشأ أعمال البشر ، وعلى أساسها يمارس الناس أفعالهم وأقوالهم ، فإذا كانت منزّهة وسليمة ، فإنها تجعل أعمال الإنسان خالصة ونظيفة ، وإذا كانت معتقداته ملوثة وغير سليمة ، فإنها تشوّه وتفسد أعماله .

وهناك أمور يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة وهي ترتبط بالعبادات

(١) الأمالي للشيخ الصدوق : صفحة ٢٥٧ .

(٢) نفس المصدر : صفحة ٢٥٨ .

(٣) تفسير الدر المنثور لجلال الدين السيوطي : المجلد الخامس ، صفحة ٢٧٣ .

والواجبات الدينية ، وما إذا كان الشخص قد نفذ الأوامر الإلهية وأدى الواجبات الدينية أم لا . وإذا كان قد أدى هذه الفرائض والواجبات الدينية فهل التزم بالتعاليم اللازمة لدى قيامه بواجباته الدينية تلك ؟ .

كما أن هناك أمور يُسأل عنها الإنسان يوم القيامة ترتبط بالصفات الباطنية والأخلاق النفسانية ، حيث يُسأل عن الصفات التي كان يتحلّى ويتمتع بها في الدنيا ، وكيف كان يبرز هذه الصفات والملكات ويطبقها ، وكيف كان تعامله مع الناس .

وعليه ، فإن بعض الناس يجتازون جميع مواقف الحساب والسؤال بنجاح وهم مرفوعي الرأس ، والبعض الآخر يفشل في جميع تلك المواقف وهو منكس الرأس ، والبعض الآخر من الناس ينجحون في بعض تلك المواقف ويجتازونها وهم مرفوعي الرأس ويفشلون في مواقف الحساب الأخرى ويجتازونها وهم مُطأطي الرؤوس وخجلين .

ولا يمكن ذكر جميع مواقف السؤال والحساب التي يمرّ بها الإنسان يوم القيامة ، واستعراض كل ما يُسأل عنه في يوم الجزاء حسبما ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في هذا المجال المحدود ، لهذا فإننا نكتفي بهذا القدر الذي أشرنا إليه .

الإنسان يُسأل يوم القيامة حتى عن الحيوانات :

ولكن هناك نقطة نوّد التذكير بها في هذا المجال ، وهي أن الأسئلة التي توجهها الملائكة في مواقف القيامة ، لا تقتصر على حقوق البشر تجاه بعضهم البعض ، بل أنه بموجب الأحاديث والروايات الواردة في هذا المجال فإن الناس يُسألون أيضاً عن الحيوانات والأراضي .

ولكي نختم حديثنا حول هذا الموضوع فإننا نذكر فيما يلي بعض الأحاديث والروايات الواردة في هذا المجال :

(في حديث ابن عُمر (عن الرسول الأكرم ﷺ) : «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَلُ

عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ عَنْ حَيَّةٍ أَهْلِيهِ»^(١) .

(عن عليّ بن ابي طالب قال : «اتقوا الله في عباده وبلادِهِ فإنَّكم مسؤولون حتَّىٰ عن البقاعِ والبهائمِ»^(٢) .

إنَّ المسؤوليات التي يتحملها الناس يوم القيامة وضعت على عاتقهم وفقاً للواجبات والتكاليف الدينية واستناداً إلى القوانين والسنن (الإلهية) التي وضعها الشرع الإسلامي المقدس ، وإن من جملة تلك الواجبات والتكاليف ما يقع على عاتق الناس من وظائف ومسؤوليات تجاه الحيوانات والأراضي والبقاع .

حقوق الحيوانات :

واستناداً إلى المصادر الإسلامية ، قام الفقهاء من علماء الدين بتحديد وظائف الناس في هذا المجال على شكل فتاوى أدرجوها في الكتب الفقهية ، حيث يقول الفقيه الجليل المرحوم صاحب الجواهر - أعلى الله مقامه - :

(وأما نفقة البهائم المملوكة التي منها دود القز والنحل وغيرها فواجبة بلا خلاف سواء كانت مأكولة اللحم أو لم تكن ، وسواء انتفع بها أو لا . ولكن لا تقدير لنفقاتهن وإنما الواجب القيام بما تحتاج إليه من أكل وسقي ومكان وجل ونحو ذلك مما يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة)^(٣) .

ويضيف صاحب الجواهر قائلاً : (إذا امتنع مالك الحيوان عن واجب الإنفاق ، بل إنه لا يخلي سبيل الحيوان لكي يذهب إلى المرعى طلباً للغذاء ، فإن الحكومة الإسلامية ترغمه على القيام بما يجب عليه القيام به . وإذا تعذر ذلك فإن الحاكم يقوم بما يراه ضرورياً نيابة عن المالك ، حيث يقوم بشراء الغذاء للحيوان من أموال المالك ، وإذا لم يكن المالك لديه أموال منقولة

(١) أي الحيوانات في المنزل كالقطط والكلاب أنظر لسان العرب مادة (حيا) صفحة ٢١٤ .

(٢) نهج البلاغة ، خطبة : ١٦٧ .

(٣) جواهر الكلام : ج ٣١ ، صفحة ٣٩٤ .

فبإمكان حاكم الشرع أن يقوم بشراء الغذاء للحيوان من أموال المالك غير المنقولة) .

وبعدها يبين المرحوم صاحب الجواهر أموراً أخرى تتعلق بوظيفة حاكم الشرع ويقول : (ولو لم يوجد ما ينفق على الحيوان ووجد عند غيره وجب الشراء منه ، فإن امتنع من البيع ففي المسالك يجوز غضب العلف منه لإبقائها إذا لم يوجد غيره كما يجوز غضبه كذلك لحفظ الإنسان ويلزمه المثل أو القيمة)^(١) .

إن رعاية حقوق الحيوانات هو وفقاً للموازن الشرعية واجب قطعي يقع على عاتق مالكيها الذين يحاسبون يوم القيامة ويُسألون وفقاً للواجبات التي حددها الشرع الإسلامي لهم ، حيث سينالون الثواب أو العقاب وفقاً للعمل الذي قاموا به . فبعض الأشخاص - ونتيجة لتخلفهم عن واجباتهم الدينية وتجاهلهم المبادئ الإنصاف والعواطف الإنسانية - ، يتمادون في ممارسة الظلم وسوء المعاملة تجاه الحيوان فيثيرون غضب الله الرؤوف الرحيم ، ويمهدون السبيل بذلك لدخولهم نار جهنم . وعلى العكس من ذلك قد يشفق شخص مذب على حيوان ما بدافع من الرأفة والإنسانية فيشمله العفو الإلهي ويصبح من أصحاب الجنة . وهذين النموذجين وردا في بعض الأحاديث الشريفة .

(عن النبي ﷺ قال : «اطَّلَعْتُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عَلَى النَّارِ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً تُعَذِّبُ فَسَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا رَبَطَتْ هِرَّةً وَلَمْ تُطْعِمَهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَدْعِهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ فَعَذَّبَهَا بِذَلِكَ وَاطَّلَعْتُ عَلَى الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً مَوْسِمَةً (يعني زانية) فَسَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا مَرَّتْ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ مِنَ الْعَطَشِ فَأَرْسَلَتْ إِزَارَهَا فِي بَثْرِ فَقَصَرْتَهُ فِي حَلْقِهِ حَتَّى رَوِيَ فَغَفَرَ اللَّهُ لَهَا»)^(٢) .

(١) جواهر الكلام : المجلد ٣١ ، صفحة ٣٩٦ .

(٢) جواهر الكلام : المجلد ٣١ ، صفحة ٣٩٥ .

الإنسان وإعمار الأرض :

كما أن الناس مسؤولون بموجب القوانين الإسلامية عن الأرض حيث يحاسبون عليها يوم القيامة .

وفيما يلي نعطي توضيحاً مختصراً حول هذا الموضوع : لقد خلق الله الأرض وما عليها وسخرها للإنسان وجعلها خاضعة له ، كما أعطى الإنسان العقل والذكاء والكفاءة لكي يقوم بإعمار الأرض وإحيائها ، وطلب منه أن يجد ويسعى للقيام بهذا الواجب المقدس الذي هو مصدر سعادته ، وأن يقوم بإعمار الأرض بما يحقق مصلحته ومصلحة الآخرين .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾^(١) .

ليس هناك في عالم الطبيعة حيوان له فكر خلاق وقوة مدركة يستخدمهما لإعمار الأرض واستخراج الثروات الكامنة فيها ، بل الإنسان وحده هو الذي يتمتع بهذه الموهبة القيمة ، حيث بإمكانه من خلال تشغيل عقله واستخدام طاقاته الباطنية والظاهرية أن يحقق هذه الإرادة وهذا المطلب الإلهي ، واكتشاف الطاقات والإمكانات الكامنة في الأرض وإعمارها والاستفادة منها .

ومع تطور وتقدم العلوم الطبيعية وظهور الحضارة الصناعية ، فإن حركة إعمار الأرض وبنائها أخذت تتطور بسرعة ، حيث تغيرت ملامح الكرة الأرضية تماماً . ولكن أقدم الأساليب والطرق لإعمار الأرض التي لا تزال باقية ومستمرة وهي لن تزول أبداً ، هي أسلوب الزراعة وغرس الأشجار ، لأن المزارع والبساتين هي التي تؤمن الغذاء للناس وتحافظ على بقائهم .

وقد اعتبر الإسلام الزراعة وغرس الأشجار عمليين مهمين جداً ، حيث هناك أحاديث وروايات كثيرة تؤكد هذا الموضوع :

(عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : «إِزْرَعُوا وَاغْرِسُوا وَاللَّهِ مَا عَمِلَ النَّاسُ عَمَلًا

(١) سورة هود ؛ الآية : ٦١ .

أَحَلَّ وَلَا أُطِيبَ مِنْهُ» (١) .

كفران النعم وظلم المجتمع :

لقد شاءت إرادة الله أن تكون الماء والتربة مصدر رزق لأبناء البشر الذين عليهم أن يشقوا الأرض وينشروا فيها البذور ، ليحصلوا على قوتهم ورزقهم الذي قرره الله لهم ، وبالتالي يواصلوا حياتهم ومعيشتهم . وإذا كان الفرد يملك الأرض والماء ولا يبادر إلى الزراعة وترك الأرض خالية ، أو إذا امتنع عن سقي مزرعته الخضراء اليانعة والأشجار الموجودة في بستانه ، وذهب الماء هدرًا فجفت نتيجة ذلك المزرعة والأشجار ، فإنه - دون شك - يكون قد كفر بالنعمة الإلهية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يكون قد ظلم المجتمع . ومثل هذا الإنسان يكون مسؤولاً أمام الله ومذمومًا في نظر أولياء الإسلام .

وحول هؤلاء الأفراد الذين هم عار على المسلمين ومصدر ذل وهوان للمجتمع يقول علي عليه السلام : (من وجد ماءً وتراباً ثم افتقر فأبعده الله) (٢) .

ملخص البحث :

نستنتج من هذا البحث أن الناس مسؤولون أمام الله يوم القيامة ، وأن يوم الجزاء هو اليوم الذي يحاسب فيه الأفراد على الأعمال الحسنة أو السيئة التي قاموا بها طوال فترة حياتهم في الدنيا .

ففي يوم الجزاء يحيي الله الخلق من الأولين والآخرين ويمنحهم حياة جديدة ، ولكن عملية منح الحياة هذه في الآخرة تتم بأسلوب جديد وفي إطار قوانين جديدة لم يسبق لها مثيل ، وغير قابلة للقياس مع قوانين الدنيا . ففي ذلك اليوم يستوقف الناس في مواقف مختلفة ويُسألون عن حقوق الخالق

(١) سفينة البحار : المجلد الأول مادة (زرع) ، صفحة ٥٤٩ .

(٢) وسائل الشيعة : المجلد ١٣ ، باب العمل ، صفحة : ٢٤ .

والخلق ، وعن المعتقدات والأخلاق ، وعن الأقوال والأفعال .

والخلاصة : يُسأل الناس يوم القيامة عن كل شيء حتى عن الأعمال
والتصرفات الشائنة والسيئة التي يقوم بها الأفراد تجاه الحيوانات وتجاه الأرض
والمزارع والبساتين .

المحاضرة السابعة عشرة :

القيامة وعقاب الظالمين صحيفة أعمال الأفراد والأهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾^(١) .

إرضاء الغرائز بشكلٍ لا محدود :

إن معظم الناس في هذا العالم كانوا ولا زالوا خاضعين لغرائزهم وأهوائهم النفسية . وهؤلاء الناس لكي يتمادوا في إرضاء ميولهم وغرائزهم الحيوانية وإشباع غرائزهم الطبيعية وشهواتهم بصورة عشوائية ، فإنهم يتجاوزون حدود القانون ويرتكبون أعمالاً لا شرعية وظالمة ، ويتجاهلون مبادئ العدل والإنصاف ، ويتنهبون عملياً حقوق الضعفاء . واخيراً ينتهي عمر الظالم والمظلوم ، ويموت الإثنان معاً ، وفي الغالب لا الظالم ينال عقابه ولا المظلوم يتلقى العون والمساندة وينال حقوقه المهدورة . ولكن لا شك بأن الله (سبحانه وتعالى) على علم بأحوال الظالم والمظلوم ، وهو يستطيع دائماً وأبداً وفي كل الأحوال أن يقطع دابر الظالم ويخلص المظلوم من الظلم والعدوان ، ولكنه لا

(١) سورة ابراهيم ؛ الآية : ٤٢ .

يفعل ذلك لأن إرادة الله شاءت أن يكون الناس في الدنيا أحراراً ، وأن يوضح
وبين لهم طريق الحق وطريق الباطل ليكون ذلك بمثابة امتحان واختبار للبشر
يتميز فيه الصالحون عن الفاسقين . ولكي يعلم البشر بأن الله العالم العادل
القادر لا يتجاوز عن حقوق المظلومين ولا يدع الظالم دون عقاب ، فإنه
(سبحانه وتعالى) تحدث في جميع الكتب السماوية عن المعاد ، وأعلن للناس
عن طريق الأنبياء أن هناك يوماً تجري فيه محاسبة الناس محاسبة دقيقة .

الظالم في مسرح القيامة :

وأكدت الكتب السماوية أن الله يُحيي الخلائق جميعاً من الأولين
والآخرين حيث يحاسب جميع الظالمين والمظلومين ، ويشير القرآن الكريم إلى
الحالة الرهيبة والمضنية التي يعيشها الظالم في ذلك اليوم .

﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص
فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم
هواء ﴾ (١) .

موضوعين من وجهة النظر المادية :

الذين ينظرون إلى كل الأمور من منظار مادي ويريدون تفسير كل شيء
وفقاً للمنطق المادي فإنهم يواجهون في هذا المجال أمرين ثقلين جداً .

الأمر الأول : هو آلاف الملايين من الناس الظالمين والمظلومين جاؤوا
إلى هذا العالم ثم ماتوا ، وذلك على مدى قرون وعصور متمادية من عمر الدنيا
وسوف يأتي غيرهم من الظالمين والمظلومين إلى هذه الدنيا حتى يحين موعد
انقراض العالم وزواله . فكيف يمكن أن يعود جميع الظالمين والمظلومين إلى
الحياة في يوم واحد ويحضرون أمام محكمة العدل الإلهية في وقت واحد ،
حيث ينال الظالمون عقابهم كما يحصل المظلومون على حقهم ؟ .

(١) سورة ابراهيم ؛ الآيتان : ٤٢ و ٤٣ .

الأمر الثاني : هو أية قدرة تلك التي تستطيع إحصاء ما ارتكبه البشر من ظلم وما قاموا به من جرائم على مرّ العصور والأزمان بشكل دقيق ، وأن تميز - بالتالي - بين الظالم والمظلوم لكي تتم المحاكمة بصورة كاملة ويتم التدقيق في كافة أعمال الظلم التي ارتكبت ، سواء كانت كبيرة أو صغيرة ، بحيث لا يبقى أي ظالم دون حساب ، ولا يضيع حق من أي صاحب حق ؟ .

وبالطبع فإن مثل هذه الفكرة لا بد وأن تراود ذهن الإنسان ، لأن الإنسان بحد ذاته موجود أو مخلوق مادي يتمتع بقدرة محدودة ، ويعيش في عالم هو أيضاً عالم مادي ومحدود .

وإضافة إلى ذلك فإنه كلما حقق الإنسان تقدماً بفضل قوة العلم والخبرة العلمية في هذا العالم ، وكلما قام بدراسة العوالم المادية وإجراء البحوث حولها ، فإنه يجد بأن جميع القوى في هذا العالم محدودة ولم يتعرف أو يكتشف جميع أرجاء هذا العالم المادي ، قوة لا نهائية . إذن ، فإن هذا الإنسان لا يمكنه تصديق الأمرين الثقيلين جداً على فهمه والمذكورين آنفاً ، واللذين يستحيل تحققهما من الناحية المادية . أما الإنسان الإلهي ، والمؤمن الحقيقي الذي استخدم عقله وتحقق في النظام الحكيم الذي يسود هذا العالم ، وآمن بالخالق القادر العليم ، واعتبر القرآن الكريم بأنه من عند الله ، وأن نبي الإسلام هو مبعوث من قبل الله ، فإن الشك لا يجد طريقاً إلى قلبه ، فهو مطمئن بأن الله - وطبقاً لما وعد به أنبياءه جميعاً - ، يحيي في يوم الحشر - وبإرادته القيومية وقدرته اللامحدودة - البشر جميعاً من الأولين والآخرين ، حيث يحاسبهم على جميع أعمالهم المدونة في اللوح المحفوظ ، فينصر المظلومين ويعاقب الظالمين ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه :

كل شيء موجود في اللوح المحفوظ :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ۖ

في إمامٍ مُبينٍ ﴿١﴾ .

ولإعطاء مزيد من التوضيح حول منطق الأنبياء بشأن الإرادة والقدرة الإلهية اللامحدودة ، فمن الضروري أن نبين هذا الموضوع ونتناوله بشيء من التفصيل ، مستندين في ذلك إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث والروايات .

البشر وعالم الخيال :

إن كل تصميم يتخذه الإنسان في أعماق نفسه وكل إرادة ينويها في باطنه ، بإمكانه أن يجسدها في ذهنه في عالم الخيال خلال لحظات . أما إذا أراد أن يحقق مراده وهدفه خارج إطار الذهن (والخيال) ، ويلبس تصميمه ثوب الفعل والواقع ، فعليه أن يجهز نفسه بالقوة الكافية والمستلزمات الضرورية ويخصص جانباً من وقته للقيام بهذا العمل حتى يتمكن من تحقيق هدفه المطلوب .

فمثلاً : عندما يكون الشخص مسافراً إلى بلد بعيد ويريد العودة إلى وطنه ، فإن تصور هذه العودة هو أمر سهل جداً بالنسبة له ، حيث أنه - وفي عالم الخيال - يقطع المسافات الطويلة فوراً ، ويصل إلى مدينته ، ويمر بسرعة عبر شوارعها الرئيسية والفرعية ، ويدخل إلى منزله ويصافح أهله وذويه بحرارة ، ويعانقهم ويعرب عن سروره وفرحته للقائهم . ولكن عندما يتهيأ للسفر ويقرر بشكل جازم قطع المسافة بين البلد الأجنبي ووطنه الأصلي ، فعليه أن يهيئ ويجهز أسباب السفر ومتطلباته ، ويخصص جانباً من وقته وطاقاته لهذا الغرض ، حتى يصل إلى مدينته وبيته ويتمكن من رؤية أهله وذويه .

إذن ، فإن الشيء الذي ينويه الإنسان ويجسده في ذهنه بسرعة ، إذا أراد أن يجسده خارج ذهنه ويلبسه ثوب الحقيقة والواقع فإنه يحتاج إلى المادة والوقت .

(١) سورة يس ؛ الآية : ١٢ .

الإرادة الإلهية :

أما بالنسبة لله القادر فإنه إذا أراد شيئاً فإن مجرد إرادته هذه تجعل هذا الأمر أو هذا الشيء يتحقق بشكل عملي وفعلي ، أي - بعبارة أخرى - فإن إرادة الباري (تعالى) هي السبب الأول والتام لوجود وتحقق ذلك الشيء الذي أراده الله .

وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

(عن صفوان بن يحيى قال : قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِرَادَةِ مِنْ اللَّهِ وَمِنَ الْخَلْقِ قَالَ : فَقَالَ : «الْإِرَادَةُ مِنَ الْخَلْقِ الضَّمِيرُ وَمَا يَبْدُو لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفِعْلِ وَأَمَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِإِرَادَتُهُ إِحْدَاثُهُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُرَوِّي وَلَا يَهْمُ وَلَا يَتَفَكَّرُ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مَنْفِيَةٌ عَنْهُ وَهِيَ صِفَاتُ الْخَلْقِ . فِإِرَادَةُ اللَّهِ الْفِعْلُ لَا غَيْرُ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ بِلا لَفْظٍ وَلَا نَطْقٍ بِلِسَانٍ وَلَا هِمَّةٍ وَلَا تَفَكَّرٍ وَلَا كَيْفٍ لِذَلِكَ كَمَا أَنَّهُ لَا كَيْفَ لَهُ» (٢) .

وعلى ضوء ما ذكرناه حول إرادة الخالق وإنشاء الموجودات ، فإن مفهوم الآية التالية يصبح واضحاً تماماً :

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ﴾ (٣) .

إن عملية خلقكم جميعاً في البداية وبعثكم جميعاً في الآخرة هي بالنسبة لله القادر كعملية خلق إنسان . وتوضيحاً لذلك نقول : إن النقصان أو الزيادة في المصنوع يؤثر على عمل الصنّاع من البشر وإنجازاتهم كماً وكيفاً ، لأن عمل هؤلاء يرتبط بالقوى المادية المحدودة وترتكز على الزمان والمكان . أما بالنسبة

(١) سورة يس ؛ الآية : ٨٢ .

(٢) أصول الكافي : المجلد الأول ، صفحة : ١٠٩ .

(٣) سورة لقمان ؛ الآية : ٢٨ .

لله حيث إرادته تعني خلقه فلا فرق في أن تكون إرادته خلق إنسان واحد أو خلق مائة مليار إنسان . لقد شاءت إرادة الله القادر المتعال في خلق البشر أن يولد الأفراد في هذه الدنيا بصورة تدريجية ويموتون أيضاً بشكل تدريجي ، وبهذا يتبقى النظام الكوني يسير وفقاً للحكمة والمصلحة . وهكذا هي إرادة الله القادر المتعال في الآخرة ، حيث شاءت إرادة الله أن يعود جميع أفراد البشر الذين ولدوا وماتوا في هذه الدنيا خلال العصور والأزمان المختلفة إلى الحياة دفعة واحدة ، ويحضروا مسرح القيامة من أجل الحساب وكلتا هاتين الإرادتين هما بالنسبة لله كعملية خلق إنسانٍ ما . إذن ، فإن إحياء الخلق من الأولين والآخرين يوم الحشر هو بنظر الماديين أمر ثقيل وغير مقبول ، ولكن في نظر أتباع القرآن ، فإن هذه المهمة تتحقق بمجرد أمر إلهي ، حيث أن الأمر التكويني ﴿كُنْ﴾ الذي يصدر عن الله من شأنه أن يحيي جميع أبناء البشر الذين جاؤوا إلى الدنيا وماتوا فيها على امتداد عمر البشرية .

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾^(١) .

محكمة العدل الإلهي :

من خلال تلك الحياة الجماعية وفي يوم النشور، يتحقق الوعد الإلهي ويوقف الظالمون في موقف الحساب حيث يواجهون مع الظالمين ، فينفذ عندها قانون العدل الإلهي ، وتُسْتَوْفَىٰ حقوق المظلومين من الظالمين .

وفي ذلك اليوم يخاطب الله البشر وهم يقفون في المحشر ويقول لهم :

(أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور اليوم أحكم بينكم
بِعَدْلِي وَقَسْطِي لَا يُظَلِّمُ الْيَوْمَ عِنْدِي أَحَدٌ الْيَوْمَ أَخَذُ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ
حَقَّهُ)^(٢) .

إنَّ الإنسان في عالم الطبيعة هو الموجود الحي الوحيد الذي خلق حرّاً

(١) سورة الواقعة ؛ الآيتان : ٤٩ و ٥٠ .

(٢) علم اليقين : صفحة ٩٢١ .

يتمتع بقوة العقل وبإمكانه أن يسيء استغلال حرته ، فينتهك حقوق وحدود الآخرين ، ويعتدي عليهم . وفي يوم القيامة يواجه العذاب الإلهي بسبب ظلمه للآخرين .

وقد متّع الله الإنسان بالهداية التشريعية لكي لا تكون الحرية التي هي نعمة إلهية كبرى سبباً في ضياع الإنسان وسقوطه أخلاقياً ، وجعله يميل نحو الظلم وينحرف عن طريق الحق . ولكي يتمّ الله الحجة على البشر في كل عصر وزمان ، فإنه أبلغ الأحكام والتعاليم الدينية التي هي طريق سعادة البشرية وفلاحها إلى الناس عن طريق الأنبياء .

الكائنات الحية والهداية التكوينية :

أما سائر المخلوقات الحية في عالم الطبيعة من نباتات وحيوانات ، فإنها ليست بحاجة للهداية التشريعية ، لأن الهداية التكوينية من قبل الله تلبّي كافة الإحتياجات والمتطلبات المعيشية لهذه المخلوقات الحية . أي بعبارة أخرى : إن الله (سبحانه وتعالى) نظم البرنامج الحياتي والمعيشي للنباتات والحيوانات في هذا العالم عن طريق الهداية التكوينية ، وجعل تلك الهداية ممزوجة في طبيعتها بحيث أن كل كائن حي (من نبات أو حيوان) عليه أن يسلك طريقه (في عالم الطبيعة) وفقاً لجبر الخليقة ، فالأشجار والنباتات - وبفضل الهداية التكوينية - تنبت من تحت التربة وتمتص المواد الغذائية من الأرض وتنمو وتعطي ثمارها . وكذلك بالنسبة للحشرات والحيوانات فإنها - وبفضل الهداية التكوينية (المودعة في داخلها)^(١) - تبحث عن الغذاء والماء ، وتبني بيوتها وأعشاشها وتتكاثر وتتناسل وتحافظ على حياتها الفردية والنوعية . والإنسان رغم أنه من الكائنات الحية في عالم الطبيعة إلا أنه يختلف عن النباتات والحيوانات من جهات عدّة .

(١) المترجم .

الإنسان والهداية التشريعية :

فالكائنات الحية في هذا العالم (ما عدا الإنسان)^(١) هي كلها موجودات ذات بعد واحد وتمتع فقط بالهداية التكوينية الربانية ، وهي الهداية الكامنة في طبيعتها ، أمّا الإنسان العاقل الحرّ فهو ذو بُعدين ويتمتع بهدائيتين إحداهما تكوينية وأخرى تشريعية .

فالهداية التكوينية هي عبارة عن الفطرة الإنسانية الكامنة في وجود كل إنسان بموجب المشيئة الإلهية ، وهي لا تحتاج إلى تدريس أو تعليم . أمّا الهداية التشريعية فهي عبارة عن تلك التوجيهات وتلك الهداية التي قدّمها الأنبياء للناس وعلموها لهم .

والهداية التكوينية يتمتع بها الإنسان من خلال جبر الخليقة - كما هو الحال في سائر المخلوقات الحية الأخرى - وأن أي إنسان ليس مخيراً أبداً فيما يتعلق بالهداية التكوينية ، كخفقان القلب ودوران الدم في الجسم وعملية الهضم وحساسية العصب في الجسم وغيرها (من العمليات والنشاطات اللاإرادية التي تجري داخل الجسم التي تتم كلها عن طريق الهداية التكوينية ولا دخل للإنسان فيها)^(٢) .

أما بالنسبة للهداية التشريعية فلا وجود لجبر الخليقة فيها حيث أعطى الله الإنسان حرية التصرف وجعله مخيراً في رفض أو قبول دعوة الأنبياء .
فالإنسان يستطيع أن يكون موحّداً لله ومشركاً مطيعاً لله أو عاصياً له ، صالحاً أو فاسقاً .

ويستطيع هذا الإنسان وبشكل عام أن يقبل الهداية التشريعية الإلهية ورسالة الأنبياء ، وينال - بالتالي - السعادة الأبدية ، كما يستطيع أيضاً أن يرفض

(١ و ٢) المترجم .

دعوة الأنبياء والهداية التشريعية الربانية ، ويعيش عمره في ضلال ليواجه -
بالتالي - السقوط والضياع .

الحياة والموت الطبيعي :

إن الحياة والموت الطبيعي بالنسبة للنبات والحيوان يكون جبرياً ، حيث
تتحقق هاتان الظاهرتان وفقاً للقوانين والسنن والتكوينية ، فالحيوانات والنباتات
لا تُخلق وتعيش باختيارها ، كما أنها لا تموت بإرادتها ورغبتها واختيارها .

على أن حياة وممات الإنسان في بعده الطبيعي هو كسائر الحيوانات يكون
جبرياً ، حيث لا دخل لإرادة الإنسان واختياره في أي من هاتين الظاهرتين
(الحياة والموت) ، ولكن إذا أراد الإنسان أن يعيش ويحيا حياة إنسانية ويتمتع
بالحياة الإنسانية فهذا راجع إليه ، وبرنامج مثل تلك الحياة المقدسة لا يخرج
عن إطار الهداية التشريعية الإلهية .

الأنبياء والحياة الإنسانية :

إن هدف الأنبياء من تقديم هذه الهداية التي تجعل الإنسان يعيش حياة
إنسانية ، هو رسم طريق الإنسانية أمام البشر ، وإبراز الكفاءات الإنسانية الكامنة
في أعماق الناس وإظهارها إلى عالم الحقيقة والفعل ، وجعلهم يعيشون حياة
إنسانية بمحض إرادتهم واختيارهم ، ويتمتعون - بالتالي - بالكمال الذي يليق
بشأن الإنسان ومكانته . ولهذا السبب فإن القرآن الكريم يطلب من الناس أن
يُلبّوا - وبمحض إرادتهم واختيارهم - الدعوة (دعوة الأنبياء) التي هي مصدر
سعادة الإنسان وفلاحه ، ويعيشوا في ظلها حياة إنسانية كريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِّلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُحْيِيكُمْ ﴾ (١) .

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢٤ .

الصراط التكويني المستقيم :

إن الطريق الذي تسلكه الكائنات الحيّة في هذا العالم بشكل طبيعي طوال فترة حياتها في الدنيا ، هو طريق مرسوم وموضوع من قبل الله ، وهو الصراط الإلهي المستقيم . وكل موجود أو كائن حي مجبر على اجتياز مسيره التكويني المقرّر والمرسوم له في إطار نظام الخلقة الحكيم ، وليس بإمكانه أن يحد ولا خطوة واحدة عن هذا الصراط الإلهي :

﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ مِصْرًا فِي يَدِهَا بِأَمْرِ رَبِّهَا وَإِنْ هِيَ إِلَّا عَصِيْفٌ ﴿١﴾ ﴾

إن الإنسان الذي هو من الكائنات الحيّة في عالم الطبيعة ، وهو من حيث البعد الحيواني والهداية التكوينية كسائر الدوابّ التي تعيش فوق هذه الأرض ، محكوم وخاضع لأمر الباري (تعالى) ، وهو مجبر على السير في الصراط المستقيم ، ولكنه من حيث البعد الإنساني والهداية التشريعية يتمتع بحرية العمل وحرية رفض أو قبول تلك الهداية التشريعية .

الصراط التشريعي المستقيم :

وعلى أساس حرية الاختيار هذه ، فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مكلف (من قبل الله) بأن يبيّن للناس الصراط الإلهي المستقيم ، ويدعوهم لتصديق دعوته ورسالته واتباع نهجه وسلوكه .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٢) .

فكل إنسان عاقل بالغ يكون مسؤولاً عن الأعمال التي يقوم بها بمحض إرادته واختياره ، والهدف من الهداية التشريعية تبين الطريق الصحيح من الطريق غير الصحيح للناس ، ودعوة البشر لاستخدام صلاحياتهم واختياراتهم في

(١) سورة هود ؛ الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٥٣ .

الطريق الصحيح الذي يضمن سعادتهم ، وعدم الإقتراب من الظلم والذنوب والمعاصي وأن لا يورطوا أنفسهم بالعقاب الإلهي يوم القيامة .

إن كافة العقلاء في العالم وجميع الأديان الإلهية تعتبر الإنسان مسؤولاً عن الأعمال التي يقوم بها عن وعي وإرادة وبمحض اختياره ، سواء كانت أعمالاً حسنة أو أعمالاً سيئة ، سالحة أو غير سالحة ، تؤدي إلى السعادة أو تؤدي إلى الشقاء .

وهنا يشبه القرآن الكريم الأعمال التي يقوم بها الإنسان بمحض إرادته واختياره بأنها كالطوق الذي يعلّق في عنق الإنسان صاحب هذه الأعمال ، حيث يقول : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانُهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (١) .

(ويقول الراغب الأصفهاني : «أي عمله الذي طار عنه من خير وشر»)(٢) والمقصود بـ«طائر» في الآية المذكورة هو عمل الإنسان سالحاً كان أو غير صالح ، هذا العمل يحلّق بجناحيه كالطائر وينفصل عن صاحبه .

على أن الأعمال الصالحة التي يقوم بها الصالحون بمحض إرادتهم واختيارهم هي كالطوق الجميل في أعناقهم يزيدهم جمالاً وبهاءً ، أما الأعمال السيئة التي يقوم بها الفاسقون المذنبون عن عمد وبمحض إرادتهم ، فهي كالأغلال والأصفاد التي توضع في أعناق أصحابها ، وتشير إلى فسقهم وانحرافهم عن طريق الصواب .

وعلى أية حال فالأعمال التي يقوم بها الإنسان بمحض إرادته سواء كانت سيئة أو سالحة تصبح بمثابة الطوق الذي يعلّق في عنق صاحبها ، وتكون ملازمة له باستمرار لا مفر له منها .

(وقيل : معناه : جعلنا لكل إنسان دليلاً من نفسه لأن الطائر عندهم

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٣ .

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة : (طير) .

يُستدل به على الأمور الكائنة ، فيكون معناه : كل إنسان دليل نفسه وشاهد عليها إن كان محسناً فطائره ميمون ، وإن أساء فطائره مشؤوم^(١) .

العلاقة بين الفكر والعمل :

وقيل : إن معنى هذه الآية هو : أن لكل إنسان دليل من نفسه لأن الطائر عند العرب في الجاهلية كان هو الشيء الذي يستدلون به على أمور يجب أن تقع ، سواء كانت هذه الأمور حسنة أو سيئة .

إذن فإن معنى الآية الكريمة المذكورة هو : أن كل إنسان هو دليل نفسه وشاهد عليها ، فإذا كان هذا الإنسان صالحاً فإن ذلك دليل على أن طائره ميمون مبارك ، وإذا كان فاسقاً فإن ذلك دليل على أن طائره مشؤوم غير مبارك .

ورغم أن ما ذكرناه في تفسير الآية المذكورة هو مجرد احتمال ، ولكن أصل الموضوع الذي يقول إن الأعمال الحسنة أو السيئة لكل إنسان هي دليل نفسه وشاهد على أسلوب تفكيره ، هو صحيح وأساسي ، أشار إليه القرآن الكريم بتعبير خاص :

﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾^(٢) .

يا أيها النبي قل للناس بأن أعمال كل إنسان مؤمناً كان أو كافراً هي على غراره ، ووفقاً لأفكاره وملكاتِه وسجاياه الحسنة أو السيئة التي يتخلق بها في باطنه ، وأن الله هو الذي يعلم من يسلك الطريق الصحيح الذي هو طريق السعادة ، ومن يسلك سبيل الخطأ والضلال . وسواء كان المقصود بكلمة «طائر» التي وردت في الآية المذكورة الأعمال الحسنة أو السيئة التي يقوم بها الإنسان بمحض إرادته واختياره ، أو كان المقصود بها تلك السجايا والملكات النفسية التي تدفع الإنسان وتحثه على القيام بالأعمال المشروعة أو اللامشروعة ، ففي كلتا الحالتين المسؤولية تقع على صاحب العمل .

(١) تفسير مجمع البيان : المجلد ٥ و ٦ ، صفحة ٤٠٤ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٤ .

القيامة وصحيفة الأعمال :

وبموجب النصوص الدينية فإن الأعمال التي يقوم بها كل إنسان خلال حياته تسجل من قبل الملائكة المكلفة من قبل الله بهذا العمل ، في كتاب تجهل حقيقته وطبيعته ، حيث يُحاسب الناس في يوم القيامة على أساس هذا الكتاب .

﴿ وَكُلُّ إِنسَانٍ أَلزَمَانُهُ أَزْمَانُهُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾^(١) .

﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾^(٢)

الأعمال المنسية :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(٣) .

ويقول القرآن الكريم في آية أخرى :

﴿ بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾^(٤) .

أي أن الأعمال القبيحة والسيئة التي كانوا يقومون بها بصورة سرية وفي الخفاء لكي لا يطلع عليها أحد ، هذه الأعمال تتكشف وتظهر للعيان عندما يأمر الله بفتح سجلات وصحائف أعمال البشر يوم القيامة .

إذن فبموجب الآيات القرآنية والأحاديث والروايات كل فرد له صحيفة أعمال خاصة به تُقدم إليه يوم القيامة ، حيث يُحاسب كل إنسان بموجب صحيفة أعماله تلك .

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٣ .

(٢) سورة الكهف ؛ الآية : ٤٩ .

(٣) سورة المجادلة ؛ الآية : ٦ .

(٤) سورة الأنعام ؛ الآية : ٢٨ .

ولكن يتضح من خلال بعض الآيات القرآنية أنه إلى جانب صحائف الأعمال الخاصة بكل إنسان ، فإن جميع أعمال البشر مدونة ومكتوبة في اللوح المحفوظ . واللوحة المحفوظ هو كتاب لا يتضمن فقط أعمال البشر الصالحة والسيئة ، بل يتضمن أيضاً جميع التفاصيل والخصائص المتعلقة بعوالم الكون ، وكافة مقدرات نظام الخليقة .

العلم الإلهي وأعمال البشر :

وقد أشار القرآن الكريم في عدد من الآيات إلى هذا اللوح العظيم الذي يسميه القرآن «كتاب مبین» أو «أم الكتاب» :

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرَبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

إمحاء أو تثبيت الأعمال :

كما يقول الله (سبحانه وتعالى) في محكم كتابه :

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٢) .

وكما جاء في كتب التفسير ، فإن إمحاء وتثبيت أعمال البشر في أم الكتاب ، أي اللوح المحفوظ ، والذي يتم بأمر من الله (سبحانه وتعالى) ، إنما يرتبط بكافة القضايا والأمور الخاصة بعالم الوجود ، كالقوانين العامة لهذا العالم والناسخ والمنسوخ من أحكام الدين ، والقضايا المتعلقة بمصائر الأفراد كفترة العمر ومقدار الرزق وغيرها من الأمور المشابهة .

على أن أعمال البشر هي الأمور المسجلة في أم الكتاب (اللوحة المحفوظ) ، وتعرض للمحو أو التثبيت . وأحياناً تشاء إرادة الله أن تمحى

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٦١ .

(٢) سورة الرعد ؛ الآية : ٣٩ .

ذنوب الأشخاص الصالحين المؤمنين من على صفحات أم الكتاب ، فيعفو عنهم برحمته وفضله ، ويتجاوز عن سيئاتهم . أو قد تشاء الإرادة الربانية الإبقاء على ذنوب الفاسقين الذين لا إيمان لهم ومحاسبتهم عليها على أساس الحق والعدل ومعاقبتهم .

تسجيل أعمال الناس :

إذن ، يتضح مما ذكرنا حول تسجيل أعمال الناس بأن المؤمنين بالقرآن الكريم - واستناداً إلى التعاليم الدينية - يعتقدون : أولاً : بأن الأعمال التي يقوم بها كل إنسان تُسجل من قبل ملائكة الله في صحيفة أعماله ، وثانياً : أن جميع الشؤون والقضايا المتعلقة بعالم الوجود وبينها أعمال الناس مدونة في اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب .

وإلى جانب هاتين النقطتين فإن الله (سبحانه وتعالى) يحيط علماً بكل خفايا العالم ، بحيث أن أي عمل من أعمال البشر لا يخفى على علم الله اللامحدود .

وهذا هو الرد على القسم الثاني من التساؤل الذي يطرحه أصحاب المدرسة المادية الذين يقولون : ما هي تلك القوة التي تستطيع أن تُحصي وبشكل دقيق عمليات الظلم والجرائم التي ارتكبتها البشر في كافة أرجاء هذه الكرة الأرضية على مر الأزمنة والعصور ، وتحدّد - بالتالي - من هو الظالم ومن هو المظلوم في كل عمل من تلك الأعمال ، لكي تتم عملية الحساب بشكل دقيق ؟ .

ورداً على هذا التساؤل يقول أتباع القرآن الكريم : إن كافة الأعمال التي يرتكبها أفراد البشر (في الدنيا) - صغيرة كانت أم كبيرة - (صالحة أو سيئة)^(١) ، ويتضمنها العلم الإلهي ، هذه الأعمال كلها مدونة في اللوح المحفوظ وفي صحائف أعمال أصحابها ، وفي يوم الجزاء يحاسب كل إنسان بموجب صحيفة عمله .

(١) المترجم .

وجدير بالذكر في هذا المجال أن الأعمال الحسنة والسيئة التي يقوم بها كل إنسان خلال حياته الدنيوية ، ليس فقط هي وحدها التي تسجل في صحيفة أعماله ، بل أن الأعمال الحسنة أو السيئة التي يقوم بها الآخرون بعد مماته ، وترتبط به من ناحية معينة واحدة أو من عدة نواحٍ ، هذه الأعمال تُسجل أيضاً في صحيفة أعماله .

وتوضيحاً لهذه النقطة نشير إلى الآية الكريمة التالية :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ (١) .

نحن نحْيي الموتى يوم القيامة ، ونحن الذين نُسجل كافة الأعمال الحسنة والسيئة التي يقوم بها الناس خلال حياتهم ، كما تُسجل الآثار والنتائج التي تترتب على بعض الأعمال الصالحة وغير الصالحة لهؤلاء الناس والتي تصلُّهم بعد مماتهم .

سنَّ السنة الحسنة والسنة السيئة :

(عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ . ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ (٢) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى نفس هذا الموضوع ضمن آية أخرى ، كما أن الأئمة المعصومين عليهم السلام فسَّروا هذه الآية على أن المقصود بها هو وضع سنة حسنة أو سيئة في المجتمع .

﴿ يُنبِّؤُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (٣) .

(١) سورة يس ؛ الآية : ١٢ .

(٢) تفسير الدر المنثور : المجلد الخامس ، صفحة ٢٦٠ .

(٣) سورة القيامة ؛ الآية : ١٣ .

فالإنسان يطلع يوم القيامة على جميع الأعمال الصالحة وغير الصالحة التي يقوم بها في حياته ، كما يطلع أيضاً على الأعمال التي يقوم بها الآخرون بعد مماته ، حيث يُسجَلُ النفع أو الضرر الناجم عن تلك الأعمال في صحيفة أعماله .

الخير والشر بعد الموت :

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام (في تفسير الآية المذكورة) قال : «بما قدّم من خيرٍ وشرٍّ وما أخرَ فما سنٌّ من سنّةٍ لِيُسْتَنَّ بها من بعده فإن كان شراً كان عليه مثلٌ وزرهم ولا ينقصُ من وزرهم شيئاً وإن كان خيراً كان له مثلٌ أجورهم ولا ينقصُ من أجورهم شيئاً»^(١) .

وكمثال (على السنّة الحسنة) نشير إلى صناديق القرض الحسن التي هي من السنن الحسنة جداً ، حيث انتشرت خلال السنوات الأخيرة بسرعة كبيرة وعلى نطاق واسع في كافة أرجاء إيران ، حيث أنشئت في الكثير من المدن الصغيرة والكبيرة صناديق للقرض الحسن ، يساهم الأفراد الخيرون المتمكنون مادياً في هذه الصناديق ، التي تتولى تقديم قروض بدون فوائد على شكل قرض حسن إلى المسلمين من ذوي العفة وكرامة النفس والذين يعانون ضائقة مالية .

كان واضعو هذه السنّة بعض الأشخاص الذين أنشأوا في البداية أول صندوق (للقرض الحسن) ، وقدّموا رأس المال اللازم لهذا الصندوق ، منفذين بذلك هذه الفكرة الحميدة .

وبموجب الروايات الواردة حول الأشخاص الذين يسنون سنّة حسنة ، فإن هؤلاء الأشخاص طالما هم على قيد الحياة فإنهم يحصلون على أجر كافة صناديق القرض الحسن التي يتم إنشاؤها اتباعاً لتلك السنّة الحسنة التي وضعوها ، وذلك دون أن ينقص شيء من أجر المؤسسين لهذه الصناديق

(١) تفسير الصافي : صفحة ٥٥١ .

والمساهمين فيها ، ويبقى الأشخاص الذين وضعوا هذه السنة الحسنة يحصلون على الأجر ، كما يحصل عليه المؤسسون لتلك الصناديق والقائمين عليها والمساهمين فيها ، حتى بعد مرور مئات السنين على إنشاء صناديق القرض الحسن تلك ، وذلك دون أن ينقص شيء من أجر هؤلاء المؤسسين والمساهمين .

الآثار الباقية :

إن الآثار الحسنة أو السيئة التي تُسجل في صحائف أعمال الأفراد بعد موتهم لا تقتصر على السنن الحسنة والسيئة ، بل إن بعض الخيرات والأعمال الحسنة التي يتركها الأفراد في الدنيا بعد مماتهم رغم أنها ليست سيرة أو سنة ، فإنها تدرج في صحائف أعمالهم طالما أنها باقية ويستفيد منها الناس .

(عن النبي ﷺ قال : «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ صَدَقَةٌ تَجْرِي لَهُ أَوْ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(١) .

العلم الذي يُنتفع به :

الحملة الأولى من الحديث الشريف المذكور أعلاه تحت المتعلمين وأصحاب العلم من الناس على وضع الذي يتمتعون به تحت تصرف الناس وتعليمهم إياه ، وجعلهم يستفيدون مما لديهم من علم نافع . ويلاحظ أحياناً أن بعض الأفراد ضيقي الفكر وقصيري النظر ، لديهم علم مفيد ونافع ، وكلهم يحتكرونه لأنفسهم ويرفضون تعليمه ونقله للآخرين ، بل وأنهم يمتنعون حتى عن كتابته وتدوينه في الكتب لكي لا يقع في أيدي الناس ، فيطلعون على هذا العلم الخاص ، وأخيراً فهم يموتون ويحملون علمهم معهم إلى القبر ، ويحرمون الناس منه .

والحديث الشريف المذكور هو بمثابة توصية من الرسول الأكرم ﷺ

(١) بحار الأنوار : المجلد الأول ، صفحة ٧٦ .

للناس لكي يسعوا لاكتساب العلم ويصبحوا من العلماء ، كما يريد عليه السلام أن يقول للناس : إذا كان لديكم علم ما فعلّموه للآخرين لكي يستفيد منه الناس ، وهذا العمل سيكون بمثابة خير وحسنة مستمرة لكم ، ونتيجة هذا الخير المستمر يصل إليكم باستمرار في عالم البرزخ ، كما يسجل ضمن حسناتكم يوم القيامة .

الصدقة الجارية :

وفي الجملة الثانية من الحديث الشريف المذكور يذكر الرسول عليه السلام المسلمين بأمواتهم ويلفت انتباههم إلى ضرورة قيامهم بأعمال خير على نية موتاهم ونيابة عنهم ، وإنشاء صدقة جارية تكون نافعة لعموم الناس على نية موتاهم لكي تُسجل في صحيفة أعمالهم في خزانة الأعمال الصالحة ، ويعود ثوابها عليهم في عالم البرزخ وفي القيامة .

الصدقة الجارية للأموات :

خرج «سعد» يرافقه عدد من الأشخاص ، خرج يوماً من المدينة مع الرسول عليه السلام في طريقهم إلى ساحة الحرب ، وكانت أم «سعد» مريضة حيث فارقت الحياة أثناء غياب ولدها ، وكان «سعد» مقاتلاً في جيش الإسلام يحب والدته كثيراً ، وعندما سمع بوفاتها لدى عودته تأثر كثيراً ، ف جاء إلى الرسول عليه السلام وقال له : أردت قبل سفري أن أعطي صدقة عن والدتي ولكني لم أستطع ، والآن حيث فارقت والدتي الدنيا هل ينفعها إذا قدمت صدقة عنها؟ فقال الرسول عليه السلام : «نعم» فقال «سعد» : ما هي أفضل صدقة أقدمها لها؟ فقال عليه السلام : «لقد رأيت خلال رحلتك بأن الجنود يعانون أثناء الطريق من شحة الماء ، فإذا كنت تستطيع في إمكانك أن تحفر بئراً في الطريق المذكورة لكي تستفيد منه القوافل التي تمر من هناك ، وتكون بالتالي صدقة جارية لوالدتك» . فقام سعد واستجابة لأمر الرسول عليه السلام بحفر بئر على نية والدته وأسماه «بئر أم سعد» ، وجعلها وقفاً للجميع .

على أن الصدقة الجارية هي ليست فقط أن الشخص عندما يموت يتذكره أهله ورفاقه وقيمون له صدقة جارية ، بل أن كل فرد يستطيع أن يقوم بهذا العمل الخير في حياته ، وأن يقوم مثلاً بحفر بئر أو شق قناة من ماله الخاص ، ووضعها تحت تصرف عموم الناس . فهو يستفيد معنوياً من هذه الصدقة الجارية طالما هو حي ، كما أن خيرات هذه الصدقة الجارية تصله بعد مماته ، وتسجل في صحيفة أعماله طالما أنها مستمرة ويستفيد منها الناس . وهذا ما جاء في الحديث التالي المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام :

(عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال : صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته إلى يوم القيامة»^(١) .

دعاء الولد الصالح :

أما في الجملة الثالثة من الحديث الشريف الذي ذكرناه آنفاً فيقول فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أن ثالث خير يصل إلى الإنسان بعد موته هو دعاء الولد الصالح ، وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يريد من خلال هذه الجملة أن يحث المسلمين على حسن تربية أبنائهم ، ويفهمهم بأن الولد الصالح هو مبعث فخر واعتزاز للوالدين ليس فقط في أثناء حياتهما ، بل أن الوالدين يستفيدان من هذا الولد الصالح حتى بعد مماتهما ، حيث أن دعاء الولد الصالح يسجل كعمل خير في صحيفة أعمال الوالدين (في عالم الآخرة) ، الأمر الذي يساعد على تخفيف العذاب عنهما أو يزيدهما علواً في الدرجات يوم القيامة .

عمل الخير الذي يقوم به الأبناء :

استناداً إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة فإن الفائدة التي تعود على الأب والأم المتوفيين من ولدهما الصالح لا تقتصر على دعاء الخير الذي يدعو

(١) الخصال للشيخ الصدوق : صفحة ١٥١ .

به الولد لهما ، بل يتعداه إلى الأعمال الصالحة التي يقوم بها هذا الولد الصالح نتيجة حسن تربية والديه له ، وذلك بدافع شعوره بواجبه الديني والإنساني .

إنقاذ الوالد من العذاب :

هذه الأعمال الصالحة أيضاً تنفع الوالدين ، بحيث أن هذه الأعمال الصالحة من شأنها أن تغير من أوضاع الأب الذي يعاني من عذاب البرزخ نتيجة كثرة ذنوبه ، وتنقذه من هذا العذاب الإلهي .

عن النبي ﷺ قال : «مرَّ عيسى ابنُ مريمَ بقبرٍ يُعَذَّبُ صاحِبُهُ ثمَّ مرَّ به من قَابلٍ فإذا هو ليس يُعَذَّبُ فقال يا ربِّ مررتُ بهذا القبرِ عامَ أوَّلِ وكان صاحِبُهُ يُعَذَّبُ ثمَّ مررتُ به العامَ فإذا هو ليس يُعَذَّبُ . فأوحى اللهُ إليه : يا روحَ اللهِ إنَّه أدركَ له ولدٌ صالحٌ فأصلحَ طريقاً وآوى يتيماً فغفرتُ له بما عملَ ابنُهُ» (١) .

نستنتج من مجموع بحثنا حول تسجيل أعمال الإنسان ، بأن كل شخص مكلف بالغ له صحيفة أعمال خاصة به تسجل فيها كافة الأعمال الصالحة أو السيئة التي يرتكبها هذا الشخص في الدنيا - كبيرة كانت هذه الأعمال أم صغيرة - ، وسواء قام بها الشخص في الخفاء أو في العلن ، وأمام الناس . وعندما يموت الشخص يغلَق ملفه ولا يضاف إليه شيء ، ولكن ، وكما بيَّنا من قبل ، فإن بعض الأشخاص بعد موتهم تُدرج في صحائف أعمالهم أعمال صالحة أو سيئة . وهؤلاء هم الذين أنشأوا خلال حياتهم سنةً حسنةً أو أقاموا صدقةً جاريةً وهم يستفيدون من نتائجها بعد مماتهم ، حيث تُضاف على أعمالهم الصالحة كما أن الذين يضعون سنةً سيئةً ، فإن ذنوب الذين يتبعون تلك السنة تسجل أيضاً في صحيفة أعمال الذين وضعوا تلك السنة السيئة .

(١) سفينة البحار : المجلد الثاني مادة : (يتم) صفحة ٧٣٠ .

أوجه الإشتراك بين الفرد والأمة :

وهناك آيات قرآنية عديدة تشير إلى موت الإنسان وحلول أجله في الدنيا ، كما أن هناك الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن قيامة الفرد وصحيفة أعماله ، والشهود على ما قام به من أعمال في الدنيا ومحاسبة الإنسان .

ولكن إلى جانب هذه الآيات هناك آيات مماثلة تتحدث عن الأمم المختلفة (التي تعاقبت على هذه الدنيا) ، وأعمار هذه الأمم وأجالها في الدنيا ، وصحائف أعمالها والشهود على أعمالها ومحاسبتها في الآخرة .

أجل الأفراد والأمم :

ولتوضيح هذا الأمر نشير فيما يلي إلى بعض تلك الآيات بعد وضعها إلى جانب بعضها البعض لكي تتم المقارنة بينها :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾^(١) .

وحول موت الأمم المختلفة يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾^(٢) .

وعن موعد الموت وحلول الأجل يقول القرآن الكريم :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾^(٣) .

وحول آجال الأمم المختلفة يقول (عز وجل) :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾^(٤) .

(١) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٥٧ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٤ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٤٥ .

(٤) سورة الحجر ؛ الآية : ٥ .

صحيفة عمل الفرد والأمة :

وحول صحيفة عمل الإنسان يقول القرآن الكريم :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (١) .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ﴾ (٢) .

وحول شهود الإنسان يوم القيامة يقول القرآن الكريم :

﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ (٣) .

أي يأتي كل فرد يوم القيامة ومعه ملك يقوده إلى مسرح القيامة ، ويشهد عليه في مواقف الحساب .

الشاهد على الفرد والأمة :

وحول الشهود على الأمة يقول (جلّ وعلا) :

﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٤) .

يقول الراغب الأصفهاني (٥) :

(الأمة كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما ، إما دين واحد أو زمان ومكان واحد) .

وحدة الأسلوب :

إن أي مجتمع يتمتع بوحدة المنهج والأسلوب على صعيد الأفكار والمعتقدات الوطنية والثقافة الإجتماعية والمعتقدات الدينية وعلى صعيد

(١) سورة الإنشقاق ؛ الآيتان : ٧ و ٨ .

(٢) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٨ .

(٣) سورة ق ؛ الآية : ٢١ .

(٤) سورة القصص ؛ الآية : ٧٥ .

(٥) المفردات في غريب القرآن مادة : (أمم) .

العادات والتقاليد الشعبية بشكل عام ، فإن ذلك المجتمع يطلق عليه اسم الأمة .

وكل أمة - بحد ذاتها - لها كيان مستقل . والأفراد الذين يخضعون لأحكام ومبادئ ذلك المجتمع هم بمثابة أعضاء تلك الأمة .

«المجتمع يتضمن قوة اجتماعية ونفسية لا يتمتع بها الأفراد لوجودهم وهذه القوة هي عبارة عن الثقافة والعادات والتقاليد . على أن العادات والتقاليد الاجتماعية هي عبارة عن تلك الوسائل والأدوات التي يضعها المجتمع تحت تصرف الأفراد من أجل تطبيق تلك السنن والتقاليد الاجتماعية ، وهذه العادات والتقاليد هي التي تفرض أسلوب التصرف الاجتماعي على الفرد ، ولهذا يجب اعتبارها (العادات والتقاليد) ما فوق الفرد»^(١) .

موقع الفرد في المجتمع :

«إننا نفوس في محيطنا الاجتماعي كخلايا في داخل الجسم ، ونحن كهذه الخلايا لا نستطيع أن نكون بمنأى عن تأثير ظروف البيئة علينا ، وبالنسبة لجسم الإنسان ، فإن البشرة هي بمثابة سياج يحافظ على أجزاء الجسم الداخلية . وكذلك هناك الطبقة المخاطية التي تحافظ على الأمعاء في داخل الجسم ، ولكن حدود الشعور والإدراك مفتوحة على الدوام ، بحيث أن النفس الإنسانية هي دائماً معرضة للهجوم من قبل كل أنواع العوامل الفكرية والمعنوية للبيئة الاجتماعية ، وبالتالي فإن النفس الإنسانية تصبح سليمة أو مريضة تبعاً لطبيعة تلك العوامل الفكرية والمعنوية»^(٢) .

إن الأفراد الذين لهم معتقدات وأفكار مشتركة يتمتعون بشخصية

(١) جامعة شناسي ، (معرفة المجتمع) صاموئيل كينغ ، صفحة ٣٩٢ .

(٢) إنسان ناشاخته (الإنسان ذلك المجهول) ، صفحة ١٤٣ .

جماعية ، وبالتالي فهم بمثابة أمة واحدة . فمثل هذا المجتمع هو كالفرد له حياة وموت ، وطالما أن أوجه الإشتراك موجودة بين أفرادها ، فإن تلك الأمة حية من خلال حياتها الجماعية . ومتى ما زالت تلك الأوجه المشتركة ، فإن عمر المجتمع سينتهي أيضاً ، وبالتالي تموت الأمة حتى لو بقي أفرادها أحياءً يواصلون حياتهم الفردية .

خصائص عرب الجاهلية :

وعلى سبيل المثال ، فإن عرب الجاهلية كانوا أمة وكانت لهم حياة جماعية ، والأوجه المشتركة التي هي سبب توحيدهم كانت تهيمن على أفكارهم وتتحكم بتصرفاتهم وممارساتهم . وهم - في غالبيتهم - كانوا يعبدون الأصنام ويقدمون لها القرابين من الحيوانات ، وأيضاً من الإنسان^(١) في بعض الأحيان ، وكانوا يدفنون بناتهم وهنَّ أحياء ، ويقامرون بنسائهم أو يبيعنهنَّ في الأسواق ويتهكون الحق والعدالة عن علم أو عن غير علم ومن منطلق القوة .

وخلاصة القول : أن مجموعة من الأمور كانت مقبولة من قبل العرب آنذاك ، وهذه الأمور جعلت منهم أمة . ولكن ظهور الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وانبثاق فجر الإسلام قد غير الأوضاع (التي كانت سائدة في عصر الجاهلية) وقضى على العادات والتقاليد التي كانت سائدة لدى عرب الجاهلية ، فتحطمت الأصنام وزالت ظاهرة القرابين التي كان يقدمها المشركون لأصنامهم ، ومنع وأد البنات ، وتمتعت النساء بحقوقهن الإجماعية ، وزالت ظاهرة المقامرة بالنساء وبيعهنَّ في الأسواق ، وحلَّ العدل والإنصاف محلَّ منطلق القوة ، حيث بات الضعفاء من الناس يتمتعون بالحق والعدالة في ظل القانون (الإسلامي الإلهي) .

والخلاصة : أن أمة العرب الجاهلية قد حان أجلها مع بزوغ فجر ثورة الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه ، وزالت تلك الخصائص التي كانوا يمتازون بها ،

(١) حيث كانوا يذبحون شخصاً ما ويقدمونه قرباناً لأصنامهم وآلهتهم . (. المترجم) .

وقضى الإسلام على البعض من أولئك العرب .

ورغم أن أفراد أمة الجاهلية الذين هم بمثابة أعضاء في جسد المجموعة لا زالوا على قيد الحياة ، ولكن لم يبق أي أثر وأي ذكر لأمة العرب الجاهلية ، لأن معيار وحدة أفراد تلك الأمة قد زال وتلاشى ، فبعضهم اعتنق الإسلام بشكل واقعي ، وبعضهم اعتنق الإسلام بشكل ظاهري . أما في باطنهم فلم يؤمنوا بالإسلام .

محاكمة الفرد والأمة :

وكما أن الأشخاص مسؤولون أمام الله عن الأعمال التي يرتكبونها ويحاسبون عليها (يوم القيامة) ، فكذلك الحال بالنسبة للأمم المختلفة ، فهي مسؤولة بشكل جماعي عن أفكارها وأعمالها أمام الله ، ولكن مع فارق واحد هو أن الأشخاص يحاكمون يوم القيامة بصورة فردية وكل واحد على حدة ، أما محاكمة الأمم فتتم بصورة جماعية .

وحول محاكمة الأفراد يقول القرآن الكريم :

﴿ وَكُلُّهُمْ عِندَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَرْدٌ ﴾^(١) .

ويقول (سبحانه وتعالى) أيضاً :

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةً ﴾^(٢) .

والفارق الآخر بين محاكمة الأفراد والأمم هو أنه في المحاكمات الفردية كل إنسان يستلم بنفسه صحيفة أعماله ، فالبعض يستلم صحيفة أعماله بيده اليمنى والبعض يستلمها بيده اليسرى . وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَابِي * ... وَأَمَّا مَنْ

أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ﴾^(٣) .

(١) سورة مريم ؛ الآية : ٩٥ .

(٢) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٨ .

(٣) سورة الحاقة ؛ الآيتان : ١٩ و ٢٥ .

صحيفة أعمال الأمة :

ولكن كتاب (صحيفة أعمال) الأمة لا يسلم يوم القيامة إلى شخص معين ، بل إن الأمة تُدعى إلى كتابها ، وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

أما بالنسبة للذنوب التي يرتكبها الأفراد ، فإن كل شخص لوحده يكون مسؤولاً عن أعماله ، حيث لا علاقة بين حساب الأب وحساب الابن ، أو الأم والابن ، أو الأخ والأخت ، أو الأخت والأخ ، فكل واحد من هؤلاء حسابه يوم القيامة يختلف عن حساب الآخر ، حيث أن صحيفة أعمال كل شخص تتعلق به وحده . أما الذنوب التي ترتكبها أمة ما بشكل فعلي وعملي أو الذنوب التي يقبل بها الرأي العام (أي عامة الناس الذين يشكلون تلك الأمة) ويؤيدها ، هذه الذنوب لها صحيفة أعمال جماعية ، حيث تُحاسب على أساسها الأمة بأكملها وفي وقت واحد .

وَأد البنات :

وعلى سبيل المثال ، فإن وأد البنات هو من مميزات أمة العرب في الجاهلية . فهذه الجريمة هي بالنسبة للأب والأم اللذين دفنا طفليهما حيّة تحت التراب تعتبر ذنباً أو جريمة فردية . ولكن نظراً لأن أمة العرب قبل الإسلام كانت تقبل هذه الجريمة ، وكان الرأي العام يسمح بدفن المولود الأنثى وهو حي ، فإن هذا الذنب يُعتبر ذنباً ارتكبه الأمة أيضاً ، وأن تلك الأمة تُحاكم وتُعاقب لأنها سمعت وأجازت ارتكاب مثل هذه الجريمة اللاإنسانية ، والمخالفة لفطرة الإنسان ، وذلك رغم أن بعض أفراد تلك الأمة لم يكونوا قد تزوجوا خلال حياتهم ، أو أنهم تزوجوا ولكنهم لم ينجبوا إنثاء لكي يقوموا بدفنهن .

(١) سورة الجاثية ؛ الآيتان : ٢٨ و ٢٩ .

الجريمة الرهيبة :

وعن هذا الذنب العظيم الذي كانت الأمة الجاهلة ترتكبه قبل الإسلام يقول القرآن الكريم : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾^(١) .

(قال ابن عباس الموءودة هي المدفونة ، كانت المرأة في الجاهلية إذا هي حَمَلَتْ فكان أوان ولادها حَضَرَتْ حفرة فتمخَّضَتْ على رأس تلك الحفرة ، فإن ولدت جارية رمت بها في تلك الحفرة وإن ولدت غلاماً حبستهُ)^(٢) .

والله (سبحانه وتعالى) لا يذكر اسم القاتل ولا يسأل من هو الذي قتل الموءودة بل إنه يسأل عن عملية القتل ، ويقول : ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ لأن السبب الرئيسي والعامل الأول لوقوع هذه الجريمة هو أمة العرب في الجاهلية ، وليست الأم أو الأب . فلو لم تؤيد أمة العرب قبل الإسلام هذه الجريمة ، ولو لم يوافق عليها ويرضى بها عامة الناس (الرأي العام) لما دُفنت البنات وهنَّ أحياء ، ولما تجرَّأ الآباء والأمهات على ارتكاب مثل هذا العمل المخزي والمخجل ، الذي أصبح وصمة عار على جبين الإنسانية . فالأديان الإلهية لا تمنع فقط ارتكاب الجريمة والمساعدة على ارتكابها والمساهمة فيها ، بل إنها تعتبر مجرد الرضى على الجرائم التي ارتكبتها أو يرتكبها الآخرون وتأييدها ذنب بحد ذاته ، وإن الذين لهم مثل هذا الباطن المنحرف والقلب السيء إنما يستحقون العقاب .

(عن علي بن أبي طالب قال : «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسُ الرَّضَى وَالسُّخْطَ وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثُمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمْ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرَّضَى فَقَالَ سَبْحَانَهُ : ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾^(١) - سورة الشعراء ؛ الآية : ١٥٧ -) .

(١) سورة التكوير ؛ الآيتان : ٨ و ٩ .

(٢) تفسير الدر المنثور : المجلد السادس ، صفحة ٣١٩ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠١ .

الرّضى عن الجريمة :

(عن الرّضا عليه السلام قال : «مَنْ غَابَ عَنِّ أَمْرٍ فَرَضِي بِهِ كَانَ كَمَنْ شَهِدَهُ وَأَتَاهُ»^(١) .

إن صحائف الأعمال التي تُعطى للناس في القيامة هي ليست كالصحف والكتابات المتداولة في الدنيا ، ولا يمكن مقارنتها بالكرّاسات والأوراق المكتوبة من قبل البشر .

على أننا لا نعرف حقيقة صحائف الأعمال كما لا نعرف كيف كتبت ، فهذا أمر مجهول كثير من الأمور المجهولة المرتبطة بعالم القيامة . ولكن يظهر من خلال الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية والروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام ، بأن صحائف أعمال البشر مكتوبة ومنظمة بطريقة يستطيع أي إنسان أن يقرأها في يوم المحشر مهما كانت لغته التي كان يتحدث بها في الدنيا ، وبغض النظر عن العرق أو العنصر الذي ينتمي إليه . وسواء كان هذا الإنسان متعلماً أو أمياً فإنه يقرأ صحيفة أعماله ويطلع على ما هو مدوّن فيها إلى درجة أنه يأتيه النداء :

﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾^(٢) .

سؤال بلا جواب :

وعلى ضوء ما ذكرناه من قبل حول تجسّد الأعمال فإن السؤال التالي يتبادر إلى الذهن وهو : هل أن صحائف أعمال الناس يوم القيامة هي عبارة عن تجسّد وتمثّل الأعمال التي قاموا بها في الدنيا ، حيث يرى صاحب العمل أعماله تلك ويطلع على حسابه ؟ أم أن صحيفة الأعمال هي غير الأعمال المتجسّدة ، وأنها كتاب مجهول ومستقل بذاته يفتح أمام صاحب العمل يوم

(١) سفينة البحار : المجلد الأول ، صفحة ٥٢٥ .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٤ .

الحقيقة أن الإنسان ذو المعرفة المحدودة والذي يعيش في نطاق عالم الطبيعة لا يمكنه الإجابة بشكل قاطع على هذا التساؤل ، وتساؤلات أخرى مماثلة تتعلق بعالم الآخرة النوراني . ولكن بعض العلماء أشاروا إلى أمور وقضايا في هذا المجال استناداً إلى الآيات القرآنية وبعض البحوث العلمية ، نتطرق فيما يلي إلى اثنتين منها :

يقول العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) في دراسة له بعنوان «الحياة بعد الموت» نشرت في كتاب مذكرات الاستاذ الشهيد مطهري :

«إن أعمال الإنسان التي تسجل لصالحه أو ضده هذه الأعمال ليست محسوسة بالنسبة له لأن الحواس تلمس فقط ظاهر الأشياء ، وهذه الحواس لا تدرك عمق وباطن الأمور إلا من خلال الآثار والعلائم التي تنتج عن تلك الأمور . أما النشأة (العالم الآخر) فهو عالم تتكشف فيه كل الأمور المخفية وتخضع فيه للإختبار ويظهر فيه كل شيء ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولهذا السبب يفسر كلمة طائر ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾^(١) بأنها تعني الكتاب أو صحيفة الأعمال التي يجدها الإنسان مفتوحة ومكشوفة أمامه» .

«يقول الله تعالى : ﴿أَحْضِهِ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ - سورة المجادلة ، الآية : ٦ - كما يقول عز وجل ﴿بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ - سورة الأنعام ، الآية : ٢٨ - ففي الآيتين المذكورتين نجد أن كلمتي (أحصى) و(بدا) قد نسبتا إلى الأعمال نفسها ، لأن الكتاب (صحيفة الأعمال) تتضمن الأعمال نفسها أو حقيقتها وليس الخطوط والكتابات التي تشير إلى مفاهيم ودلالات معينة وفقاً لما

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ١٣ .

هو مصطلح ومتفق عليه»^(١) .

إذن ، تلاحظون بأن المرحوم العلامة الطباطبائي يقول : إن صحيفة الأعمال تتضمن الأعمال نفسها أو حقيقتها أما العلامة فيض الكاشاني (رضوان الله عليه) فيصف في كتاب «الكلمات المكنونة» نفس كل إنسان بأنها صحيفة أعماله حيث يقول :

(كل ما يدركه الإنسان بحواسه يرتفع أثره إلى روحه ويجتمع في صحيفة ذاته وخزانة مدركاته ، وكذلك كل مثقال ذرة من خير أو شر يعمله يرى أثره مكتوباً ثمة وسيما ما رَسَخَتْ بسببه الهيئات وتأكّدت به الصفات وصار خُلُقاً ومَلَكَةً ، فإن ذلك مما يوجب خلود الثواب والعقاب ، فكل إنسانٍ نفسه صحيفة أعماله وهو كتاب منظر اليوم عن مشاهدة الأبصار وإنما ينكشف بالموت ورفع ما يورده الشواغل الحسية المعبر عنه بقوله (تعالى) : ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ - سورة التكوير؛ الآية : ١٠ - .

فإذا حان وقت ذلك وهو ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ - سورة الطلاق ؛ الآية : ٩ - صار الغيب شهادة والسّر علانية والخبر عياناً فيقال ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ - سورة ق ؛ الآية : ٢٢ -^(٢) .

صحيفة الأعمال أو كتاب الروح :

إن كل شيء يُدركه الإنسان بحواسه الظاهرية يترك أثراً على روحه ، ومجموعة تلك الآثار تتجمع في صحيفة الذات وخزينة مدركاته . كذلك فإن كل عمل صالحاً كان أو غير صالح صغيراً كان أو كبيراً يقوم به الإنسان ، يُسجّل في صفحة ضميره سيما في الحالات التي تنفذ فيها الحالة الداخلية والصورة الباطنية إلى أعماق الروح ، وتصبح على شكل خُلُقٍ راسخ ومَلَكَةٍ نفسانية . ونفس هذا التخلّق بالملكات الحسنة أو السيئة يُؤدّي إلى خلود الإنسان في الثواب أو العقاب الإلهي .

(١) مذكرات الشهيد مطهري : صفحة ١٥١ .

(٢) كلمات مكنونة : صفحة ١٥٧ .

إذن ، فصحيفة أعمال كل إنسان هي كتاب روحه . وطالما نحن في الدنيا فإن هذا الكتاب يكون مغلقاً وهذه الصحيفة مطوية لا نراها ، ولكن عندما يموت الإنسان يُفتح ذلك الكتاب وتزول العقبات والحواجز الملموسة والمحسوسة ، وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم بعبارة :

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ ، وذلك اليوم هو اليوم الذي تتكشف فيه الأسرار ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ، وتظهر فيه الأمور الغيبية حيث نشاهد الأسرار الخفية والأخبار المسموعة . وفي ذلك اليوم يخاطب الله الإنسان ويقول له : ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (١) .

كما تلاحظون فإن العلامة فيض الكاشاني يرى أن صحيفة عمل كل إنسان هي لوح ضميره وكتاب روحه الذي يتأثر بالأعمال الحسنة والسيئة ، والصفات الخلقية الثابتة والملكات النفسية للفرد . وهذا اللوح مخفي عن الأنظار في الدنيا ، ولكنه يظهر للعيان في الآخرة .

الإطلاع على المصير :

وكما جاء في القرآن الكريم - وأشرنا إلى ذلك من قبل - ، فإن الأشخاص الصالحين يستلمون صحيفة أعمالهم يوم القيامة بإيمانهم ، والأشخاص غير الصالحين والفاسقين يستلمون صحيفة أعمالهم بشمائلهم . ومن خلال توزيع صحائف الأعمال بين اليمين والشمال يتضح مصير كل من المجموعتين ، حيث يطلع كل إنسان - إلى حد ما - على مصيره ومستقبله ، سيما وأن مضمون صحائف الأعمال واضح إلى درجة أن صاحب الصحيفة يستطيع التعرف على مصيره من أول نظرة يلقيها على صحيفة عمله .

(عن خالد بن يحيى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قوله تعالى ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ - سورة الإسراء ، الآية : ١٤ - قال :

(١) سورة ق ؛ الآية : ٢٢ .

«يَذْكُرُ الْعَبْدُ جَمِيعَ مَا عَمِلَ وَمَا كُتِبَ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّهُ فَعَلَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ فَلِذَلِكَ قَالُوا ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ - سورة الكهف ؛ الآية : ٤٩ - «(١) .

كتاب الأبرار وكتاب الفجار :

من المناسب في ختام بحثنا هذا أن نشير إلى أن القرآن الكريم أطلق تسميتين على صحيفة أعمال البشر ، وذلك استناداً إلى صاحب الصحيفة ، حيث وردت في القرآن الكريم عبارة «كتاب الأبرار» ، وعبارة «كتاب الفجار» :
﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمَقْرَبُونَ ﴾ (٢) .

وعن كتاب الفجار يقول القرآن الكريم :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ (٣) .

هذه الكتب توزع يوم القيامة عندما يحين موعد حساب الأفراد ، حيث يعطى الصالحون الأخيار كتابهم بأيمانهم ، وكتاب الفجار يعطى لهم بشمائلهم ، كما ورد ذلك في القرآن الكريم .

إذن ، يتضح من خلال الآيات المذكورة بأن هناك نوعين من صحائف (كتب) الأعمال ، كتاب الأبرار والصالحين وكتاب الفجار والفساقين ، كما أن أصحاب صحائف الأعمال هم مجموعتان : الصالحون الخيرون والأشرار الفاسقون .

ولكن القرآن الكريم عندما يشير إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ،

(١) تفسير البرهان : المجلد الثاني ، صفحة ٤١١ .

(٢) سورة المطففين ؛ الآيات : ١٨ - ٢١ .

(٣) سورة المطففين ؛ الآيات : ٧ - ٩ .

يشير أيضاً إلى المقربين ، وبالتالي يقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاث مجموعات ، كما ورد في الآية الشريفة التالية :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١) .

رمز الطهارة والإخلاص :

هؤلاء المقربون هم الأنبياء وأوصياؤهم وخاصة أولياء الله . فهذه الفئة هي رمز الطهارة والإخلاص والمثل الأعلى لطاعة الخالق ، وهؤلاء هم الذين أفنوا أعمارهم في سبيل إعلاء كلمة الحق وإبلاغ الأوامر الإلهية للناس ، وإنقاذ البشرية من الضلال ، حيث واجهوا في هذا الطريق مصائب جمّة وصعوبات شديدة مُضنية ، حتى أن بعضهم قُتل في هذا السبيل . هؤلاء الأشخاص الشرفاء الأجلاء هم معلمو مدرسة الإنسانية ، وكانوا يُكَلَّفون من قبل الباري (تعالى) في كل عصر وزمان بدعوة الناس إلى دين الله ، وإزالة الأفكار الباطلة والمعتقدات غير الصحيحة من أذهانهم وأفكارهم ، ويطيحون بالإلحاد والشرك بكل أشكالهما ، ويتصدوا للخرافات ، وحث المجتمع والناس على التخلّص بالأخلاق الإنسانية السامية .

هؤلاء المنتجبين من قبل الله والسّباقين إلى طريق الحق والفضيلة ، كانوا - وعلى مرّ العصور والأزمان - مصابيح هداية للبشر وهداة يهدونهم إلى طريق السعادة والفلاح ، وكانوا من أجل القيام بمهمتهم التي كلفهم الله بها ، كالشمعة يحترقون لكي يسترشد الناس ويهتدوا ، ويميزوا بين الحق والباطل ، ويسيروا في طريق الرقي والسموّ الإنساني ليصلوا إلى الكمال الذي يليق بهم .

هؤلاء السابقون والمقربون يتمتعون بصفة قيّمة وهي أنهم طوال فترة

(١) سورة الواقعة ؛ الآيات : ٧ - ١١ .

حياتهم كانوا مطيعين لله طاعة كاملة ، دون قيد أو شرط ، وعلاوة على ذلك فإنهم كانوا يجتهدون ويسعون لإرشاد الناس وحثهم على طاعة الله ، وإنقاذهم من الضلال . هؤلاء الأشخاص الذين هم معلمو الإنسانية ورسول الله وخاصة أوليائه ، كما يصفهم الإمام الصادق عليه السلام ، منزّهون وصالحون إلى درجة أنهم يدخلون الجنة دون حساب يوم القيامة .

(في الكافي عن الصادق عليه السلام : أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الْآيَاتِ . . قَالَ : «فَالسَّابِقُونَ هُمُ الرُّسُلُ اللَّهُ وَخَاصَّةً اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ» (١) .

(١) تفسير الصافي : صفحة ٥١٩ .

المحاضره الثامنة عشرة

النّية وتقييم الأعمال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

تصوروا فرداً إلهياً يؤمن إيماناً حقيقياً بخالق العالم ويوم الجزاء ، ويتبع أنبياء الله المنتجبين ويطبق بإخلاص ما يأمر به الله وما ينهى عنه ، هذا الفرد يعيش في المدينة ، حيث يقوم - إرضاءً لله وبدافع الإمثال للتعاليم الإلهية الدينية - بمساعدة سكان هذه المدينة وببني لهم المستوصفات والمستشفيات ، ويهتّىء جميع الوسائل اللازمة لذلك بنفسه ، ويقدم الأدوية مجاناً للمرضى الفقراء ، ويساعد الضعفاء والمحتاجين بصور وأشكال مختلفة .

والخلاصة : فإن هذا الشخص يقوم بكل الأعمال الصالحة والخيرة في سبيل الله وبنية خالصة ، وكلّهُ أمل برحمة الله ومغفرته يوم الجزاء . وفي المقابل يقدم سكان المدينة كل احترام وتقدير لهذا الفرد الخير تقديراً لخدماته الجليلة القيّمة ، كما أنهم - وتقديراً لمساعداته هذه - يذكرونه بالخير في كل مكان . كما أن هذا الشخص - وانطلاقاً من واجبه الأخلاقي والإنساني - يتقبل كل هذا التقدير من الناس برحابة صدر ويشكر لهم عواطفهم ومشاعرهم تجاهه ، لأن هدفه من وراء كل ما يقدمه من خدمات هو رضى الله ، ولا يتوقع الأجر والثواب

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٩٧ .

إلا من عنده . وإذا جاء يوم لم يذكر فيه الناس أعماله الخيرة ولم يقدرُوا خدماته ، فإن اليأس لا يتسرب إلى قلبه ، ويواصل منهجه وخدماته الصادقة بكل نشاط وشوق ، وأمله الحصول على الأجر الإلهي .

وفي مقابل هذا الشخص الإلهي تصوروا شخصاً مادياً لا يؤمن لا بالله الخالق ولا بيوم الجزاء ، ويعتقد بأن العالم نشأ بطريق الصدفة ، وهذا الشخص يقوم كما قام الشخص الإلهي بإنشاء المستوصفات والمستشفيات لأبناء مدينته ، ويجهزها بكل الوسائل والمستلزمات ، ويقدم الدواء مجاناً للمرضى المحتاجين ، ويمد يد العون للضعفاء والمحتاجين ، ويقوم بأعمال الخير بكل أنواعها ، وهدفه من كل ذلك جلب انتباه الناس إليه ، وتحقيق أهدافه الدنيوية ، وجعل الناس يمجّدونه ويشنون عليه في حضوره وفي غيابه ، بل وينتخبونه نيابة عنهم لتسلم المناصب العليا في الدولة ، ويصوتون إلى جانبه مكافأة له على ما قام به من أعمال خيرة .

وفي الحقيقة يمكن القول بأن هذا الشخص المادي قد عقد صفقة مع أبناء بلده . فأعمال الخير التي قام بها هي بمثابة سلعة قدمها للمجتمع ، وهو يتوقع وينتظر من الناس أن يدفعوا ثمن هذه السلعة ، ويعرضوا له بمختلف الصور عن خدماته التي قدمها لهم .

سؤال وجواب :

وهنا يتساءل البعض : كيف سيكون وضع هذين الشخصين يوم القيامة ؟ هل سيكون لهما نفس الوضع على ضوء الأعمال المماثلة التي قاما بها لصالح الناس ، وبالتالي سيحصلان على أجر وثواب إلهي مماثل ؟ أم أن وضعهما سيكون مختلفاً نتيجة الاختلاف في العقيدة والفكر والنوايا والدوافع ؟ .

طلاب الدنيا وطلاب الآخرة :

والرد على هذا التساؤل الذي يبين القيم المعنوية التي دعا إليها أنبياء الله المذكور بشكل صريح في القرآن الكريم حيث يقول (جلّ وعلا) :

﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا

نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١﴾ .

إن نتيجة أعمال الخير التي قام بها الشخصان المذكوران والمتمثلة في معالجة المرضى وتقديم الدواء المجاني لهم ومساعدة الفقراء والمحتاجين ، هي واحدة من حيث النفع الذي يعود على سكان تلك المدينة من أعمال الخير المذكورة . ولكن النفع الذي يعود على هذين الشخصين نتيجة ما قاما به من أعمال خيرة ليس مماثلاً ومتساوياً ، لأن نواياها كانت تختلف كثيراً ، وبالتالي فإن النفع الذي يعود عليهما من تلك الأعمال سيكون مختلفاً .

خدمة الناس لوجه الله :

الشخص المؤمن عندما يقوم بعمله المقدس ، فإن دوافعه في ذلك تكون روحانية وإنسانية . فهو يقوم ببناء مستوصف أو مستشفى في سبيل الله وإرضاء له ، وهدفه من القيام بهذا العمل الخير هو الحصول على رضی الله عن طريق خدمة خلقه ، والتخلص من قيود الأنانية وحب الذات ، وذلك من خلال محبة الآخرين والإحسان إلى عباد الله ، وتجاوز نطاق الماديات والوصول إلى السمو المعنوي والإقتراب من الكمال اللانهائي ، أي الذات الإلهية المقدسة ، والتحلّي بالقيم الإنسانية في حدود الإمكان ، وبالتالي فإن مثل هذا الشخص تنطبق عليه الآية الكريمة التالية :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

الخدمة إرضاء لهوى النفس :

الشخص المادي الذي يقوم بأعمال الخير ، فإن هدفه من ذلك هو إرضاء ميوله النفسية ، وإشباع غريزة حب الذات لديه ، وتحقيق أهدافه الدنيوية . فهو

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٢٠ .

(٢) سورة النحل ؛ الآية : ٩٧ .

قد قام ببناء المستوصف أو المستشفى إرضاءً لهوى النفس ، ومن أجل التظاهر أمام الآخرين وهو يهدف من وراء هذا العمل جذب الناس إليه ، وكسب مودتهم أكثر فأكثر ، وحثهم على الإشادة به والثناء عليه والتعلق له وذلك من خلال تقديم الخدمات لهم . وعن هذا الطريق يستطيع هذا الشخص أن يرضي شهواته وميوله النفسانية . إن الذي يريد أن يعمر دنياه أكثر فأكثر ويحقق مقاصده وأهدافه المادية ، فليس له حساب عند الله لكي يتوقع وينتظر منه الأجر والثواب .

مثل هذا الإنسان عمله لا يبقى على ألسن الناس إلا قليلاً يصبح بعدها في طي النسيان ولم يعد يذكره أحد . أما الشخص الذي يكون هدفه من عمل الخير مرضاة الله ولا يتوقع أي أجر من الناس ، ويخدم خلق الله في سبيل الله ، فإن عمله يبقى عند الله ، حيث يتمتع صاحبه يوم القيامة بالأجر الأبدي الخالد .

وفي هذا يقول الله (جلا وعلا) :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(١) .

وقال الرسول ﷺ : «الدنيا مزرعة الآخرة» حيث أن الإنسان العامل الذي يمتلك مزرعة هو الذي يغتنم الفرصة المتاحة له فينشر البذور في الأرض في موسم الزراعة لكي يجني المحصول في موسم الحصاد . «أحدث في دنياك لأخرتك»^(٢) .

فالرسول ﷺ يوصي أتباعه ويقول لهم استفيدوا من مزرعة الدنيا طالما أنتم أحياء وانثروا البذور فيها بأعمالكم الصالحة لكي تجنوا محصولكم في الآخرة . وكما نعلم فإن نثر البذور في الأرض المالحة التي لا تتوفر فيها الشروط اللازمة لنمو النبات ، لا يعطي أية نتيجة ولا ينتج عنه أي ثمر ، حيث

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٩٦ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني : مادة : (حَرَثَ) .

أن البذور تفسد في الأرض المالحة وتتلاشى ، ويزول العنصر الحياتي فيها ، ولا يعود هناك أي أثر لها .

النوايا الحسنة والأجر الأخروي :

يقول الإسلام : إن الأعمال الحسنة الخيرة التي يقوم بها الفرد في الدنيا لا يستفيد ولا ينتفع بها صاحبها في الآخرة ، إلا إذا كانت هذه الأعمال صادرة عن شخص مؤمن قام بهذه الأعمال الخيرة في سبيل الله ، وبنية خالصة لوجه الله . أما إذا كان عمل الخير صادراً عن شخص لا إيمان له ينكر وجود الله ولا يؤمن بالقيامة ، فهذا العمل يكون كمن يزرع في أرض مالحة جذباء تفسد فيها البذور الجيدة لا يحصل المزارع على شيء منها في موسم الحصاد وقد ضرب القرآن الكريم مثلين في هذا المجال :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ ﴾^(١) .

أعمال كالسراب :

كما يقول (جلّ وعلا) :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾^(٢) .

نستنتج مما تقدّم بأن الأعمال الصالحة التي يقوم بها أتباع المدارس الفكرية المادية ليس لها قيمة معنوية ، ولا أجر أخروي عند الله ، لأن هؤلاء ينكرون أساساً وجود الله الخالق الحكيم ، كما ينكرون وجود عوالم الغيب ، ويعتقدون بأن العالم نشأ بطريق الصدفة ، وبالتالي فهم ومن خلال أسلوب تفكيرهم هذا ، ينكرون حقوق الله على العباد ، وهي من أكبر وأعظم الحقوق

(١) سورة إبراهيم ؛ الآية : ١٨ .

(٢) سورة النور ؛ الآية : ٣٩ .

على الإطلاق ، بل ويسئون الأدب للبارئ (تعالى) من خلال تصورهم الباطل هذا .

والقرآن الكريم يصف الأعمال الصالحة الخيرة التي يقوم بها هؤلاء بالرماد الذي تهبّ عليه ريح عاصفة أو كسراب في صحراء ، ويعتبر أعمال هؤلاء بأنها لا طائل من ورائها ولا جدوى منها . وهناك البعض من الناس يؤمنون بخالق العالم ويرفضون نظرية الماديين ، ولكنهم مشركون بالله ويجعلون لله شركاء في العبادة كالشمس والقمر والبقر والشجر والأصنام ، وأشياء أخرى يصنعونها بأيديهم ، ويعبدونها من دون الله .

هؤلاء انحرفوا عن طريق الصواب ، لأنهم لم يستعينوا بقوة العقل التي لديهم ، واتبعوا من دون وعي وإدراك العادات والتقاليد السائدة في بيئتهم ومجتمعهم ، ورضخوا لنهج الشرك الذي سار عليه آباؤهم وأمهاتهم الجاهلون . هذه الفئة من الناس حالها حال الماديين الذين ينكرون وجود الله ، تُعذب يوم القيامة ، وأن أعمال الخير التي قاموا بها في الدنيا لا يمكنها أن تزيل وصمة الشرك التي لحقت بهم ، وأن تبرئهم من ذنب عبادة غير الله .

الذنب الذي لا يُغفر :

إنّ ذنب الشرك بالله في العبادة هو كذب أتباع المذهب المادي ، وإنكار وجود الله ، لا يغفره الله ولا يعفو عن صاحبه ، حيث يقول القرآن الكريم :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١) .

وهناك أشخاص إلهيون (يؤمنون بالله) ويظهرون المحبة والولاء لأنبيائهم ، ويعتبرون أنفسهم من أتباع القرآن الكريم ، ولكنهم أيضاً ابتلوا بالشرك في العبادة ، وهذا الشرك ليس ظاهرياً وعلنياً ، بل أنه شرك باطني ومخفي . هؤلاء لا يعبدون الأصنام ولا الشمس ولا القمر ولا أي معبود

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٤٨ .

ظاهري ، ولكنهم يعبدون الصنم الذي في داخلهم ألا وهو هوى النفس ، ويتخذونه إلهاً يعبدونه ويطيعون أوامره طاعة عمياء . هؤلاء جعلوا الدنيا هدفهم الأول ، حيث لا هدف لهم في الحياة سوى الوصول إلى الأمور المادية والحصول عليها ، يجعلون من الدين أداة لتحقيق أهدافهم اللامشروعة ، ويمارسون الشؤون العبادية التي جاء بها الإسلام ، والتي يجب القيام بها خالصة لوجه الله ، من منطلق الرياء والتظاهر ، وذلك بهدف إغفال الناس واكتساب سمعة حسنة بينهم ، وكسب ثقتهم ، والحصول - من خلال ذلك - على المكانة والجاه والثروة ، والأشياء المادية الأخرى .

وقد اعتبر الأئمة عليهم السلام في العديد من الروايات المنقولة عنهم ، اعتبروا الرياء والتظاهر في العبادة بأنه ضرب من الشرك بالله ، وحذروا أتباعهم وشيعتهم من هذه الخدعة والحيلة التي تعتبر عملاً لا إنسانياً منافياً للتوحيد .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «لو أن عبداً عمِلَ عَمَلًا يَطْلُبُ بِهِ وَجَهَ اللَّهِ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ وَأَدْخَلَ فِيهِ رِضَىٰ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ كَانَ مُشْرِكًا»^(١) .

معنى الإخلاص في العمل :

إنَّ القيام والقعود والركوع والسجود والتسبيح والذكر في العبادة ، هي بمثابة الجسم ، والروح هي الإخلاص في النية .

ومعنى الإخلاص هو أن يقوم الإنسان بالعمل العبادي فقط لوجه الله ، وامثالاً لأمر الباري (سبحانه وتعالى) فقط ، ولا يشرك أي أحد غير الله في هذا العمل العبادي الذي يصبح في هذه الحالة فقط ذا قيمة معنوية ، ويؤدي إلى سمو الروح وتكاملها . إنَّ مثل هذه العبادة (الخالصة لوجه الله) هي التي تمنح صاحبها مقاماً محموداً عند الله ، وتجعله ينال الأجر والثواب الإلهي يوم القيامة . والعبادة التي تفتقر إلى النية الخالصة ليس فقط لا تؤدي إلى السمو

(١) وسائل الشيعة : المجلد الأول ، الباب : ١١ ، مقدمة العبادات ، صفحة ٤٩ .

الروحي والمعنوي لدى الإنسان ، بل إنها تقوده إلى مسير الشرك في العبادة وتؤدي إلى تعاسة الإنسان وشقائه .

تنزيه العمل من الدنس :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «كُلُّ عَمَلٍ تَعْمَلُهُ لَهِ فَلَئِكَ نَقِيًّا مِنْ الدَّنَسِ»^(١) .

فأي دنس أسوأ وأقذر من أن يُلَوِّث الإنسان عبادته بالشرك ، ويجعل في مجال العبودية مخلوقاً آخر أمام الخالق العظيم ، ويقوم في وقت واحد بعبادة الإثنين معاً ؟ .

إنَّ العمل العبادي الذي يشوبه الرياء والتظاهر هو مرفوض عند الله ، وأصحاب التظاهر والرياء في العبادة يقال لهم يوم القيامة باستهزاء : اذهبوا وخذوا أجركم من الذي كنتم تعملون (تمارسون أعمالكم العبادية) من أجله .

(عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ يَسْمَعُ أَهْلَ الْجَمْعِ : أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ النَّاسَ قَوْمُوا خذوا أَجْرَكُمْ مِمَّنْ عَمِلْتُمْ لَهُ فَإِنِّي لَا أَقْبَلُ عَمَلًا خَالَطَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا»^(٢) .

فالأعمال العبادية إذا كانت لله وأقيمت بنية خالصة ، فإنها تحظى بقبول الله (سبحانه وتعالى) ، وإنَّ صاحب هذا العمل العبادي ينال الأجر والثواب من الله (تعالى) يوم القيامة . أما إذا كانت نية الشخص العابد غير خالصة لله ، ويشرك غير الله في عمله العبادي ، فإن هذا العمل ليس فقط لا يحصل على الأجر الإلهي ، بل إنَّ صاحب هذا العمل يستحق العقاب بسبب ريائه ، وإشراك غير الله في العبادة .

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ الإخلاص في النية عند العبادة له درجات

(١) جواهر الكلام : المجلد التاسع ، صفحة ١٨٨ .

(٢) مشكاة الأنوار : صفحة ٣١٢ .

مختلفة ، فلا بد أن يكون للثواب الذي يحصل عليه المتعبدون أيضاً درجات متفاوتة ، فالكثير من الأشخاص المتدينين الذين عندهم إيمان حقيقي ، يُؤدّون الفرائض والواجبات الدينية ، ويتجنبون ما ينهى عنه الله بنية خالصة ، هدفهم من ذلك طاعة الله (سبحانه وتعالى) . فهؤلاء يريدون من خلال تنفيذ الأوامر الإلهية أن يكونوا في زمرة الصالحين الطيبين يوم القيامة ، وأن يتمتعوا بنعم الجنة الخالدة ، كما يريدون من خلال تجنب ما ينهى عنه الله أن يعزلوا أنفسهم عن زمرة المذنبين ليكونوا بمنأى عن العذاب الإلهي .

فلا شك بأن هؤلاء مطيعون وخاضعون لله ، والذي يدفعهم لأداء واجباتهم الدينية هو رغبتهم في الحصول على العفو والرحمة الإلهية ، والتخلص من العذاب الإلهي .

ولكن الإخلاص في النية عند أولياء الله العظام هو أرفع وأعلى من هذا بكثير . فهؤلاء هدفهم من العبودية هو الله فقط ، ولا يذكرون إلا الله ، ويتعبدون له وحده ، ويعتبرون هذا التعبّد واجباً - باعتبارهم عبيداً لله - وضرورة يتطلبها الشكر للخالق ، وهؤلاء مُخلصون في عبادتهم لله إلى درجة أنه لا الطمع في الجنة ولا الخوف من النار يؤثر على نيتهم الخالصة لله .

عبادة الأحرار :

(عن الحسين عليه السلام قال : «إِنَّ قوماً عبدوا الله رغبةً فِتْلِكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ وَإِنَّ قوماً عبدوا الله رهبةً فِتْلِكَ عِبَادَةُ العبيد وَإِنَّ قوماً عبدوا الله شكراً فِتْلِكَ عِبَادَةُ الأحرار وهي أفضل العِبَادَةِ»^(١) .

إنّ الذين يتخذون الأعمال العبادية وأعمال الخير الإلهية وسيلة لخداع الناس وتضليلهم ، ويعبدون ذاتهم من خلال ممارستهم الرياء والتظاهر في عبادة الله ، وذلك لكي يجلبوا انتباه الناس إليهم وجعل الآخرين يستحسنونهم ويشيدون بهم ، هؤلاء يجب أن يعلموا بأنهم - ويعملهم الدّيس هذا - إنما

(١) تحف العقول : صفحة ٢٤٦ .

يجعلون أنفسهم عن وعي أو عن غير وعي في موقع المشركين ، ويوم القيامة يُطردون من عند الله وهم أذلاء منتكسون . وهذه النقطة وردت في كثير من الأحاديث الشريفة والروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام :

(عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أوَّلُ من يُدعى يومَ القيامةِ رَجُلٌ جَمَعَ القرآنَ ، يقولُ اللهُ تعالى : ألمَ أعلمك ما أنزلتُ على رسولي ؟ فيقولُ : بلى يا ربَّ . فيقولُ : ماذا أعلمك فيما علّمتك ؟ فيقولُ : يا ربَّ ، كنتُ أقومُ به اللَّيلَ والنَّهارَ . فيقولُ اللهُ : كذبت . وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بل أردتُ أن يُقالَ فلانُ قارىءٌ ، فقد قيلَ اذهبْ فليسَ لك اليومَ عندنا شيءٌ . ثمَّ يُدعى صاحبُ المالِ فيقولُ اللهُ : عبدي ألمَ أنعمَ عليك ؟ ألمَ أوسَّعَ عليك ؟ ، فيقولُ : بلى يا ربَّ . فيقولُ : فماذا عمِلتَ فيما أتيتك ؟ فيقولُ : يا ربَّ كنتُ أصِلُّ الأرحامَ وأتصدَّقُ وأفعلُ . فيقولُ اللهُ : كذبتَ ، بل أردتُ أن يُقالَ : فلانُ جوادٌ ، فقد قيلَ لك اذهبْ فليسَ لك اليومَ عندنا شيءٌ . ويُدعى المقتولُ فيقولُ اللهُ لهُ : عبدي فيم قُلتَ ؟ فيقولُ : يا ربَّ ، فيك وفي سبيلك . فيقولُ اللهُ لهُ : كذبتَ . وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بل أردتُ أن يُقالَ : فلانُ جريءٌ فقد قيلَ ذلكَ . اذهبْ فليسَ لك اليومَ عندنا شيءٌ . ثم قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم : أولئك الثلاثةُ شرُّ خلقِ اللهِ يُسعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يومَ القيامةِ»^(١) .

إذن ، ففي يوم القيامة هناك من يحصلون على الثواب الإلهي ، وهؤلاء هم الذين قاموا بالأعمال الصالحة بنية خالصة لوجه الله . أما المُرأؤون المشركون فهم لم يعملوا لله ولم يدخروا شيئاً عند الله لكي يتوقعوا منه الأجر ، إن أعمال الخير التي قام بها هؤلاء في الدنيا كانت من أجل الناس ، ومن أجل التظاهر واكتساب الشهرة بينهم ، وبالتالي فهم قد حصلوا على أجرهم في الحياة الدنيا ، وهذا الأجر يتمثل في إشادة الناس بهم وتقديرهم لهم .

(١) تفسير الدر المنثور : المجلد الثالث ، صفحة ٣٢٣ .

جزاء المرئيين :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «كلُّ رياءٍ شِرْكٌ ، إنَّهُ مِنْ عَمَلٍ لِلنَّاسِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ عَمِلَ لَلَّهِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ» (١) .

الظاهر الحسن والباطن القبيح :

والإمام علي عليه السلام يستعيز بالله من صفة الرياء المذمومة التي تقود صاحبها في الدنيا إلى الشرك بالله ، وفي الآخرة تحرم صاحبها من الرحمة الإلهية ، ويقول عليه السلام :

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُحَسِّنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُونِ عَلَانِيَتِي وَتُقَبِّحَ فِيمَا أُبْطِنُ سَرِيرَتِي مُحَافِظًا عَلَى رِثَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي فَأَبْدِي لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي وَأُفْضِي إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي تَقَرُّبًا إِلَى عِبَادِكَ وَتَبَاعَدًا مِنْ مَرْضَاتِكَ) (٢) .

أجر العلماء :

البعض يتساءل : أن العلماء الذين يقدمون الخدمات للبشرية ويوفرون السعادة والهناء لبني البشر من خلال اختراعاتهم واكتشافاتهم العلمية . هؤلاء ماذا سيكون مصيرهم يوم القيامة ؟ .

فالبعض من هؤلاء قدموا خدمات قيمة وعظيمة في مختلف فروع الطب ، واكتشفوا أسرار الطبيعة ، وتمكّنوا من إنقاذ عدد كبير من الأطفال والشبان والكبار من الموت المحتم في كل عام ، نتيجة إصابتهم ببعض الأمراض . فهل أن هؤلاء العلماء يحصلون على الأجر الإلهي والثواب الأخروي مقابل خدماتهم العلمية هذه ؟ أم أن أجرهم يقتصر على التقدير والإحترام الذي يلقاه هؤلاء العلماء من قبل الناس في هذا العالم ؟ .

(١) أصول الكافي : ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٢) نهج البلاغة ، الكلمة : ٢٧٦ .

إذن ، يتضح من خلال ما بيّنا من قبل بأن الأجر والثواب الإلهي في الآخرة يكون من نصيب أولئك الذين قاموا بأعمال الخير في الدنيا لوجه الله ، وبنية خالصة له . والظاهر أنّ العلماء عندما يقومون بأبحاثهم ودراساتهم لا يفكرون بخالق الكون ، كما لا يفكرون في خدمة خلق الله في سبيل الله ، بل أنهم يبحثون فقط عن أسرار الطبيعة ، ويحاولون الوصول إلى أهدافهم العلمية . وهؤلاء متى ما حصلوا على نتائج من جهودهم وبحوثهم وتحقيقاتهم تلك ، واكتشفوا الحقائق الخافية والأسرار المجهولة ، فإنّ كل اهتمامهم يتجه نحو أساتذة الفنون والتقنيين والجامعيين في العالم للحصول على الدعم والتأييد والتشجيع والاستحسان منهم ، ويعتبرون ذلك أكبر أجر لهم . وإذا ما حصلوا على جائزة نوبل - التي هي في عصرنا الحاضر أكبر وأعلى وسام علمي فخري - فإنّ هذا بنظرهم وبنظر العلماء الآخرين هو أكبر أجر يحصلون عليه .

وإذا كان الإختراع أو الإكتشاف الذي توصل إليه هؤلاء العلماء مهمّاً جداً ، فإن صيتهم وشهرتهم تعمّان العالم شيئاً فشيئاً ، وتوضع أسماؤهم على مداخل الجامعات ، وتُنصب تماثيلهم داخل المراكز العلمية في العالم ، حيث يحظون باحترام وتقدير الآخرين خلال حياتهم ، كما أنّ الناس يؤدّون مراسم الإحترام والتقدير لعوائل وذوي هؤلاء العلماء بعد مماتهم .

إذن ، فإن العلماء المخترعين والمكتشفين لا يقومون ببحوثهم ودراساتهم العلمية لوجه الله ، ومن أجل خدمة الناس في سبيل الله ، لكي ينتظروا الأجر والثواب من الله يوم القيامة ، ولكن إذا كان هناك عالم إلهي يضع نتائج بحوثه العلمية في خدمة الناس في سبيل الله - وبدون رياء وتظاهر - فإنه - بالطبع - يحصل على أجره الأخرى .

عندما تُحبط الأعمال الصالحة :

وهناك سؤال آخر يطرح نفسه في مجال الأعمال الصالحة والأجر الإلهي في يوم الجزاء وهو : أنه إذا كان هناك شخص يؤمن بالله ويقوم بعمل خير خالصاً لوجه الله ، فهل من الممكن أن يتعرض هذا العمل الصالح - الذي تتوفر فيه الشروط المطلوبة للحصول على الثواب الإلهي - لأية آفة أو خطر من جانب

صاحب العمل نفسه يجعله يحبط ويفقد أثره ؟ أم أن العمل الصالح عندما يقوم به صاحبه بنية خالصة لوجه الله يبقى بمنأى عن أي خطر ، ويظل محفوظاً عند الله إلى الأبد حتى يحين يوم الجزاء ، حيث ينال صاحبه الأجر والثواب الإلهي ؟ .

ورداً على هذا السؤال نقول : إنه من وجهة نظر الدين فإن الأعمال الصالحة يمكن أن تتعرض للخطر (وتمحي من صحيفة أعمال صاحبها) (١) ، وطالما أن صاحب هذه الأعمال موجود في الدنيا ، فإنه قد يرتكب عملاً أو أعمالاً سيئة تزيل أثر أعماله الصالحة ، وتحرمه من الثواب الإلهي ، وهذا ما يعبر عنه بحبط الأعمال ، كما جاء في العديد من الآيات الشريفة والأحاديث والروايات الكثيرة المنقولة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : من قال : (سبحان الله) غرسَ الله له بها شجرةً في الجنة ، ومن قال ، (الحمد لله) غرسَ الله له بها شجرةً في الجنة ، ومن قال : (لا إله إلا الله) غرسَ الله له بها شجرةً في الجنة ، ومن قال : (الله أكبر) غرسَ الله له بها شجرةً في الجنة . فقال رجلٌ من قريش : يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير . قال : نعم ، ولكن إياكم أن تُرسلوا عليها نيراناً فتُحرقوها ، وذلك أن الله عز وجل يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٢) .

ذكر الأعمال الصالحة :

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « الإبقاء على العمل أشد من العمل » قال : وما الإبقاء على العمل ؟ قال : « يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكتب له سراً ثم يذكرها فتمحي فتكتب له علانية ثم يذكرها فتمحي وتكتب له رياءً » (٣) .

(١) المترجم .

(٢) ثواب الأعمال للصدوق ص ٢٦ والآية من سورة محمد ؛ الآية : ٣٣ .

(٣) أصول الكافي : ج ٢ ص ٢٩٧ .

حبوط الأعمال :

فكما أن جسم الإنسان يتأثر خلال فترة حياته في الدنيا بالعوامل الطبيعية ، ويتعرض للتغيير تبعاً للبيئة التي يعيش فيها ، فكذلك هو الحال بالنسبة لروح الإنسان فإنها تتأثر بالعديد من العوامل المختلفة ، وبالتالي فإن فكر الإنسان يتغير وفقاً لتلك العوامل .

وهناك أشخاص كثيرون عاشوا سنين طويلة وهم يؤمنون بالله ويوم الجزاء ، وقاموا خلال سنوات حياتهم بأعمال صالحة وفقاً لتعاليم الإسلام وبنية خالصة لله ، ولكنهم وفي منتصف طريق العمر ينحرفون ويحيدون عن طريق الحق ، وينتهجون سبيل الفساد على صعيد الأخلاق والأعمال أو الممارسات ، وأحياناً يسقطون في مستنقع الكفر والإلحاد ، وذلك بسبب معاشرتهم ومخالطتهم أفراداً لا إيمان لهم (بالله والمعاد والقيم الإلهية)^(١) ، ومطالعتهم للكتب الضارة والمضللة ، وحضورهم مجالس الضلال وأسباب أخرى .

هؤلاء الأفراد سيكون وضعهم مؤسفاً نتيجة لهذا الحدث الفكري والعملية الذي أصابهم حيث تحبط وتمحى كل أعمالهم الصالحة التي قاموا بها خلال سنوات حياتهم ، ويحرمون يوم القيامة من الأجر والثواب الإلهي .

وكما جاء في القرآن الكريم والأحاديث والروايات الإسلامية ، فإن حبوط الأعمال يكون لأسباب عديدة نشير فيما يلي إلى بعضها تنويراً لذهن القارئ الكريم :

الشرك بالله :

السبب الأول : الشرك بالله الواحد الأحد ، حيث يقول (تبارك وتعالى) في القرآن الكريم :

(١) المترجم .

﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) .

الإرتداد عن دين الله :

السبب الثاني : الإرتداد عن دين الله ، حيث يقول (جلّ وعلا) في محكم كتابه :

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢) .

الكفر بآيات الله :

السبب الثالث : الكفر بآيات الله ويوم الجزاء ، حيث يقول (عزّ وجل) في كتابه المبين :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾^(٣) .

قتل دعاة الحق :

السبب الرابع : قتل أنبياء الله والداعين إلى القسط والعدل حيث يقول الله في القرآن الكريم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٤) .

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٧ .

(٣) سورة الكهف ؛ الآيات : ١٠٣ - ١٠٥ .

(٤) سورة آل عمران ؛ الآيات : ٢١ و ٢٢ .

الصدّ عن سبيل الله :

السبب الخامس : الصدّ عن سبيل الله ومعارضة الرسول ﷺ ، حيث يقول (جلّ وعلا) في القرآن الكريم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقَّوْا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾^(١) .

التعلق الزائد بالدنيا :

السبب السادس : الإهتمام بالدنيا وزخارفها وجعلها الهدف الوحيد للإنسان ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) :

﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفًّا إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجِسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبَّطُوا مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) .

(عن النبي ﷺ : «ليجيئنَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ وأعمالُهُم كجبالِ تِهامةٍ فيؤمَّرُ بهم إلى النارِ ، قالوا : يا رسولَ الله مُصَلِّينَ ؟ قال : نَعَمْ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ هِنًا مِنَ اللَّيْلِ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَثَبُوا عَلَيْهِ») ^(٣) .

إنَّ حبوط الأعمال من وجهة النظر المعنوية هو كالأفة التي تصيب الزرع والشجر ، والتي يبادر المزارعون وأصحاب البساتين إلى مكافحتها . فالمزارع يقوم بحراثة الأرض ويزرع البذور في الوقت المناسب ، ويلتزم بكل الشروط اللازمة للزراعة ، فتتمو البذور ويخضر لونها وتكون النواة ، ولكن قبل أن يحين موعد القطاف وجني الثمار ، تأتي صاعقة وتحرق المزرعة وتقضي على المحصول الزراعي . وهناك صاحب بستان عمل سنين طويلة على أرض ميتة

(١) سورة محمد ؛ الآية : ٣٢ .

(٢) سورة هود ؛ الآيتان : ١٥ و ١٦ .

(٣) لآلىء الأخبار : صفحة ٤٦٥ .

وزرع فيها مئات من أشجار الفاكهة ، وقام بسقيها بانتظام ، والتزم بكل الشروط التي تتطلبها زراعة الأشجار ، ولكن قبل أن يحين موعد قطف الثمار يأتي سيل عارم ، فيقتلع الأشجار من جذورها ويذهب بالجهود التي بذلها .

وبالنسبة للأفراد المتدينين الذين أمضوا أعمارهم في العبادة ، وقاموا بالكثير من الأعمال الصالحة بنية خالصة لله ، والتزموا بكافة الشروط المطلوبة لكي تحظى هذه الأعمال الصالحة بقبول ورضى الله ، فإنهم إذا اعتنقوا المبدأ المادي في نهاية أعمارهم ، وأنكروا وجود الخالق ، أو إذا ارتدوا عن الدين وأصبحوا كفاراً ، وناصبوا العدا للنبى ﷺ وعارضوا الأحكام والتعاليم الإلهية التي جاء بها ، فإن مثلهم سيكون كمثل المزارع الذي أحرقت الصاعقة محاصيله ، أو كصاحب البستان الذي اجتاح السيل بستانه واقتلع أشجاره . فهؤلاء تحبط أعمالهم وتصبح كأن لم تكن شيئاً ، وتذهب الجهود التي بذلوها لسنين طويلة أدراج الرياح ، ولن ينالوا يوم القيامة شيئاً من الأجر والثواب الإلهي .

ونشير هنا إلى أن الذنوب الكبيرة جداً كالشرك والإرتداد عن الدين ، تؤدي إلى حبوط جميع الأعمال الصالحة التي قام بها المشرك أو المرتد . ولكن هناك بعض الأعمال يقوم بها الإنسان تؤدي إلى حبوط ذلك العمل بالذات ، وزوال أثر العمل الصالح المتعلق به .

فالأجر الناتج عن إعطاء الصدقة يزول ويحبط نتيجة المن والأذى ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾^(١) . كما أن الأجر الناجم عن الصبر يُحبط نتيجة الجزع ، حيث يقول الإمام علي عليه السلام .

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦٤ .

(إِغْلِبُوا الْجَزَعَ بِالصَّبْرِ ، فَإِنَّ الْجَزَعَ يُحْبِطُ الْأَجْرَ وَيُعْظِمُ الْفَجِيعَةَ) (١) .

حبط الأعمال في الدنيا وفي الآخرة :

من المناسب هنا وفي مجال بحثنا حول حبط الأعمال أن نلفت انتباه القراء الكرام إلى هذه النقطة ، وهي : أن معظم الآيات الواردة في القرآن الكريم حول حبط الأعمال تشير إلى حرمان أصحاب الأعمال من الثواب الإلهي والأجر الأخروي يوم القيامة . ولكن ، وكما بينا ، فإن الآية (٢١٧) من سورة البقرة ، التي تقول بأن الإرتداد أي الكفر بعد الإيمان يؤدي إلى حبط الأعمال ، وكذلك الآية (٣٣) من سورة آل عمران التي تقول بأن قتل الأشخاص الذين يدعون إلى الله ويؤمنون به ويدعون إلى العدل يؤدي إلى حبط الأعمال .

هاتان الآيتان لا تتحدثان فقط عن حبط وضياع الأجر يوم القيامة ، بل أنهما تؤكدان بأن أفراد هاتين المجموعتين إلى جانب حرمانهم من الأجر الأخروي ، فإنهم يُحرمون أيضاً من الثواب في الدنيا ، لأن الإرتداد من وجهة نظر المتدينين وكذلك قتل الداعين إلى القسط والعدل من وجهة نظر عموم الناس ، تترتب عليهما نتائج سيئة وقبيحة إلى درجة أن المرتد والقاتل إذا كانا يحظيان من قبل بالإحترام والتقدير نتيجة الأعمال الصالحة التي قاما بها ، فإن عمليتي الإرتداد والقتل تبطلان أعمالهما الصالحة في نظر الناس ، بحيث أن الذين كانوا حتى أمس يكرمون هؤلاء ويقدرّونهم ، فإنهم اليوم يصدون عنهم ، وينظرون إليهم نظرة تحقير وازدراء . وهذا السقوط الإجتماعي هو بمثابة حبط وضياع لأعمالهم الصالحة في دار الدنيا .

تكفير السيئات :

وفي مقابل حبوط الأعمال الصالحة والخيرة ، هناك في الإسلام تكفير السيئات وإمحاء أثر الذنوب ، أي أن القرآن الكريم يشير من جهة إلى أن بعض

(١) فهرست غرر الحكم : صفحة ٤٣ .

الذنوب هي عند الله كبيرة ومضرة ، إلى درجة أنها تؤدي إلى حبوط الأعمال الصالحة لصاحب تلك الذنوب ، وإمحاء أو إزالة أثر تلك الأعمال الصالحة ، وتحرمه من الأجر والثواب الأخروي .

ومن جهة أخرى يعلن القرآن الكريم بأن بعض الأعمال الصالحة تحظى بأهمية كبيرة عند الله ، إلى درجة أنها تؤدي إلى التكفير عن ذنوب الشخص الصالح ، فيغفر الله ذنوبه السابقة ويمحو آثارها .

إمحاء الذنوب :

وهناك في القرآن الكريم آيات كثيرة حول التكفير عن الذنوب ، نشير فيما يلي إلى بعض تلك الآيات التي تتضمن بعض الأسباب التي تؤدي إلى التكفير عن ذنوب الإنسان :

أولاً : إيمان الكفار والمشركين ، حيث يقول القرآن الكريم :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(١) .

الذنوب التي تسبق اعتناق الإسلام :

إن التكفير عن سيئات الذين يعتنقون الإسلام لا يختص به أهل الكتاب دون غيرهم ، بل أن المشركين أيضاً يشملهم هذا الفيض الإلهي . فقد جاء في الحديث الشريف :

«الإسلامُ يَجِبُ ما قبلَهُ وإنْ جَلَّ»^(٢) .

أي أن الشخص عندما يعتنق الإسلام ، فإن كافة ذنوبه السابقة من شرك وكفر وغيرها من الذنوب والمعاصي الأخرى تمحى ويكفر له عنها مهما كانت هذه الذنوب كبيرة .

(عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عليه السلام قَالَ : إِنَّ نَاساً أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم بَعْدَ مَا

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٦٥ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ١٥٣ .

أسلموا فقالوا : يا رسول الله أيؤخذ الرجل منا بما كان عمِل في الجاهلية بعد إسلامه ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : من حسن إسلامه وصحَّ يقين إيمانه لم يأخذه الله تبارك وتعالى بما عمِل في الجاهلية ، ومن سَخفَ إسلامه ولم يصحَّ يقين إيمانه أخذه الله تبارك وتعالى بالأول والأخر» (١) .

التكفير عن الذنوب بالاستشهاد :

ثانياً : القتل في سبيل الله ، حيث يقول (عز وجل) :

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (٢) .

التكفير عن الذنوب الصغيرة :

ثالثاً : تجنب الذنوب الكبيرة :

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (٣) .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ...﴾ قال : «الكبائر ، التي أوجب الله عز وجل عليها النار» (٤) .

توبة القلب واللسان :

رابعاً : التوبة الحقيقية والعودة إلى الله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ (٥) .

(١) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ٤٦١ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٩٥ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ٣١ .

(٤) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٢٧٦ .

(٥) سورة التحريم ؛ الآية : ٨ .

(عن أبي عبدالله (الصادق) عليه السلام قال : «التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَكُونَ بَاطِنُ الرَّجُلِ كظَاهِرِهِ وَأَفْضَلُ» (١) .

قاطع الطريق التائب :

(عن أبي حمزة الثُماليِّ عَن علي بن الحسين صلواتُ الله عليهما قال :
«إِنَّ رَجُلًا رَكِبَ الْبَحْرَ بِأَهْلِهِ فَكَسِرَ بِهِمْ فَلَمْ يَنْجُ مِمَّنْ كَانَ فِي السَّفِينَةِ إِلَّا
امْرَأَةُ الرَّجُلِ فَإِنَّهَا نَجَتْ عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْوَاحِ السَّفِينَةِ حَتَّى أَلْجَأَتْ عَلَى جَزِيرَةٍ
مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ وَكَانَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ رَجُلٌ يَقَطُّعُ الطَّرِيقَ وَلَمْ يَدَعْ لِلَّهِ حُرْمَةً إِلَّا
انْتَهَكَهَا ، فَلَمْ يَعْلَمْ إِلَّا وَالْمَرْأَةُ قَائِمَةٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهَا فَقَالَ : إِنْ سِئْتِ
أَمْ جَنِيَّةٌ ؟ فَقَالَتْ : إِنْ سِئْتِ ، فَلَمْ يَكَلِّمْهَا كَلِمَةً حَتَّى جَلَسَ مِنْهَا مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنْ
أَهْلِهِ ، فَلَمَّا أَنْ هَمَّ بِهَا اضْطَرَبَتْ ، فَقَالَ لَهَا : مَا لَكَ تَضْطَرِبِينَ ؟ فَقَالَتْ :
أَفْرَقُ (١) مِنْ هَذَا - وَأَوْمَأَتْ بِيَدِهَا إِلَى السَّمَاءِ - . قَالَ : فَصَنَعْتَ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟
قَالَتْ : لَا وَعِزَّتِهِ ، قَالَ : فَأَنْتِ تَفْرَقِينَ مِنْهُ هَذَا الْفَرْقَ وَلَمْ تَصْنَعِي مِنْ هَذَا شَيْئًا
وَإِنَّمَا اسْتَكْرَهَكَ اسْتَكْرَاهَا فَأَنَا وَاللَّهِ أَوْلَى بِهَذَا الْفَرْقِ وَالْخَوْفِ وَأَحَقُّ مِنْكَ قَالَ :
فَقَامَ وَلَمْ يَحْدِثْ شَيْئًا وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَلَيْسَتْ لَهُ هَمَّةٌ إِلَّا التَّوْبَةَ وَالْمَرَاجِعَةَ فَبَيْنَا
هُوَ يَمْشِي إِذْ صَادَفَهُ رَاهِبٌ يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ ، فَحَمَيْتَ عَلَيْهِمَا الشَّمْسُ فَقَالَ
الرَّاهِبُ لِلشَّابِّ : ادْعِ اللَّهَ يَظْلِنَا بِغَمَامَةٍ ، فَقَدْ حَمَيْتَ عَلَيْنَا الشَّمْسَ ، فَقَالَ
الشَّابُّ مَا أَعْلَمُ أَنَّ لِي عِنْدَ رَبِّي حَسَنَةً فَأَتَجَاسِرُ عَلَى أَنْ أَسْأَلَهُ شَيْئًا ، قَالَ :
فَادْعُوْنَا أَنَا وَتَوْمِنُ أَنْتِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَقْبَلَ الرَّاهِبُ يَدْعُو وَالشَّابُّ يَوْمِنُ فَمَا كَانَ
بِأَسْرَعٍ مِنْ أَنْ أَظْلَتَهُمَا غَمَامَةٌ فَمَشِيَ تَحْتَهَا مَلِيًّا مِنَ النَّهَارِ ، ثُمَّ تَفَرَّقَتِ الْجَادَّةُ
جَادَّتَيْنِ ، فَأَخَذَ الشَّابُّ فِي وَاحِدَةٍ وَأَخَذَ الرَّاهِبُ فِي وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا السَّحَابَةُ مَعَ
الشَّابِّ ، فَقَالَ الرَّاهِبُ : أَنْتَ خَيْرٌ مِنِّي لَكَ اسْتُجِيبَ وَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي ،
فَأَخْبَرَنِي مَا قِصَّتُكَ . فَأَخْبَرَهُ بِخَبْرِ الْمَرْأَةِ ، فَقَالَ : غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى حَيْثُ

(١) معاني الأخبار : صفحة ١٧٤ .

(٢) الفرق بالتحريك : الخوف .

دَخَلَ الخَوْفُ فَانظُرْ كَيْفَ تَكُونُ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ»^(١) .

فهذا الرجل المذنب قاطع الطريق عاد إلى صوابه متأثراً بالحالة النفسية لتلك المرأة المؤمنة ، وتاب إلى الله بقلبه ولسانه ، والله (سبحانه وتعالى) - وفقاً لما وعد به عباده - كفر عن هذا الشاب ذنوبه واستجاب دعاءه وقبل توبته .

الصدقات الواجبة والمستحبة :

خامساً : الصدقة غير الظاهرة لوجه الله ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) :

﴿إِنْ تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢) .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عز وجل : ﴿إِنْ تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ﴾ قال : «يعني الزكاة المفروضة . قال : قلت ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ﴾ قال : يعني النافلة إِنْهُمْ يَسْتَجِبُونَ إِظْهَارَ الْفَرَايِضِ وَكْتِمَانَ النَّوَافِلِ»^(٣) .

(عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «كَلَّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَإِعْلَانُهُ أَفْضَلُ مِنْ إِسْرَارِهِ وَمَا كَانَ تَطَوُّعًا فَإِسْرَارُهُ أَفْضَلُ مِنْ إِعْلَانِهِ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا حَمَلَ زَكَاةَ مَالِهِ عَلَى عَاتِقِهِ فَقَسَمَهَا عَلَانِيَةً كَانَ ذَلِكَ حَسَنًا جَمِيلًا»^(٤) .

الصدقة المعلنة لترغيب وتشجيع الآخرين :

وفي بعض الأحيان ، يقوم شخص وجيه يحترمه الناس ، يقوم - في حالات خاصة - بدفع مبالغ مستحبة (صدقات) بصورة علنية لكي يرى ذلك

(١) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٦٩ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧١ .

(٣) تفسير البرهان : المجلد الأول ، صفحة ٢٥٦ .

(٤) تفسير الصافي : صفحة ٧٩ .

الآخرون ويفعلون مثله ، وبالتالي ينتشر عمل الخير هذا ويمارسه أفراد المجتمع . وإذا كان هذا هو الهدف ، فإن القيام بهذا العمل بصورة علنية أولى من القيام به بصورة سرية ومخفية ، حيث يقول الرسول ﷺ :

(«عَمَلُ السِّرِّ أَفْضَلُ مِنَ الْعَلَانِيَةِ وَالْعَلَانِيَةُ أَفْضَلُ لِمَنْ أَرَادَ الْإِقْتِدَاءَ بِهِ»)(^١) .

وقد تبين من خلال الآيات الكريمة التي أشرنا إليها من قبل ، أن هناك العديد من الأسباب التي تؤدي إلى التكفير عن المعاصي وإمحاء الذنوب من قبل الله (سبحانه وتعالى) ، ومن بين هذه الأسباب الصدقة المخفية (أي التي تُدفع سراً) ، ولكن هناك اختلاف كبير بين آية الصدقة والآيات الأخرى ، وهو أن آية الصدقة وردت فيها كلمة «مِن» التمييزية ﴿إِنْ تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتِ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ - سورة البقرة آية ٢٧١ - ، ولكن في سائر الآيات لم ترد كلمة «مِن» : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا يَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ - سورة التحريم آية ٨ - . وهذا معناه أن الصدقة التي تُدفع سراً رغم أنها عمل مقدس ومهم عند الله ، ولكن قيمتها وأهميتها ليست كقيمة وأهمية إيمان المشركين والكفار بالله ، أو تعرُّض المجاهدين المسلمين للقتل في سبيل الله ، أو التوبة النصوحة من قبل المذنبين ، فهذه الأعمال الثلاثة هي أعمال قيِّمة ومهمة إلى درجة أن الله (تعالى) يعفو بواسطتها عن كافة ذنوب أصحاب تلك الأعمال ، ويمحو كافة معاصيهم من صحائف أعمالهم . ولكن الصدقة التي تُدفع سراً ، فإنها تُؤدِّي إلى التكفير عن بعض ذنوب الشخص الذي يعطي تلك الصدقة ، وأن الله يعفو بواسطة هذه الصَّدقة عن بعض ذنوب أصحاب تلك الصدقات .

الاستقرار النفسي نتيجة حبوط وتكفير الأعمال :

ونستنتج مما ذكرنا أن حبوط الأعمال والتكفير عنها في الإسلام ، هاتيان

(١) تفسير الدر المنثور : المجلد الأول ، صفحة ٣٥٣ .

متصلان ومستمران ، بإمكانهما - من الناحية المعنوية - أن يؤثر على أعمالنا الصالحة والسيئة ، وأن يغيرا من وضعنا أمام الله من حيث الثواب والعقاب . فالأمل بالتكفير عن الذنوب والخوف من حبوط الأعمال الصالحة يمنح الأشخاص المؤمنين حالة من الإستقرار النفسي ، ويحافظ على أفكارهم من الوسواس التي تبعث على اليأس ، والتصورات التي تثير الغرور وتجعلهم يعيشون بين الخوف والرجاء الذي هو من ضرورات العقيدة الإسلامية ، ومصدر سعادة مادية ومعنوية لأبناء البشر .

نور الخوف والأمل :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : كان أبي يقول : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ : نُورٌ خَيْفَةٌ وَنُورٌ رَجَاءٌ لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَيَّ هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَيَّ هَذَا) (١) .

نحن نعلم بأن النجاح والموفقية في شؤون الحياة المختلفة هو من نصيب أولئك الذين يعيشون على الدوام بين الأمل والخوف ، ولا يتعدون حدود الاعتدال خطوة واحدة ، فالمزارع يجب أن يعيش بين الأمل والخوف فيما يخص الزراعة ، حيث قوة الأمل عند المزارع تجعله يضحى بما عنده من بذور وينشرها في الأرض ، كما أن خوفه من الجفاف والآفات الزراعية يجعله لا يغفل عن زرعه ويراقب مزرعته . وكذلك الشخص المريض فإنه يجب أن يعيش بين الأمل والخوف ، حيث أن الأمل بالعلاج والشفاء يجعله يذهب إلى الطبيب ويتبع تعليماته ، كما أن الخوف من استفحال المرض يجعله يلتزم ببرنامج العلاج بدقة ويتجنب كل ما هو مُضِرُّ له ولصحته . كما أن الطالب يجب أن يكون بين الأمل والخوف لكي يذهب إلى المدرسة ويستمع إلى ما يقوله المعلم أملاً في اكتساب وتحصيل العلم ، ويطالع دروسه ولا يقضي عمره في الكسل والبطالة خوفاً من أن يبقى أمياً .

(١) أصول الكافي : ج ٢ ص ٧١ .

وخلص القول : أن أبناء البشر لا يستطيعون الوصول إلى أهدافهم الصحيحة والمنطقية في الحياة الدنيا إلا متى أصبحوا بين الخوف والرجاء ، وسلكوا طريقاً بين الخوف والأمل ، لأن الخوف بدون أمل يؤدي إلى اليأس والتعاسة ، كما أن الأمل بدون خوف يؤدي إلى الغرور والإستعلاء ، وكلاهما (أي الخوف بدون أمل والأمل بدون خوف) يؤديان بالإنسان إلى السقوط والضياع . والبرنامج الذي يتبعه الإسلام لتأمين السعادة المعنوية للناس يعتمد على هذا الأساس . فالمسلمون الحقيقيون وأتباع القرآن الكريم الحقيقيين يجب أن يكونوا دائماً بين الخوف والرجاء ، وأن يوازنوا بين هاتين الحالتين الروحيتين ، بحيث لا يجعلوا الأمل والرجاء يقودهم إلى الغرور ، ويسوقهم نحو الذنوب والرذيلة والمفاسد ، وفي نفس الوقت لا يجعلوا الخوف يسبب لهم اليأس ، مما يجعلهم يفقدون الرغبة والحافز لأداء واجباتهم الدينية .

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «أرجُ الله رجاءً لا يُجرُّك على معصيته ، وخَفِ الله خوفاً لا يُؤيسُك من رحمته»^(١) .

إن معيار الفكر الإسلامي والتفكير القرآني هو الأمل برحمة الباري (تعالى) ، والخوف من غضبه وعذابه . فوجود هاتين الحالتين في جميع الأحوال أمر مهم بالنسبة للمسلمين ، إلى درجة أن الأئمة عليهم السلام اعتبروا فقد المسلم لأحدهما بأنه ذنب كبير .

(عن عبد الله بن سنان قال : سَمِعْتُ أبا عبد الله الصَّادِقِ عليه السلام يَقُولُ : «إِنَّ مِنَ الْكِبَائِرِ عُقُوقَ الْوَالِدِينَ وَالْيَأْسَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَالْأَمْنَ لِمَكْرِ اللَّهِ»^(٢) .

إن نفس الإنسان وبدنه متحدان ، وهذا الإتحاد (بين النفس والبدن) يجعل الروح تترك أثرها على البدن باستمرار ، حيث يتأثر البدن (الجسم) بالروح (النفس) . وعلى هذا الأساس فإن جميع حالاتنا وملكاتنا النفسانية

(١) مشكاة الأنوار : صفحة ١١٨ .

(٢) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٢٧٨ .

كالأمل أو اليأس ، والشجاعة أو الخوف ، والكرم أو البخل ، وحسن النية أو سوء النية ، والحب أو البغض ، والصدقة أو العدا ، وبصورة عامة فإن كافة صفاتنا وسجاياتنا الروحية سواء كانت حسنة وجيدة أو مذمومة وسيئة . تؤثر على أبداننا وعلى أقوالنا وتصرفاتنا ، بحيث تجعل أعمالنا وتصرفاتنا متناسبة ومتناسقة معها (أي مع تلك الصفات الروحية) .

كذلك فإن أعمالنا البدنية تؤثر على روحنا ، وتصيغ حالتنا النفسانية فإذا كانت أفعالنا وأقوالنا حسنة تبعث على السعادة ، فإن صورتنا النفسانية تصبح صورة إنسانية حسنة ، ومثل هذه الصورة الإنسانية تقتضي وتستأهل الحصول على الأجر والثواب الإلهي . وإذا كانت أعمالنا وتصرفاتنا البدنية سيئة وتبعث على الشقاء ، فإن صورتنا النفسانية تصبح غير إنسانية وقبيحة ، تستأهل العقاب الإلهي .

إذن ، فإن الحبوط والتكفير الذي تتعرض له أعمالنا الصالحة والسيئة هما تياران ثابتان ودائمان في حياتنا ، حيث أطلعنا القرآن الكريم على ذلك ، وهذان الإتجاهان قد يحدثان نتيجة للتغير الذي يطرأ على نوايانا وأفكارنا وتفكيرنا ، كما أنهما قد يحدثان نتيجة التغير الذي يطرأ على تصرفاتنا وأقوالنا ، وأيضاً قد يكون حبوط أعمالنا أو التكفير عنها نتيجة لمزيج من الأفكار والأعمال معاً . وفي بعض الحالات ينتج عن هذا المزيج حبوط الأعمال الصالحة أو تكفير عن الأعمال السيئة .

وعلى أية حال ، فإن هذا التغير في الأفكار والأقوال أو التصرفات والأعمال يظل أمراً ممكناً حتى آخر لحظة من لحظات حياة الإنسان في هذه الدنيا التي هي دار تكليف وعمل ، إذ من الممكن أن يعود الفرد في آخر يوم من حياته ، بل وفي آخر ساعة من عمره إلى الله في الظاهر وفي الباطن ، وأن يتوب إلى الله توبة نصوحة ، ويطلب العفو من الله بروحه ولسانه ، وبالتالي يعفو عنه الله نتيجة لتوبته الحقيقية ، ويكفر عنه ذنوبه وسيئات أعماله ، ويغادر

الفرد هذه الدنيا وهو في سعادة .

وأيضاً من الممكن أن يميل الشخص في آخر يوم من عمره نحو الكفر والإلحاد ، ويرتد عن دين الله فتحبط جميع أعماله الصالحة ، ويغادر هذه الدنيا وهو في شقاء وتعاسة .

الحرّ بن يزيد الرياحي :

وهناك على مرّ التاريخ نماذج كثيرة لهؤلاء الأشخاص السعداء والأشقياء ، ولكن السعادة التي نالها الحرّ بن يزيد الرياحي في آخر أيام حياته هي سعادة قلّ نظيرها ، لأن عبيد الله بن زياد - ومن أجل تثبيت وترسيخ دعائم حكومة يزيد الظالمة - قد وضع «الحرّ» أمام خطر كبير وذنوب عظيم ، عندما أمره أن يجهز جيشاً ويسدّ الطريق أمام الحسين عليه السلام ويمنعه من العودة ، وقد فعل الحرّ ذلك . وبعد ذلك كُلف بمحاصرة الإمام الحسين في الصحراء ومنعه من دخول الكوفة ، وقد قام الحرّ بهذا العمل أيضاً ، حيث أوقف الإمام في أرض كربلاء ، فاسحاً المجال لقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولكنه سرعان ما انتبه إلى نفسه وعاد إلى رشده ، وأدرك بأنه إنما يسير في طريق الهلاك والشقاء . ولكي يخلص نفسه من أسر بني أمية ، ويترك طريق الباطل الذي سار فيه فإنه تخلّى في اللحظة المناسبة وبكل حزم - عن جميع أمواله ومنصبه وزوجته وأولاده ، وعن جميع الأمور المادية والدينية في سبيل الله ، وتاب إلى الله وانضم إلى الإمام الحسين عليه السلام ، ونال الشهادة وهو يذود عن الإمام ويقاوم دونه ، وفاز بذلك بالسعادة الأبدية .

وخلاصة القول : أن سعادة أو شقاء الإنسان طوال حياته في هذه الدنيا هي باستمرار عرضة للتغيير ، وأن الصورة النفسانية للإنسان أيضاً تتغير وتتبدل . وعندما ينتهي عمر الشخص وتحين ساعة الموت ، حيث ينتقل الإنسان من دار التكليف والعمل إلى عالم الحساب والجزاء ، فإن الصورة النفسانية تأخذ وضعاً ثابتاً ، ويستقر وضع الفرد من حيث السعادة والشقاء ، حيث ينال كل فرد الثواب

أو العقاب وفقاً للحالة التي كان عليها لحظة مغادرته دار الدنيا .

(عن علي بن أبي طالب قال : « إِنَّ حَقِيقَةَ السَّعَادَةِ أَنْ يُخْتَمَ لِلْمَرْءِ لِعَمَلِهِ بِالسَّعَادَةِ
وَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّقَاءِ أَنْ يُخْتَمَ لِلْمَرْءِ لِعَمَلِهِ بِالشَّقَاءِ »)^(١) .

(١) معاني الأخبار : صفحة ٣٤٥ .

المحاضرة التاسعة عشرة

القيامة وحكومة العدل الإلهي شهداء يوم النشور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك
نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله﴾ (١) .

الحياة الإجتماعية وتحديد الرغبات :

إن ضرورة الحياة الإجتماعية والنظام العام يتطلبان من أفراد المجتمع أن يحدّوا من حرياتهم ، وقيسوا رغباتهم وميولهم ، ويحترموا حرية الآخرين ويغضوا النظر عن الآمال والتطلعات التي لا تتفق مع ضرورات الحياة الإجتماعية ، وأن لا يعتدوا على حقوق أفراد المجتمع بهدف إشباع وإرضاء غرائزهم . إن الوصول إلى هذه الأهداف المقدسة التي هي مصدر سعادة الفرد يتطلب ثلاثة شروط أساسية :

الشرط الأول : يجب وضع قانون شامل وكامل وفقاً لمبادئ القسط والعدل يطلع عليه الجميع ، لكي يعرف الناس من خلاله حدودهم ، ويميزوا

(١) سورة الإنفطار ؛ الآيات : ١٧ - ١٩ .

بين الحق والباطل وبين الصالح والطالح ، ولا يتخطون حدود القوانين
الموضوعة .

الطمأنينة في ظل القانون :

الشرط الثاني : إن قانون العدالة هو وحده الذي يجب أن يسود ويحكم
في المجتمع ، بحيث أن كل فرد يشعر بالطمأنينة والهدوء في ظل القانون ، ولا
يعود باستطاعة الأفراد المقتدرين من ذوي القوة والجاه أن ينتهكوا القانون
ويزعزعوا سلطته ، ويتصرفوا بما يخالف المبادئ والأصول التي يحددها
القانون .

الشرط الثالث : يجب أن يكون هناك قضاة عالمون وواعون وعادلون
وأحرار أقوياء وشجعان يجلسون على كرسي القضاء في المجتمع ، وذلك من
أجل حسن تنفيذ وتطبيق القوانين وكسب ثقة الناس حيث تكون مهمة هؤلاء
القضاة ملاحقة الأفراد الذين يرتكبون المخالفات والتجاوزات ، وينتهكون
القوانين مهما كان منصبهم ، وبغض النظر عن مكانتهم في المجتمع ، وبالتالي
معاقتهم وفقاً لمبادئ العدل والقانون بعد دراسة تلك التجاوزات والانتهاكات
بشكل صحيح ودقيق .

ولقد سادت القوانين منذ أقدم العصور وحتى يومنا هذا بين مختلف الملل
والشعوب في العالم ، وذلك بهدف تأمين حياة أفراد البشر في هذه الدنيا ،
وطبقت هذه القوانين في المجتمعات والبلدان المختلفة ، ولكن مع الأسف
فإن واضعي القوانين ونتيجة لجهلهم أو اتباعهم لأهوائهم وميولهم النفسية ، أو
إرضاء لغرور الحكام المتجبرين ، أو لأسباب أخرى ، قد أدخلوا بعض الأمور
اللامشروعة والمخالفة لمبادئ العدالة ضمن القوانين العادلة وصادقوا عليها
باعتبارها جزءاً من القوانين التي يجب على الناس اتباعها والالتزام بها ، فكان
من نتيجة ذلك أن هذه القوانين فقدت قدسيتها ، وانخفضت مكانتها وأهميتها
في أنظار الناس ، حيث لم يعد الناس يحترمون ويقدمون القوانين كما يجب .

ولسوء الحظ فإن هذا الانحراف لا يزال سائداً وموجوداً في عالم اليوم المتطور ، حيث بات سكان العالم يعانون بصور مختلفة من النتائج المشؤومة والمضرة المترتبة على ذلك . إن حق النقض (الفيتو) الذي تتمتع به القوى الكبرى في مجلس الأمن الدولي في عصرنا الحاضر هو نموذج لهذه القوانين الظالمة التي تسود عالمنا اليوم .

وبشكل عام ، يمكن القول بأن القوانين التي وضعها البشر على مرّ القرون والعصور في كافة أرجاء هذا العالم ، هي مزيج من الحق والباطل والصحيح وغير الصحيح . وهذه القوانين كانت ولا تزال تحكم المجتمعات البشرية ونتج وبتتج عنها منافع وأضرار كثيرة . وأحياناً يتم إحقاق الحقوق ، أو على العكس قد تنتهك مبادئ القسط والعدالة في ظل تلك القوانين . إلى جانب وضع القوانين الظالمة على الصعيد الداخلي في الدول المختلفة ، وعلى صعيد المحافل الدولية هناك أسباب وعوامل عديدة ومختلفة في سائر أنحاء العالم ، تساهم في انتهاك القوانين وتحول دون تطبيقها ، وبالتالي إحقاق الحق وإقامة العدل . ومن جملة هذه العوامل : المنصب والسلطة ، والقوة والحكم ، والجاه والثروة ، والعلاقات السياسية والاقتصادية ، والتعصب العنصري والقومي ، والصدقة والتهديد ، والتشجيع (الترغيب) وعوامل مماثلة أخرى .

فهذه الوسائل والعوامل المذكورة استغلت في جميع الفترات والحقب التاريخية ، حيث قام الظالمون والمعتدون على صعيد المدن ، وأيضاً على صعيد الحكومات الظالمة المتجبرة في الدول المختلفة ، وكذلك الأشخاص المستكبرين من ذوي السطوة والقوة في العالم . ولا زالوا يقومون بانتهاك القوانين من خلال العوامل المذكورة ، ويحولون بذلك دون إحقاق الحقوق وتطبيق العدالة ، ويغتصبون حقوق الضعفاء والشعوب المحرومة والمظلومة ، وعن هذا الطريق يحققون نواياهم الخيانية وأهدافهم الظالمة . وإذا حاول بعض القضاة أن يقفوا بوجههم ويمنعوا من ممارسة الظلم وانتهاك القوانين ، فإنهم يحاولون - من خلال التهديد والإرهاب ، أو من خلال الإستمالة والإرشاء - منع

هؤلاء القضاة من أداء واجبهم إن استطاعوا ذلك ، وإذا لم يستطيعوا ذلك فإنهم يلجأون إلى ارتكاب الجريمة ، حيث يضعون خططاً سرّية لقتل هؤلاء القضاة ، واغتيالهم على أيدي أشخاص اشرار .

إن وضع قوانين تتنافى مع مبادئ الحق والعدالة ، واستغلال العوامل والوسائل المختلفة (للتحايل على القوانين وانتهاكها وتضييع حقوق الآخرين)^(١) ، إرشاء القضاة واستمالتهم ، أو القضاء عليهم والقيام بكل ما من شأنه أن يمهد طريق الخيانة والشر ، كلّها ترتبط بهذا العالم المؤقت (وهذه الدنيا الفانية) ، وهذه الأيام القلائل من الحياة في عالم الطبيعة . وعندما ينتهي عمر هذه الدنيا ويحلّ يوم الجزاء فإن جميع القوانين الموضوعية من قبل البشر تزول ولا يعود لها وجود كما تزول وتفنى كل القوى السلطوية ، ولا يعود هناك أي وجود للعلاقات الشخصية وروابط الصداقة والقربى ، عندها يكون المالك المطلق والحاكم المطاع والمُتبع الأوحده في مسرح يوم القيامة هو الله . فهو الذي يحكم بين أبناء البشر في ذلك اليوم ، حيث لا يصدر عنه (سبحانه وتعالى) حكم إلا على أساس الحق والعدل .

وفي محكمة العدل الإلهية ، لا مجال لممارسة النفوذ وتسبب الأسباب ، والتهديد والإستمالة ، والإرشاء والأمور الأخرى التي يستخدمها المعتدون والمتجاوزون في الدنيا . وقد وردت الكثير من الآيات والروايات والأحاديث وبعبارات مختلفة حول كل واحدٍ من المواضيع الثلاثة التي تطرقنا إليها آنفاً ، وفيما يلي نتطرق إلى كل واحدٍ من تلك المواضيع حسب الترتيب التالي :

أولاً : حاكمية الله .

ثانياً : الحكم على أساس العدل والقسط .

ثالثاً : عدم جدوى العوامل والأسباب الدنيوية .

(١) المترجم .

أولاً : حاكمية الله .

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١) . الْمَلِكُ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي الْجُمْهُورِ وَذَلِكَ يَخْتَصُّ بِسِيَاسَةِ النَّاطِقِينَ ، وَلِهَذَا يُقَالُ مَلِكُ النَّاسِ وَلَا يُقَالُ مَلِكُ الْأَشْيَاءِ . وَقَوْلُهُ : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الْمَلِكُ فِي يَوْمِ الدِّينِ^(٢) .

ويقول (عز وجل) في محكم كتابه :

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٣) .

كما يقول (جل وعلا) :

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾^(٤) .

ويقول (تعالى) في القرآن الكريم :

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^(٥) .

ويقول (سبحانه وتعالى) :

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(٦) .

(عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَادَتِ الْحُكَّامُ فَلَمْ يَبْقَ حَاكِمٌ إِلَّا اللَّهُ»^(٧) .

إن القدرة اللامتناهية والحاكمية المطلقة والسلطة الإلهية التي ليس لها قيد

(١) سورة الفاتحة ؛ الآية : ٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة : (ملك) .

(٣) سورة غافر ؛ الآية : ١٦ .

(٤) سورة الحج ؛ الآية : ٥٦ .

(٥) سورة الفرقان ؛ الآية : ٢٦ .

(٦) سورة الإنفطار ؛ الآية : ١٩ .

(٧) تفسير مجمع البيان : المجلد العاشر ، صفحة ٤٥٠ .

أو شرط ، لا تقتصر على يوم القيامة ، فالله (سبحانه وتعالى) كان منذ ما لا نهاية وسيبقى إلى ما لا نهاية مهيمناً ومسيطرًا على عوالم الوجود .

ولكن القرآن الكريم عندما يصف الله بأنه (مالك يوم الدين) فلأن الخالق القدير شاءت إرادته أن يكون الإنسان خليفة الله على الأرض ، ولهذا فإن الله قدر بمشيئته الحكيمة أن يخلق الإنسان حرًا وجعل حرية الإرادة والإختيار في ذات الإنسان ووجوده ، وجعل هذه الأرض التي هي عالم العلل والأسباب مستقرًا وموطنًا للإنسان ، كما جعل الأرض وكل ما تحويه مسخرة وخاضعة له ، وأمر الإنسان أن يسعى ويعمل لإعمار الأرض وبنائها .

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾^(١) .

إذن ، فإنَّ البشر في هذا العالم يتمتع - وبإذن من الله - بحق السيادة والحاكمية ، كما يتمتع بالحرية وحق الإختيار ، إذ بإمكانه أن يستخدم حرته في الإختيار والإختيارات الممنوحة له . في المجالات الصحيحة والنافعة ، وبنال الصلاح والفلاح ، ويتمتع بالسعادة الأبدية . كما يستطيع أن يستخدم حرته لإرضاء وإشباع أهوائه النفسية وشهوته ويسلك طريق الفساد والعبث ، ويسبب لنفسه الشقاء والبؤس . كما يستطيع الإنسان أن يستخدم الوسائل والأسباب التي وضعت تحت تصرفه بموجب نظام الخليقة بشكل صحيح ، ويوظفها في المجالات المفيدة والنافعة ، بحيث تعود بالنفع عليه وعلى الآخرين . وبإمكانه أيضاً أن يسيء استخدام تلك الوسائل والأسباب ويوظفها لتحقيق أهداف ظالمة وارتكاب المعاصي والذنوب ، بحيث تعود بالضرر عليه وعلى الآخرين . ولكن عندما ينتهي عالم الطبيعة (دار الدنيا) وتزول ، فإن الله (سبحانه وتعالى) يأخذ من البشر جميع الإختيارات والصلاحيات التي أعطاهها له (في دار الدنيا) ، ويقطع عنه كافة الوسائل والأسباب العادية ولا يبقى له أية سلطة أو قدرة ،

(١) سورة هود ؛ الآية : ٦١ .

عندها تعود كافة القدرات والقوى وجميع الصلاحيات وكما كانت منذ البداية إلى الله وتصبح جميعها تحت تصرف الباري واختياره، وهذا هو مفهوم الآيات القرآنية المباركة التي تصف الله بأنه هو المالك والحاكم في يوم الجزاء، وتعتبر الحاكمية المطلقة دون قيد أو شرط في يوم القيامة لله وحده.

ثانياً : الحكم على أساس الحق والعدالة :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

ويقول (عز وجل) :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٣).

القضاء المنزه عن الظلم :

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٥).

منشأ الظلم :

نلاحظ من خلال الآيات المذكورة أن الله (سبحانه وتعالى) يكرر القول

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨١ .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ٢٥ .

(٣) سورة النحل ؛ الآية : ١١١ .

(٤) سورة يس ؛ الآية : ٥٤ .

(٥) سورة غافر ؛ الآية : ١٧ .

بأنه ليس هناك من ظلم يتعرض له أي إنسان يوم القيامة ، لأن الحاكم في يوم الجزاء هو الله المنزه عن الظلم والجور ، لأن منشأ الظلم هو الضعف والشعور بالنقص . فالشخص الذي يظلم من المؤكد أنه يعاني من نقطة ضعف أو من نقاط ضعف ، وهو يريد من خلال ممارسة الظلم أن يغطي على نقاط ضعفه تلك ، ويخفي معاناته من عقدة النقص في داخله .

الذات الإلهية المنزهة عن الظلم :

إن الله (سبحانه وتعالى) تجتمع فيه جميع صفات الكمال ، ولا وجود لأي نقص أو ضعف في الذات الإلهية المقدسة ، وبالتالي فلا وجود لأدنى ظلم أو جور في وجود الله .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) .

(عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : «يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»)(٢) .

الثواب والعقاب على أساس الإستحقاق :

في يوم القيامة لا يتعرض لا المذنبون ولا الصالحون المحسنون للظلم ، حيث أن المذنبين ينالون عقابهم على أساس الحق والعدل ولا يعاقب أي فرد أكثر مما يستحقه ، كما ينال الصالحون والمحسنون الثواب الذي يستحقونه ولا يضيع حق أي منهم .

العفو الإلهي عن المذنبين :

ولكن العدل الإلهي حيال المذنبين لا يعني أن معاقبة المذنبين هو أمر

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٤٠ .

(٢) تفسير المنار : المجلد الثامن ، صفحة ٢٣٤ .

ملزم لا يمكن التخلف عنه من قبل الله ، فالله (سبحانه وتعالى) له مطلق الحرية والإختيار في هذا المجال (أي في مجال معاقبة المذنبين أو عدم معاقبتهم)^(١) . كما أنه (جل وعلا) يمكنه أن يعاقب جميع المذنبين على أساس العدل والإستحقاق . كما يستطيع أن يعفو عن من هو جدير بالرحمة والفضل الإلهي ، وهو بالتأكيد سيفعل ذلك حيث يقول (تعالى) في القرآن الكريم :

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٢) .

سوف يتضح لنا في المحاضرة القادمة بأن الله وهو أرحم الراحمين ، يعفوفي يوم الجزاء وبذرائع مختلفة عن الكثير من المذنبين ، ويرفع عنهم العذاب والعقاب الذي يستحقونه . كما أن العدل الإلهي تجاه الصالحين والمحسنين ليس معناه أن الله يعطيهم الثواب بصورة حتمية مؤكدة في إطار العدالة ووفقاً لمعيار الإستحقاق ، بل أن الله (سبحانه وتعالى) عنده مطلق الحرية تجاه هؤلاء وأنه وعد ، وكما سنبين ذلك في هذه المحاضرة بأن يعطي الصالحين أجر أعمالهم أضعافاً مضاعفة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٣) .

(عن النبي ﷺ قال : «مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ ثَوَاباً عَلَى عَمَلِهِ فَهُوَ مُنْجِزُهُ وَمَنْ وَعَدَهُ عِقَاباً عَلَى عَمَلِهِ فَهُوَ بِالْخِيَارِ»)^(٤) .

ولكي نسلط المزيد من الأضواء على موضوع التفضل الإلهي والرحمة الربانية من وجهة نظر الكتاب والسنة ، ومن أجل أن يعطي القارئ الكريم مزيداً من الإهتمام لهذه القضية المهمة التي تبعث الأمل ، فمن المناسب هنا إعطاء توضيح مختصر حول موضوع الرحمة والفضل الإلهي ، مستنديين في ذلك إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والروايات المنقولة عن

(١) المترجم .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٢ .

(٣) سورة الرعد ؛ الآية : ٣١ .

(٤) كتاب الشهاب : صفحة ٤٦ .

الأئمة عليهم السلام . يقول (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم :

﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزي إلا مثلها وهم لا يُظلمون﴾^(١) .

(عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «قال الله تعالى وقوله الحق : إذا همَّ عبدي بحسنة فاكْتُبها حسنةً وإذا عمَلها فاكْتُبها بعشر أمثالها وإذا همَّ بسيئة فلا تكتبها فإن عمَلها فاكْتُبها بمثلها»)^(٢) .

(وعنه صلى الله عليه وسلم : «يقولُ اللهُ : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبها عليه حتى يعملها ، فإن عمَلها فاكْتُبها عليه بمثلها ، وإن تركها من أجلي فاكْتُبها له حسنةً»)^(٣) .

إذن ، بموجب الكثير من الأحاديث المنقولة عن السنة والشريعة ، فإن الذي ينوي عمل الخير يحصل على ثواب حسنة واحدة ، وإذا عمل بما كان ينوي القيام به فتكتب له عشر حسنات في صحيفة أعماله ، وإذا نوى ارتكاب ذنب ولم يرتكبه لا يكتب شيء في صحيفة أعماله ، وإذا ارتكب ذلك الذنب فتكتب له سيئة واحدة . أما إذا تخلى عن فكرة ارتكاب الذنب امتثالاً لأمر الله فتكتب له حسنة في صحيفة أعماله وذلك تقديراً لحافزه الباطني .

(كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول : «ويل لمن غلب آحاده أعشاره» ف قيل له : وكيف هذا فقال له : «أما سمعت قول الله عز وجل يقول : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزي إلا مثلها﴾ ، فالحسنة الواحدة إذا عملها كتبت له واحدة نعوذ بالله ممن يرتكب في يوم واحد عشر سيئات فلا تكون له حسنة واحدة فتغلب حسناته سيئاته»)^(٤) .

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٦٠ .

(٢) تفسير الدر المنثور : المجلد الثالث ، صفحة ٦٤ .

(٣) تفسير المنار : المجلد الثامن ، صفحة ٢٣٥ .

(٤) تفسير البرهان : المجلد الأول ، صفحة ٥٦٥ .

وجدير بالقول في هذا المجال بأن الأجر والثواب الذي يعطيه الله على بعض الحسنات من الأعمال قد يتخطى حدود العشرة أمثال والمائة مثل ، حيث يقول القرآن الكريم حول الإنفاق في سبيل الله :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) .

أجر سبعمائة مثل وأكثر :

(عن ابن عباس عن النبي ﷺ فيما يروي من ربه . «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرٌ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أضعافٍ كثيرة»^(٢) .

ثالثاً : عدم جدوى الأسباب الدنيوية :

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٣) .

علاقات القرابة :

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(٤) .

(عن الإمام علي بن الحسين) السَّجَّادِ عليه السلام قال : «والله لا يَنْفَعُكَ غَدَاً إِلَّا مُقَدَّمَةٌ تُقَدِّمُهَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ»^(٥) .

الآباء والأبناء :

ويقول الله (تعالى) في القرآن الكريم :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَارْخَسُوا يَوْمًا لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦١ .

(٢) تفسير الدر المنثور : المجلد الثالث ، صفحة ٦٤ .

(٣) سورة الدخان ؛ الآية : ٤١ .

(٤) سورة المؤمنون ؛ الآية : ١٠١ .

(٥) تفسير الصافي : صفحة ٣٧٢ .

مولودٌ هوَ جازٍ عنِ والدِهِ شيئاً»^(١) .

ويقول (جلّ وعلا) :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ﴾^(٢) .

المال والبنون :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً
وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^(٣) .

ويقول (عز من قائل) :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ
مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) .

وقد تبين لنا من خلال الآيات المباركة التي ذكرناها ما يلي :

أولاً : أن الحاكم المطلق والمُطاع والمُتبع في يوم الحشر هو الله
(سبحانه وتعالى) ، فهو ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ومالك يوم الجزاء .

ثانياً : لا يتعرض أي أحد للظلم أمام محكمة العدل الإلهي ، حيث أن
الله غني بذاته وهو أجل وأسمى من أن يظلم أحداً ، وأن يسيء إلى مقام ربوبيته
الشامخ بإصداره حكماً ظالماً (والعياذ بالله) .

ثالثاً : أن الأشخاص الظالمين الذين يستخدمون مختلف الأساليب
والأسباب (التي ذكرناها من قبل كالمنصب والجاه والثروة والسلطة وغيرها)^(٥) ،

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٣٣ .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ١٦٦ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠ .

(٤) سورة المائدة ؛ الآية : ٣٦ .

(٥) المترجم .

ويمارسون مختلف الأعمال الظالمة اللامشروعة في دار الدنيا بهدف الإعتداء على الضعفاء من الناس وانتهاك حقوقهم ، مثل هؤلاء الأشخاص الظالمين لا يمكنهم يوم القيامة الإستمرار في ممارساتهم واعتداءاتهم تلك ، لأنهم (في يوم القيامة) يفقدون بعضاً من تلك الأسباب والوسائل الدنيوية التي كانوا يتمتعون بها ويمارسون عن طريقها الظلم بحق الآخرين ، كالثروة والمنصب والقدرة والسلطة والكلام المؤثر والمكانة الإجتماعية وغيرها ، كما أن الأسباب الدنيوية الأخرى التي كان يتمتع بها هؤلاء في الدنيا ، كالأرحام وصلات القرابة والأصدقاء والوالدين والأبناء ، والتي تبقى في الدنيا بعد موت الشخص . هذه كلها تصبح عديمة الجدوى وتفقد أثرها (في الآخرة) ، وذلك حسب ما تنص عليه الآيات القرآنية والأحاديث والروايات .

إذن ، ففي يوم القيامة لا يصدر أي حكم ظالم من قبل حاكم يوم الجزاء وهو الله (سبحانه وتعالى) ، كما لا يتعرض الناس للظلم يوم القيامة من قبل الظالمين الذين كانوا يمارسون الظلم في دار الدنيا ، لأنهم لم تعد لديهم القدرة على ممارسة الظلم .

المجرم ينكر جرائمه : لقد شاءت إرادة الله الحكيمة أن يخلق الإنسان حرّاً ، ومن جملة هذه الحريات هي أنه (سبحانه وتعالى) جعل للإنسان لساناً يتكلم بواسطته كيفما شاء . ومتى ما أراد الإنسان فإن بإمكانه أن ينسق بين لسانه وضميره (قلبه) ، فيظهر ما في قلبه على لسانه . وبإمكانه أيضاً عندما يريد ذلك أن ينافق ، أي يفصل بين لسانه وضميره ، فينطق بشيء لا وجود له في قلبه وضميره .

إن معرفة المجرم الحقيقي والتعرف على كيفية وقوع الجريمة هو من أهم القضايا بالنسبة للقضاة الذين يتولون دراسة الملفات الجزائية في المحاكم ، وإن أفضل وسيلة لتحقيق هذا الهدف والتعرف على المجرم الحقيقي هو اعتراف المجرم نفسه والتفاصيل التي يعطيها حول كيفية وقوع الجريمة ، ولكن

في كثير من الحالات فإن المجرمين لا يعترفون بالذنب الذي ارتكبوه ، ويظهرون أنفسهم على أنهم أبرياء ، وذلك لكي يتخلصوا من العقاب ، وأحياناً يُقسَمون قَسَماً غليظاً لكي يجعلوا الآخرين يصدقون بأنهم أبرياء . وفي هذه الحالة فإن القاضي يضطر - من أجل التعرف على المجرم - للاستعانة بالشهود ، وإجراء التحقيق (في المكان الذي حصلت فيه الجريمة) ، والقيام بتحقيقات أخرى ، وذلك لكي يزيل الغموض والإبهام الذي يحيط بالجريمة .

على أن هذا التحقيق الذي يجريه القاضي قد لا يصل إلى نتيجة في بعض الأحيان ولا يزيل الغموض الذي يحيط بالجريمة ، وبالتالي لا يكشف عن هوية المجرم .

وقد تم في عصرنا الحاضر ونتيجة للتقدم العلمي والصناعي اختراع بعض الأجهزة التي من شأنها أن تساعد في مثل هذه الحالات على اكتشاف الحقيقة ، وبالتالي اعتراف المجرم بجريمته . فعلى سبيل المثال يجتمع عدد كبير من الأشخاص في مكان واسع لمشاهدة إحدى المباريات أو أحد العروض المسرحية ، وفي هذه الأثناء يقع في إحدى زوايا هذا المكان شجار بين مجموعتين من المتفرجين ينتهي إلى اشتباك يسقط على أثره عدد من الجرحى وقتيل واحد . ولكن القاتل في هذه الحالة لا يعرف نفسه ، كما أن الأشخاص الذين كانوا يجلسون إلى جانب القاتل لحظة وقوع الجريمة يرفضون الإدلاء بشهاداتهم . ويصادف في تلك اللحظة وجود المصور الصحفي الذي جاء لتغطية المباراة أو العرض المسرحي في مكان الحادث ، فيقوم بتصوير ساحة الإشتباك ، حيث يظهر في الفيلم كل من القاتل والمقتول ، وكيفية بدء النزاع ، وكيفية وقوع حادث القتل ، عندها يضطر القاتل للاعتراف بجريمته لدى مشاهدته الفيلم والصور التي التقطها الصحفي الذي شهد الحادث . وأحياناً يقوم المجرم بإطلاع أحد أصدقائه الحميمين بتفاصيل حادث القتل ، ويعترف له بالجريمة التي ارتكبها وهو لا يعلم بأن كلامه يسجل على شريط ، وعندما يستمع المجرم إلى الشريط في المحكمة ، يضطر للاعتراف بالجريمة التي ارتكبها .

ويوجد في الوقت الحاضر أجهزة تسجيل صغيرة على شكل زر قميص أو ساعة يد أو مقبض العكازة وما شابه ذلك ، بحيث يستطيع أي شخص أن يحملها معه متى شاء ذلك ليسجل بواسطتها كلام الآخرين ، كما اخترعوا أجهزة تسجيل صغيرة توضع في غرف الإستقبال في المنازل على شكل ديكورات ، حيث يستطيع صاحب المنزل بواسطتها معرفة ما يقوله ضيوفه أثناء غيابه .

والحديث الشريف التالي المروي عن الرسول الأكرم ﷺ يشير إلى هذا الموضوع :

(«أما والذي نفس محمد بيده لئوشكن الرجل منكم أن يغيب عن أهله الروحة أو الغدوة ثم يخبره سوطه أو عصاه أو نعله بما أحدث أهله من بعده») (١) .

بصمات أصابع المجرم :

إلى جانب التصوير والتسجيل ، هناك طرق أخرى يمكن من خلالها إزالة الغموض والإبهام الذي يحيط بملابسات الجريمة والتعرف على المجرم ، منها بصمات الأصابع وفئة الدم . فاللص المحترف يذهب لسرقة أحد المنازل ، ويتمكن من سرقة أشياء ثمينة من المنزل المذكور ، ولكنه - وأثناء عملية السرقة - يترك بصمات أصابعه على الطاولة الموجودة في غرفة المنزل دون أن ينتبه إلى ذلك ، وهذه البصمات من شأنها أن تدل على اللص والتعرف عليه .

وأحياناً تقع جريمة قتل ويتمكن القاتل من مغادرة مسرح الجريمة بسرعة ، ولكن تبقى على ملابسه بقع من الدم تكفي لتوجيه أصابع الاتهام إليه، ولدى تحديد فئة دم المقتول تنكشف الحقيقة ويتم التعرف على القاتل . إذن ، فإن الفيلم المصور وشريط التسجيل وبصمات الأصابع وبقع الدم ، كل واحد منها بمثابة شاهد يكشف عن الحقيقة ويدل على القاتل ويقود إليه .

(١) الطبقات الكبرى : المجلد الأول ، صفحة ١١٤ .

المجرمون ومسرح القيامة :

وكما يستفاد من الآيات القرآنية والأحاديث ، فإن المذنبين عندما يقفون يوم الجزاء أمام محكمة العدل الإلهية ، فإنهم يتخذون نفس الأسلوب الذي كان يتبعه المجرمون أمام المحاكم القضائية في الدنيا ، حيث أنهم في بداية الأمر يصرّحون بألسنتهم خلافاً لما يُضمرونه في قلوبهم ، وذلك من منطلق حرية اللسان التي يتمتعون بها . ولهذا فهم ينكرون الجرائم التي ارتكبوها ويكذبون ما بلغه الأنبياء ودعوا إليه وما تشهد به الملائكة . بل وإنهم - في بعض الحالات - يقسمون كذباً ، وذلك لجعل الآخرين يصدقون أقوالهم المنافية للحقيقة والواقع .

السؤال من الأنبياء والأمم :

وفيما يلي نذكر بعض الآيات والأخبار والأحاديث الواردة في هذا المجال :

﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١) .

أي أننا في يوم القيامة نسأل الأمم المختلفة : هل أن الأنبياء أبلغوها بالدعوة الإلهية ؟ كما نسأل الأنبياء هل أبلغتم دين الله إلى أممكم وأقوامكم أم لا ؟ .

(عن أمير المؤمنين صلواتُ الله وسلامُهُ عليه في حديثٍ يذكُرُ فيه أحوالَ أهلِ الموقفِ : «فيقامُ الرُّسُلُ فيسألون عن تَأديَةِ الرِّسالاتِ التي حَمَلوها إلى أممهم فأخبروا أنهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم وتُسألُ الأممُ فيجحدون فيقولون : ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ»)^(٢) .

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٦ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ١٢١ .

المشركون يقسمون كذبا :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١) .

ويقول (سبحانه وتعالى) :

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

(في الحديث أنها نزلت في قومٍ تُعرض عليهم أعمالهم فينكرونها فيقولون : ما عملنا شيئاً منها فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم .

المجرمون يكذبون شهادة الملائكة :

قال الصادق عليه السلام : «فيقولون لله : يا رب هؤلاء ملائكتك يشهدون لك ، ثم يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئاً وهو قول الله عز وجل ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ (٣) وهم الذين عصوا أمير المؤمنين .

أعضاء المذنبين وجوارحهم تشهد عليهم يوم القيامة :

فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم وتنطق جوارحهم ، فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله وتشهد اليدين بما أخذتا وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله ويشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله (٤) .

(١) سورة الأنعام ؛ الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٠ .

(٣) سورة المجادلة ؛ الآية : ١٨ .

(٤) لآلئ الأخبار : صفحة ٤٦٢ .

عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية ^(١) قال : «يعني بالجُلُود الفُرُوج» .

المجرمون يحتجون على جوارحهم :

إن المذنبين يدون متأثرين جداً (يوم القيامة) ، لأن جوارحهم شهدت عليهم . ولكن يبدو أن أكثر شيء يسبب للمذنبين الخجل والتأثر هو شهادة عوراتهم ضدهم ، ولهذا فإن هذه الجوارح والأعضاء عندما تنتهي من الإدلاء بشهادتها ضد الشخص المذنب ويسمح للمذنب بالكلام ، فإنه يعاتب - للوهلة الأولى - جوارحه ويتحدث معها . وفي هذا يقول القرآن الكريم :

الجوارح ترد على المجرمين :

﴿وقالوا لجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ ^(٢) .

إذن ، فإن المجرمين يتصرفون أمام محكمة القضاء يوم القيامة ، كما يتصرفون أمام محاكم الدنيا ، فهم ينطقون بالكذب وينكرون جرائمهم ، ويعتبرون أنفسهم أبرياء ويُقسمون كذباً عليهم ينجون من العذاب الإلهي . ولكن هذا التكذيب والإنكار لا فائدة منه ولا يترتب عليه أي أثر ، لأن هناك شهود لا يمكن إنكارهم يشهدون على جرائمهم ، وبالتالي تثبت إدانتهم . وقد سبق أن ذكرنا في المحاضرة الثالثة من الكتاب بأن القرآن الكريم أشار في آيات عديدة إلى أن عمر الدنيا يبدو في نظر أهل المحشر يوم القيامة قصيراً جداً ، وكأنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا ساعة واحدة . ولكن وردت في القرآن الكريم آية أخرى تشير إليها فيما يلي ، وهذه الآية تُبين هذا الموضوع بأسلوب آخر ، وكما بيّنا من قبل فإن هذه الآية تختلف عن تلك الآيات المذكورة في المحاضرة الثالثة من جهات عدّة .

(١) سورة فصلت ؛ الآية : ٤١ .

(٢) سورة فصلت ؛ الآية : ٢١ .

الكذابون في الدنيا وفي الآخرة :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) .

وقد جاء في الآيات القرآنية المذكورة من قبل ذكر فترة المكوث القصيرة في دار الدنيا ، من خلال كلمتي «كان» و «كأنهم» أي بمعنى : وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة . ولكن في الآية المذكورة آنفاً ، يعتبر المجرمون فترة بقائهم في دار الدنيا التي لا تزيد على ساعة واحدة بأنها حقيقة لا تقبل الشك ، كما أنه لم يرد أي قسم بعد ذكر البقاء في الدنيا لفترة ساعة واحدة - وفق ما جاء في الآيات المذكورة من قبل - . ولكن في الآية المذكورة أعلاه (الآية ٥٥ من سورة الروم) نجد أن المجرمين يقسمون لكي يثبتوا بأن فترة بقائهم في الدنيا لم تزد عن ساعة واحدة .

وفي الآيات السابقة ، فإن الله (سبحانه وتعالى) لا يصف القائلين بهذا الكلام بالانحراف والكذب ، أما الآية المذكورة آنفاً فهي تنص على إفك المجرمين ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ .

ولعل قسم المجرمين وقولهم الكذب بشأن بقائهم في الدنيا لفترة ساعة واحدة ، هو شبيه بتكذيب الأمم لدعوة الأنبياء وشبيه أيضاً بقسم المشركين الذين يحاولون نفي صفة الشرك عنهم ، أو تكذيب شهادة الملائكة من قبل أصحاب الذنوب والمعاصي (يوم القيامة) . فكما أن الأمم تكذب دعوة الأنبياء ورسالاتهم والمشركين يقسمون لنفي الشرك عنهم ، وأصحاب الذنوب والمعاصي يكذبون الملائكة ، وكل ذلك من أجل أن يُظهروا أنفسهم على أنهم أبرياء ، فإن أفراد هذه الجماعة (من المجرمين) يقسمون (في يوم القيامة

(١) سورة الروم ؛ الآيتان : ٥٥ و ٥٦ .

بالقول) :

«إننا لم نمكث في الدنيا إلا ساعة واحدة وهذه الفترة القصيرة لا يمكنها أن تكون ظرفاً زمنياً يستوعب كل هذه الذنوب والمعاصي ، وعلى هذا الأساس فإننا مبرأون ومنزهون من الجرائم المذكورة في صحائف أعمالنا» .
ولكن الأشخاص من ذوي العلم والإيمان يردون عليهم بالقول : «لقد عثتم ومكثتم في الدنيا بما فيه الكفاية وفقاً لما هو مقدر لكم استناداً إلى المشيئة الإلهية وارتكبتم هذه الأعمال . وبالنسبة للقضاة في محاكم الدنيا فإنهم في بداية الأمر لا علم لهم بتفاصيل القضايا التي تُعرض عليهم ولا يعرفون الشخص المجرم ، كما لا يعرفون شيئاً عن تفاصيل الجريمة وكيفية وقوعها ، وعليهم أن يطلعوا على عمق القضايا وتفاصيلها من خلال الإقرارات التي يدلي بها المجرم ، أو من خلال الشهادة التي يدلي بها الشهود أو من خلال التحقيقات التي يجرونها .
أما الحاكم في محكمة القيامة ، فهو الله المطلع على كافة الحقائق ولا يخفى عليه شيء ، وهو الشاهد على جميع الأعمال الصالحة والسيئة التي يقوم بها الناس ، وعلى هذا الأساس فإن الكثير من الآيات القرآنية تعتبر الله (سبحانه وتعالى) شهيداً وشاهداً .

﴿وما تكون في شأنٍ وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عملٍ إلا كنا عليكم شهوداً﴾^(١) .

الشاهد على الذنوب هو القاضي في يوم الجزاء :

(عن عليّ عليه السلام قال : «أتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم») ^(٢) .

رغم أن الله (سبحانه وتعالى) هو الشاهد على أعمال الناس وأقوالهم وهو

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٦١ .

(٢) غرر الحكم : صفحة ١٢٨ .

مطلع على كافة الأعمال المشروعة واللامشروعة التي تصدر عن البشر في السر والعلانية ، ولكن إرادة الله شاءت بأن يُحاسبَ الناس يوم القيامة على أساس صحائف أعمالهم وشهادة الشهود، وتصدر الأحكام وفقاً للأدلة والإثباتات الدامغة . وبعد أن يثبت الجرم على المذنب ويصدر حكم الإدانة ضده بصورة قطعية ، فإنه يعفى من العقاب إذا ما شمله العفو الإلهي ، وإذا لم يشمل العفو الإلهي ينال عقابه ، ولكن هذا العقاب يكون وفقاً للحق والعدالة ، ووفق ما يستحقه من العقاب دون أن يتعرض لأدنى ظلم .

الجوانب المشتركة بين الأفراد والشعوب :

الشهود في يوم النشور :

كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فإن الأمم كالأفراد لها شخصية مستقلة ، وهناك أوجه مشتركة بين الأمم والأفراد في الدنيا وفي الآخرة . وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض تلك الأوجه المشتركة . ففي الدنيا هناك حياة الفرد وحياة الأمة ، وأجل الفرد وأجل الأمة ، وموت الفرد وموت الأمة ، وهلاك الفرد وهلاك الأمة ، وسقوط الفرد وسقوط الأمة ، وجرائم الفرد وجرائم الأمة ، وغيرها من الأوجه المماثلة . أما في الآخرة فهناك مسؤولية الفرد ومسؤولية الأمة ، ومحاسبة الفرد ومحاسبة الأمة ، وغيرها من المشتركات .

وأحد الأمور المشتركة بين الفرد والأمة هم الشهود الذين يكلفون لكي يشهدوا على الأفراد وعلى الأمم المختلفة يوم القيامة .

الشهود على الأمم :

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾^(١) .

(عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (الصَادِقِ) عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : «لِكُلِّ زَمَانٍ وَأُمَّةٍ إِمَامٌ تُبْعَثُ كُلُّ

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٨٤ .

أُمَّةٌ مَعَ إِمَامِهَا»^(١) .

يقول (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٢) .

الشاهد على أمة الإسلام :

قال بعض المفسرين : إن المقصود بكلمة هؤلاء في الآية السابقة هم قوم نبي الإسلام أي أن الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه كسائر الأنبياء سيكون يوم القيامة شاهداً على أمته .

إن الإبلاغ عن هذا الموضوع يجعل البشر من ناحية يتنبه إلى أهمية وعظمة ذلك اليوم (يوم القيامة) ، ومن ناحية أخرى يحثهم على العمل بواجباتهم الدينية ، حتى لا يشعروا بالانتكاس والخجل ويُفتضح أمرهم يوم القيامة على مرأى البشر أجمعين .

(عن ابن مسعود أنه قال : قال لي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه «اقرأ عليّ» قلت : يا رسول الله اقرأ وعليك أنزل ؟ قال : «نعم ، أحبُّ أن أسمعَهُ من غيري . فقرأتُ سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾

فقال : «حَسْبُكَ الْآنَ» فإذا عيناها تَدْرِفَان)^(٣) .

ويشير المرحوم الشيخ الطبرسي في تفسيره مجمع البيان إلى هذا

الحديث ، فيقول :

(فإذا كان الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة وعظم هذه الحالة فماذا

لعمري ينبغي أن يصنع المشهود عليه)^(٤) .

(١) تفسير مجمع البيان : المجلدان الخامس والسادس ، صفحة ٣٧٨ .

(٢) سورة النساء ؛ الآية : ٤١ .

(٣) تفسير المنار : المجلد الخامس ، صفحة ١١٠ .

(٤) تفسير مجمع البيان : المجلد ٣ - ٤ ، صفحة ٤٩ .

الأئمة شهود على الأمة والنبي (ص) شهيد على الأئمة :

(عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ قال : «نزلت في أمة محمد خاصة في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم ومحمد عليه السلام في كل قرن شاهد علينا» (١) .

ويظهر من خلال حديث أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية (الآية ٦١ من سورة يونس) بأن الأنبياء في يوم القيامة هم شهداء على أممهم ، وأن الرسول الأكرم عليه السلام هو الشاهد على أولئك الشهود يوم الحشر يسأل الأنبياء : هل أدبتم مهمتكم ، وهل أبلغتم دين الله إلى الناس ؟ فيجيب الأنبياء : نعم لقد بلغنا . ولكن الأمم تكذب الأنبياء وتقول : كلاً ليس كذلك ، إذ لم يأتنا نحن البشر بشير ولا نذير .

(فيستشهد الرُّسُلُ رسولَ الله عليه السلام فيشهدُ بِصِدْقِ الرُّسُلِ ويكذبُ من جحدَها من الأمم فيقولُ لكلِّ أمةٍ مِنْهُمْ : بلى قد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ) (٢) . لقد وردت في القرآن الكريم آيات أخرى تتحدث عن الشهود على الأمم يوم القيامة ، ولكننا نكتفي بما أشرنا إليه في هذا المجال .

الشهود على الأفراد : ذكرنا من قبل بأن جوارح الإنسان وأعضائه تشهد يوم القيامة لصالحه أو ضده ، وتنطق بما قام به الفرد من أعمال (حسنة أو سيئة في دار الدنيا) (٣) . وهناك شهود آخرون يشهدون بأمر من الله على الأعمال الصالحة والسيئة التي يقوم بها الناس ، ويمهدون بذلك للعقاب أو الثواب الذي يناله الناس يوم القيامة .

وفيما يلي نلفت انتباه القارئ الكريم إلى بعض هؤلاء الشهود ، وذلك بشكل موجز .

(١) أصول الكافي : المجلد الأول ، صفحة ١٩٠ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ١٢١ .

(٣) المترجم .

شهادة الملائكة :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(١) .

(عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : «سَائِقٌ يَسُوقُهَا إِلَى مَحْشَرِهَا وَشَاهِدٌ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا»)^(٢) .

شهادة الأرض :

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾^(٣) .

(قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال : «أتدرون ما أخبارها ؟ جاءني جبرئيل قال أخبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عمل على ظهرها»^(٤) .

ليس عجيباً أن تنطق الأرض (وهي عبارة عن نموذج متكامل للقيامة) يوم الحشر نتيجة الوحي التكويني من قبل الله (سبحانه وتعالى) وتدلى بشهادتها وتشهد على الأعمال الصالحة والسيئة للناس . ولعل أعمالنا تُسجّل في هذه الدنيا وفي أعماق التربة والطين الميت ، وبالتالي يُحتفظ بجميع أفعالنا وأقوالنا في ظل ظروف لا تزال مجهولة بالنسبة لنا ، يكشف عنها العلم في المستقبل ويقدمها للأجيال القادمة .

«قبل عدة سنوات نشرت صحف طهران مقالاً مترجماً عن مجلات أجنبية يقول بأن عدداً من العلماء الأمريكيين نجحوا في استعادة أصوات غنائية كان يرددها صانعو الأواني الفخارية المصريون القدماء . فقد وضع هؤلاء العلماء الجرار الفخارية الموجودة في

(١) سورة ق ؛ الأيتان : ٢٠ و ٢١ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٨٥ .

(٣) سورة الزلزلة ؛ الأيتان : ٤ و ٥ .

(٤) تفسير الدر المنثور : المجلد السادس ، صفحة ٣٨٠ .

المتاحف على جهاز يشبه جهاز الحاكي (الغرامافون) ، وقاموا بتحرك هذه الجرة حركة دائرية بواسطة الجهاز المذكور ، كما يفعل صانعو الجرار عندما يضعون عجينة من الطين على آلة معينة ، ثم يقومون بتحريكها حركة دورانية بواسطة القدم ، وأثناء ذلك يمررون قطعة من الخشب على تلك الكتلة الطينية لتأخذ الشكل المطلوب .

في ذلك الوقت كان صانع الجرار الفخارية يقبع في زاوية دكانه وهو منهمك في عمله ، ويردد مع نفسه بعض الألحان الغنائية ، وفي نفس الوقت يحرك الجرة بيده . ولم يخطر على باله أبداً أن الموجات الارتعاشية التي تنبعث من صوته ، ترسم بواسطة قطعة الخشب التي يمسكها بيده والطين خطوطاً دقيقة غير مرئية على سطح الجرة وأن هذه الخطوط ستتحول في مختبر أمريكي بعد ألفي عام إلى صوت وكلمات»^(١) .

إذن ، فإن الأرض هي من جملة الشهود على الناس يوم القيامة ، فالشخص إذا قام بعمل صالح أو ارتكب معصية في أية بقعة من هذه الأرض ، فإن هذه البقعة سوف تشهد يوم القيامة على ذلك العمل الصالح أو السيء الذي قام به ذلك الشخص ولهذا السبب فقد أوصى الأئمة عليهم السلام في بعض الروايات المنقولة عنهم ، أوصوا المؤمنين بأداء فريضة الصلاة في أماكن مختلفة من المساجد ، لأن أية بقعة تشهد يوم القيامة على عبادة الشخص الذي صلى فيها .

المسجد يشهد للمصلي فيه :

(عن علي عليه السلام قال : «صَلُّوا الْمَسَاجِدَ فِي بَقَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنَّ كُلَّ بَقْعَةٍ

(١) راه طي شده : صفحة ١٢٤ .

تَشْهَدُ لِلْمُصَلِّي عَلِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١) .

(وكانَ أميرُ المؤمنين عليه السلام إذا فرَّغَ بيتَ المالِ صَلَّى فِيهِ رَكَعَتَيْنِ وَيَقُولُ :
«إِشْهَدِي أَنِّي مَلَائِكُ بِحَقِّ وَفَرَّغْتُكَ بِحَقِّ»^(٢) .

والأيام تشهد على الإنسان :

(عن عليٍّ عليه السلام قال : «ما مِن يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيَّ ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ
اليَوْمُ : يَا بَنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِي خَيْرٍ وَأَعْمَلْ فِي خَيْرٍ
أَشْهَدُ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) .

(في الْحَدِيثِ : «سَيِّدُ الْأَيَّامِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ هُوَ شَاهِدٌ لِمَنْ حَضَرَ
صَلَاتَهُ»^(٤) .

شهادة النعم :

(عن عليٍّ عليه السلام قال : أَحْسِنُوا صُحْبَةَ النَّعْمِ قَبْلَ فِرَاقِهَا فَإِنَّهَا تَزُولُ وَتَشْهَدُ
عَلَى صَاحِبِهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا»^(٥) .

يمكن القول بأن الشخص الذي يشكر النعم الإلهية ويستفيد منها في
المجالات الصحيحة التي ترضي الله ، هو مصاحب ورفيق جيد وكفوء وجدير
بتلك النعم . والشخص الذي يسيء استخدام النعم ويستفيد منها في المجالات
الباطلة واللامشروعة ويكفر عملياً بالنعم الإلهية ، مثل هذا الشخص يعتبر
مصاحباً سيئاً وحقيراً لتلك النعم .

إن من الأسباب التي تجعل أصحاب النعم يكفرون ويجحدون بالنعم
الإلهية وتجعلهم يحدون وينحرفون عن طريق الحق ، هو الغرور وحب

(١) لآلئ الأخبار : صفحة ٤٦٢ .

(٢) سفينة البحار : المجلد الثاني مادة : (يوم) ، صفحة ٧٣٩ .

(٣) لسان العرب مادة : (شهد) .

(٤) مكارم الأخلاق : صفحة ٧٧ .

الذات . فكثيراً ما نرى أشخاصاً كانوا متواضعين يتمتعون بأخلاق فاضلة على مدى سنين طويلة ، عاشوا خلالها حياة متوسطة ، ولكنهم بمجرد حصولهم على نعمة ما من النعم الإلهية كتسلُّمهم منصب معين ، أو وصولهم إلى السلطة أو حصولهم على الثروة ، انصرفوا نحو الفساد الخلقي وأصابهم الغرور والتكبر . وبدل أن يدافعوا من خلال منصبهم عن المظلومين ، ويستخدموا سلطتهم لحماية ودعم المستضعفين ومساعدة الفقراء من الثروة التي حصلوا عليها ، وبصورة عامة بدل أن يجعلون المظلومين والضعفاء والمحتاجين والفقراء يستفيدون من نعمة المنصب والجاه والثروة التي أعطاهما الله لهم ، فإنهم يحقرون هؤلاء المظلومين والمحتاجين ، ويهينونهم ويُعاملونهم من منطلق الغرور والتكبر ، الأمر الذي يزيد من مصائبهم التي هم فيها ويضاعف من تأثيرهم .

إن أصحاب النعم إذا أرادوا أن يؤديوا حق هذه النعم ولا يصابوا بمرض الغرور ، فعليهم أن يسعوا ويجهدوا لبناء ذاتهم وأن يكونوا دائماً متواضعين يلتزمون بالأخلاق الحميدة ، ويحترمون عباد الله ، ويزيدون من تواضعهم كلما ازدادت النعم التي يعطيها الله لهم ، وهذا ما يطلبه الإمام السجاد من الله ضمن دعاء مكارم الأخلاق .

عبارات من الصحيفة السجادية :

(وهب لي معالي الأخلاق واعصمني من الفخر اللهم صل على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذللاً باطناً عند نفسي بقدرها)^(١) .

(١) الصحيفة السجادية دعاء رقم ٢٠ ص ١٠٠ .

المحاضرة العشرون

الأمل بالرحمة الإلهية أم حسن ظن بالله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأُكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١) .

القيامة والأحكام الإلهية :

القيامة الكبرى تقوم طبقاً للوعد الإلهي حيث لا يخلف الله وعده ويعاد الخلائق من الأولين والآخرين إلى الحياة بأمر الله القادر المتعال ، وتشكل محكمة العدل الإلهية حيث الحاكم المطلق دون قيد أو شرط هو الذات الإلهية المقدسة ، ويصدر الله أحكامه النهائية بحق أهل الجنة وأهل النار ، حيث تُنفذ تلك الأحكام .

العدل الإلهي والحساب الدقيق :

وكما أشرنا في المحاضرة السابقة فإنه لا وجود للظلم والجور والتباني والتحزب والترغيب والترهيب وتضييع الحقوق في يوم القيامة . وإن جميع

(١) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٣ .

الأحكام والأوامر التي تصدر يوم الجزاء من قبل الباري (تعالى) بشأن أهل المحشر إنما تستند إلى إحدى صفتي الله القادر المتعال . فهي إما أحكام تستند إلى العدل والقسط - وفقاً لما تتضمنه صحيفة عمل الفرد - وإما أمر مستمد من العفو والمغفرة الإلهية ومن منطلق الرحمة الإلهية .

ففيما يتعلق بالعدل والقسط فإن جميع الأعمال الصالحة والسيئة التي يقوم بها الإنسان خلال فترة حياته - والمسجلة في كتاب (صحيفة) أعماله - تُحصى وتدرس بدقه بكل تفاصيلها ، وبعد ذلك - وعلى ضوء ما هو مكتوب ومدون في صحيفة الأعمال - يصدر الحكم العادل بحق الشخص .

وفي مجال العفو والرحمة فإنه لا محل للحديث عن محاسبة الأفراد على أعمالهم الصالحة أو السيئة ، والتدقيق في تفاصيل صحائف أعمالهم ، بل إن الحديث هنا هو عن المغفرة والعفو والفضل الإلهي والرحمة الإلهية ، هذه الرحمة التي تُلقي بظلالها في كل مكان يوم القيامة لتشمل كافة أبناء البشر ممن يستأهلون الرحمة ويستحقون الفضل الإلهي ، هذه الرحمة التي وسعت كل شيء ، وحتى (العصاة الأشقياء مثل إبليس) الذين هم مطرودون من قبل الله ، يطمعون أيضاً بالرحمة الإلهية ويأملون بالعفو الإلهي .

(عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رَحْمَتَهُ حَتَّى يَطْمَعُ إبْلِيسُ فِي رَحْمَتِهِ»^(١) .

إن هذه الرَّحْمَةَ الإلهية وهذا التفضُّل من جانب الباري (سبحانه وتعالى) ، يُحيي الأمل في قلب الشخص المؤمن بإمكانية النجاة من عذاب يوم القيامة ، ويَعِدُّه بالعفو والمغفرة الإلهية ، كما أن التفكير بالعدل الإلهي يجعل المؤمن الحقيقي يشعر بالخوف من عذاب يوم القيامة ، كما يجعله يشعر بالقلق

(١) الأمل للشيخ الصدوق : صفحة ١٢٣ .

للمعاصي والذنوب التي ارتكبتها . وكلتا هاتين الحالتين (أي الأمل بالعتفو والمغفرة الإلهية والخوف من عذاب القيامة) يجب أن تكونا موجودتين في ضمير الفرد المؤمن .

«بسم الله الذي لا أرجو إلا فضله ولا أخشى إلا عدله»^(١) .

إنَّ الأفراد إذا ما شملهم الفضل الإلهي والعناية الإلهية والعتفو والمغفرة من قبل الباري (سبحانه وتعالى) ، فإنَّهم يتخلصون بسهولة من شدائد وأهوال يوم القيامة ، ويكون مقرَّهم جنان الخلد ، لأن الله (جل وعلا) قد يتغاضى -ومن منطلق الرحمة والرأفة- عن أكبر ذنوب الإنسان ، ويعفو عن جبل من الذنوب بالشيء القليل من العمل الصالح ، ويرفع العقاب والعذاب عن المذنب إذا ما قام بعمل صالح مهما كان بسيطاً .

نتيجة الرفق بالمدين المعسر :

وهناك نماذج كثيرة على ذلك تظهر من خلال الأحاديث والروايات المنقولة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام :

(عن النبي ﷺ قال : «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُجَدِّ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مُوسِرًا وَكَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ»^(٢) .

إذا شاء الله أن يعامل الناس على أساس العدل والقسط ، ويحاسبهم بكل دقة على جميع أعمالهم التي قاموا بها خلال فترة حياتهم والمدونة في صحائف أعمالهم ، فلن ينجوا أبداً من العذاب الإلهي يوم القيامة ، ولن ينالوا الفلاح والفوز في ذلك اليوم . فهل من الممكن أن يعيش إنسان مهما كان ملتزماً

(١) الصحيفة السجادية : دعاء يوم الأحد .

(٢) مجموعة ورام : المجلد الأول ، صفحة ٨ .

بالمبادئ الشرعية قولاً وعملاً ؟ . نقول هل من الممكن أن يعيش مثل هذا الإنسان عمره كله في هذه الدنيا دون أن تصدر عنه زلة ومعصية ، ولا يكون - بالتالي - محتاجاً إلى عفو الله ومغفرته ؟ .

القرآن الكريم يجيب على هذا التساؤل بالقول :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾^(١) .

وفي مجال العفو الإلهي والعدالة الإلهية يخاطب الإمام السجاد (علي بن الحسين عليه السلام) الباري (سبحانه وتعالى) متضرعاً إليه من خلال الدعاء التالي :

دعاء من الصحيفة السجادية :

«اللَّهُمَّ إِنْ تَعَفَّ عَنَّا بِفَضْلِكَ وَإِنْ تَشَأْ تَعَذِّبْنَا فَبِعَدْلِكَ فَسَهِّلْ لَنَا عَفْوَكَ بِمَنِّكَ وَأَجِرْنَا مِنْ عَذَابِكَ بِتَجَاوُزِكَ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِعَدْلِكَ وَلَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ مِنَّا دُونَ عَفْوِكَ»^(٢) .

فالأفراد المؤمنون ليسوا فقط محتاجين إلى رحمة الله الواسعة من أجل أن تُغفر لهم ذنوبهم ، بل إنهم بحاجة إلى اللطف والفضل الإلهي لكي ينالوا المقام المحمود عند الله والدرجات العليا في الجنة . وهذا ما يصرح به الله (جل وعلا) وورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم «قال الله تبارك وتعالى : لا يَتَكَلَّمُ الْعَامِلُونَ لِي عَلَى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِثَوَابِي فَإِنَّهُمْ لَوْ اجْتَهَدُوا وَأَتَعَبُوا أَنْفُسَهُمْ أَعْمَارَهُمْ فِي عِبَادَتِي كَانُوا مَقْصَرِينَ غَيْرَ بِالْغَيْنِ فِي عِبَادَتِهِمْ كُنَّةَ عِبَادَتِي فِيمَا يَطْلُبُونَ عِنْدِي مِنْ كِرَامَتِي وَالنَّعِيمِ فِي جَنَاتِي وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي جَوَارِي وَلَكِنْ بِرَحْمَتِي فَلْيَثِقُوا وَفَضْلِي فَلْيَرْجُوا وَإِلَى حَسَنِ

(١) سورة النور ؛ الآية : ٢١ .

(٢) الصحيفة السجادية : الدعاء العاشر .

الظنُّ بي فليطمئنا . فإنَّ رحمتي عند ذلك» (١) .

ونستنتج من مجموعة الآيات الكريمة والأحاديث والروايات السابقة أن سُبُل نيل المغفرة الإلهية يوم القيامة كثيرة ومتعددة . ولكن فيض الرحمة والمغفرة الإلهية يكون من نصيب أولئك الذين كانوا في الدنيا يؤمنون بالله وكانوا - على نحو ما - على ارتباط بالبارئ (سبحانه وتعالى) بقلوبهم أو بلسانهم أو بعملهم مهما كان هذا الارتباط ضعيفاً ، وكانوا يقومون بأعمال الخير ، حيث أن الأسس التي يكون الفرد بموجبها مؤهلاً لنيل الرحمة الإلهية ، هذه الأسس يجب أن توضع في الدنيا ، وعلى أفراد البشر أن يبادروا في هذه الدنيا التي هي دار تكليف ، إلى تربية أنفسهم وفقاً للقيم المعنوية والإنسانية السامية ، وعليهم - قبل أن يأتي أجلهم - أن يمهّدوا السبيل في داخل وجودهم ، وفي أعماق أنفسهم لاستقبال الفيض الإلهي والرحمة الإلهية ، لكي يستفيدوا من هذا الفيض وتلك الرحمة والمغفرة يوم القيامة .

وإذا لم يفعل الناس ذلك في الدنيا ، فإن الجزع والتأثر والتألم الذي يبدية الأفراد الماديون والمشركون والمعاندون يوم الحشر لا ينفعهم شيئاً ، وأن إظهار الندم والاعتذار على ما صدر عنهم من معاصٍ وذنوب لا يمكنه أن يغير من مصيرهم المحتوم ويخلصهم من العذاب الذي ينتظرهم . وبعبارة أخرى : فإن الرحمة والفضل الإلهي تختلف من جهات عديدة عن الرحمة الموجودة عند البشر . ومن جملة هذه الاختلافات : أن الرحمة والرأفة هي حالة انفعالية لدى الإنسان ، تظهر عنده عندما يواجه مشهداً مأساوياً ، وفي هذه الحالة فإنه يتأثر ويتحرك في ضميره الشعور بالرأفة والعطف ، وهذا الشعور يدفعه لإظهار مشاعر الترحم والرأفة ، كما إذا شاهد الإنسان شخصاً يبكي ، أو شخصاً بائساً يئن ويتألم ، أو لدى مشاهدته اليتامى المكتئبين والجرحى المعدّبين ، والمظلومين المضطهدين وغيرهم .

(١) أصول الكافي : المجلد ٢ ، صفحة ٧١ .

أما الرَّحمة الإلهية فهي ليست ناتجة عن الإنفعال والتأثر ، بل أن هذه الصفة هي من صفات الكمال للبارئ (سبحانه وتعالى) . وهي صفة تشمل حال الأشخاص الجديرين بها ، والمستأهلين لها وفقاً لمقتضى الإرادة الإلهية الحكيمة ، وتنقذهم من السقوط في الهاوية ، وصفة الرَّحمة الإلهية هذه لا تشمل حال الأفراد غير الكفوئين وغير الجديرين بها .

حسن الظن بالله :

ومن جُملة الأمور التي تجعل الإنسان مؤهلاً وجديراً لكي تشمله الرحمة الإلهية : حسن الظن بالله . فالذين عاشوا في هذا العالم وهم يأملون رحمة البارئ (تعالى) ، هؤلاء يوجد في قلوبهم حسن ظن بالله ، وماتوا وهم يرجون فضله ورحمته ، وبالتالي فهم يملكون أرضية ملائمة في الآخرة لنيل العفو الإلهي .

واستناداً إلى الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام ، فإن مثل هؤلاء الأفراد المؤهلون والجديرون من المحتمل جداً أن يرحمهم الله ويتفضل عليهم من فضله يوم القيامة ، وعند ذلك يتمتعون بما لديهم من قليل من العمل الصالح وحسن الظن بالله ، بالدرجات العليا في الجنة وبالنعمة الإلهية اللامحدودة .

(عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام قال : «وجدنا في كتاب علي بن أبي طالب عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على منبره : «والله الذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمنٌ خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين . والله الذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله والتقصير من رجائه لله وسوء خلقه واغتيابه المؤمنين . والله الذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبده مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن لأن الله كريمٌ بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن والرجاء ثم يخلف ظنه ورجاءه . فأحسنوا بالله

الظنَّ وارغبوا إليه»^(١) .

كلام رجل يحسن الظن بالله :

(قال أعرابيٌّ : يا رسولَ الله من يُحاسبُ الخلقَ يومَ القيامةِ قال : «الله عزَّ وجلَّ» قال نجونا وربَّ الكعبة . قال : «وكيف ذلك يا أعرابيُّ ؟» قال : لأنَّ الكريمَ إذا قَدَرَ عفا»^(٢) .

فهذا المسلم الذي يتمتع بصفاء النية ونظافة القلب تعلّم درس التوحيد من مدرسة الإسلام ، وتوصل إلى معرفة الله الكريم ، وبالتالي فهو يحسن الظنَّ بالله وبعباده وتجاوزته عن السيئات ويعتبر نفسه من الناجين ، استناداً إلى الفضل والكرم الإلهي . والرسول ﷺ يستمع إلى كلام هذا الأعرابي ولا يخطئه ، بل وكأنه يؤيد كلام هذا الأعرابي بسكوته على ما قال ، ويتبنى الأمل الذي يراوده بالعبودية الإلهية . لأنَّ الإرادة الإلهية شاءت أن يعامل (سبحانه وتعالى) عباده المؤمنين وفقاً لحسن ظنهم به .

(عن النبي ﷺ قال : «ليس من عبدٍ ظنَّ به خيراً إلا كان عندَ ظنِّه»^(٣) .

إنَّ حُسنَ الظنِّ بالله ، والأمل بعباده ومغفرته هو أفضل وسيلة لنيل الرحمة والعناية الإلهية . وقد اهتم الإسلام بهذه الحالة الروحية وبهذا الشعور بالأمل اهتماماً فائقاً ، إلى درجة أن الله يتعامل مع عباده من حيث شمولهم برحمته أو حرمانهم منها ، وفقاً لطبيعة ظنِّ العباد بالله ، وهذا ما جاء في الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام :

(عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : «أحسنَ الظنَّ بالله ، فإن الله عزَّ وجلَّ

(١) مشكاة الأنوار : صفحة ٣٥ .

(٢) مجموعة ورام : المجلد الأول ، صفحة ٩ .

(٣) مستدرک وسائل الشيعة : المجلد الثاني ، صفحة ٢٩٦ .

يقول : أنا عند ظنِّ عبدي المؤمن بي إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً»^(١) . إنَّ أي نوع من سوء الظنِّ تجاه الباريء (سبحانه وتعالى) - سواء كان سوء الظنِّ هذا يرتبط بعفو الله ومغفرته أو علمه وقدرته ، أو يرتبط بسائر الصفات الإلهية - يؤدي إلى سقوط الشخص السّيء الظنِّ بالله وتعرضه للخسران المبين ، وبالتالي هلاكه .

وبشأن الأشخاص الذين يسيئون الظنِّ بعلمِ الله (سبحانه وتعالى) يقول القرآن الكريم :

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) ، حيث يؤتى يوم القيامة إلى الحساب بأناس كانوا يؤمنون بالله في الدنيا ، ولكنهم كانوا يسيئون الظنِّ بعلم الباريء (تعالى) كانوا يتصورون بأنَّ الله لا يُحيط علماً بما يقوم به الناس من أعمال في السرِّ ، وعلى هذا الأساس فهم لا يتورعون عن ارتكاب الذنوب في خلواتهم ، وفي يوم القيامة يُؤاخذون ويُحاسَبون على سوء الظنِّ هذا ويقال لهم : إنَّ سوء ظنكم بالله في الدنيا هو سبب مأساتكم وشقائكم في هذا اليوم (يوم القيامة) ، وهو الذي يقودكم إلى الانحطاط والهاوية وسوء المصير .

(عن النبي ﷺ قال «ليس من عبدٍ ظنَّ بالله خيراً إلا كان عند ظنِّه به ولا ظنَّ به سوءاً إلا كان عند ظنِّه به وذلك قوله تعالى ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾»^(٣) .

فالذين يؤمنون بالله إيماناً حقيقياً ، ويعرفون بأنه (سبحانه وتعالى) يحيط علماً بكل ما يقوم به الناس في السرِّ والعلن ، فإنهم عندما تقودهم أهواؤهم النفسية وشهواتهم إلى طريق المعصية وارتكاب الذنوب ، فإنهم يتأثرون لا محالة ويشعرون بالخجل ، وهذه الحالة الروحية قد

(١) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٧٢ .

(٢) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٣ .

(٣) تفسير البرهان : المجلد الثالث ، صفحة ١٠٩ .

تقودهم إلى اليأس شيئاً فشيئاً ، ونتيجة لحالة اليأس الشديد ، فإنهم قد يتخلّون عن القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية . ولكي يحول (سبحانه وتعالى) دون وصول الأفراد المؤمنين إلى مثل هذا الوضع المؤلم ، ويبقي على جذوة الأمل بالعمو والمغفرة الإلهية - الذي هو حسن الظن بالله - متوقدة في نفوسهم ، فإنه (جل وعلا) فتح أمامهم باب التوبة والاستغفار ، حيث بات المذنبون يحدوهم الأمل بأن يغفر الله ذنوبهم ، وهذا ما أعلنه الله (سبحانه وتعالى) بكل صراحة ووضوح في القرآن الكريم :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١) .

وإن الذنوب هي الأعمال التي نهى عنها الإسلام وحذّر المسلمين من ممارستها . فارتكاب الذنب يلوث المذنب ويجعله قذراً ، والتوبة هي بمثابة الماء الذي يطهر الأقدار ويزيلها ، ويصبح المذنب بعد التوبة وكأنه لم يرتكب ذنباً .

(عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»)^(٢) .

الذنوب التي تتعارض مع الضمير :

وجدير بالذكر في هذا المجال أن بعض الذنوب إلى جانب كونها عملاً غير قانوني ، فإنها - من الناحية الفطرية - تعتبر عملاً لا إنسانياً يتعارض مع الضمير والوجدان الإنساني ، فالشخص الذي يرتكب مثل هذه الذنوب سواء كان مسلماً أو غير مسلم يواجه عذاب الضمير وتأنيب الوجدان الأخلاقي ، وتصبح حياته حياة شقاء وعذاب لا تطاق نتيجة لتأنيب الضمير .

وكمثال على ذلك لتصور طفلة صغيرة جميلة عمرها أربع سنوات تقف

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) سفينة البحار : المجلد الأول ، صفحة : ١٢٧ مادة : (توب) .

بالقرب من منزلها في أحد الأزقة وتتدلى من عنقها سلسلة ذهبية ، وفي هذه اللحظة يمر لص من ذلك المكان ، فتقع عينه على تلك السلسلة الذهبية ويطمع فيها ويفكر في سرقتها فيدنو من الطفلة على أنه أحد أقاربها ، فيضمها إليه ويقبلها ويُخرج تفاحة من جيبه ويعطيها للطفلة ، وفي الوقت نفسه ينتزع السلسلة الذهبية من عنق الطفلة ويتركها ويذهب ، وهنا وقع عمل مخالف للشرع والقانون .

وإذا كان السارق مؤمناً ، فإنه يشعر في أعماقه وفي ضميره بالخجل من العمل الذي قام به ، أما إذا كان عديم الإيمان ، فإنه لا يشعر بأي خجل ، كما لا يشعر بتأنيب الضمير ، ويمرّ أمام القضية مرور الكرام . وإذا انتبهت الطفلة إلى محاولة سرقة سلسلتها الذهبية وأخذت تصرخ وأمسكت بالسلسلة الذهبية بيديها الصغيرتين ، وإذا كان السارق شخصاً وقحاً وخطراً ، فإنه يكتم فم الطفلة ويأخذها إلى مكان منعزل وهناك يقوم بخنقها ويسرق منها السلسلة الذهبية ، ويترك الطفلة في نفس المكان وهي جثة هامدة ويذهب إلى حال سبيله . وهنا حدثت معصيتان : الأولى تتمثل في السرقة ، وهو عمل مخالف للقانون . والأخرى قتل الطفلة ، وهو عمل مخالف للقانون ، ومخالف للفطرة الإنسانية والضمير والوجدان البشري .

وإذا كان القاتل فرداً عديم الإيمان ولا يشعر بالخجل أمام الله لدى قيامه بالسرقة ، فإنه لا يستطيع أن يتجاهل عملية خنق الطفلة ، ويمر عليها مرور الكرام ، لأن ضميره لم يهدأ ولم يقر له قرار منذ أن قتل النفس (التي حرم الله إلا بالحق)^(١) ، فهو عندما يأتي الليل يذهب إلى فراشه ، ولكنه لا يستطيع النوم ويصاب بالأرق وهو يفكر بالجريمة التي ارتكبها . وعندها يتخيل منظر الطفلة البريئة وهي تلفظ أنفاسها يرتعش جسمه وسيطر عليه الرعب والاضطراب ، وكأن في داخله قوة مجهولة مقتدرة تحاكمه ولا تدعه يهدأ لحظة واحدة ، وهي

(١) المترجم .

تنهره وتصرخ عليه باستمرار وتقول لهُ بحدّةٍ وعنف : أيها المجرم لماذا قتلت
الطفلة البريئة ؟ لماذا ارتكبت هذه الجريمة المرّوعة ؟ .

وأحياناً يُصاب مثل هؤلاء المجرمين بالجنون نتيجة تأنيب الضمير
والعذاب النفسي الذي يتعرضون له . على أن حالة الجنون هذه تكون شديدة
وعنيفة ، وأن السبيل الوحيد لمعالجة حالة الجنون هذه هو حل العقدة الداخلية
التي يعاني منها هؤلاء ، وإزالة آثار هذا العمل المخالف للضمير والوجدان من
ذاكرتهم ، وهذا أمر مستحيل في الحالات العادية .

ويرى أطباء الأمراض النفسية أن مثل هؤلاء المرضى إذا كانوا يتمسكون
بالمعتقدات الدينية ، فإن المشكلة النفسية والروحية التي يعانون منها من
الممكن أن تُخَلَّ من خلال الإيمان بالله والاعتقاد بغفران الذنوب من قبل
البارئ (جلّ وعلا) ، وبالتالي يتخلّص من الشقاء الذي يعيش فيه .

«إنّ عذاب الضمير مؤلم ومرهق جداً ، وهذا العذاب يظهر أحياناً
على شكل ندم لا يمكن تهدئته إلّا من خلال تلافي الخطأ أو دفع
الفدية ، ولهذا السبب فإن غفران الذنوب حسبما تنص عليه
الأديان ، يحظى بأهمية خاصة»^(١) .

وقد يتصور بعض المؤمنين في مثل هذه الحالات ونتيجة لجهلهم تعاليم
الدين وعدم معرفتهم بالرحمة الإلهية ، قد يتصورون بأن ذنوبهم غير قابلة
للغفران والعفو ، وأنهم على ضوء ما ارتكبوه من جرم وذنوب لا يستحقون
المغفرة ، وبالتالي فإن الرحمة الإلهية لا تشملهم ، ولهذا السبب فهم يحترقون
دوماً بنيران تأنيب الضمير ويعانون من عذاب الوجدان . هؤلاء الأشخاص إذا ما
أُتيح لهم أن يلتقوا بمربٍّ أخلاقي كفوء وروحاني جدير يثير انتباههم إلى الرحمة
الإلهية اللامحدودة ، ويخلق في نفوسهم الأمل بغفران الذنب الذي ارتكبوه ،

(١) چه ميدانم ؟ (ماذا أعلم) بيماربهاي روجي وعصي (الأمراض النفسية والعصبية) ،
صفحة ٦٦ .

فإن عُقدهم الداخلية سرعان ما تحلّ ويتخلصون من العذاب والإضطهاد .
والقضية التي تشير إليها فيما يلي تثبت هذا الموضوع :

الحاكم الأموي وقتله الشخص البريء :

أصدر أحد حكام بني أمية المقتدرين أمراً بقتل أحد الأفراد الأبرياء ،
حيث قُتل هذا الشخص بالفعل وبعد قتل هذا الشخص البريء واجه هذا
الحاكم أزمة نفسية واضطراباً فكرياً حيث صار ضميره يعذبه ليل نهار بسبب
العمل الظالم الذي صدر عنه ، فترك عمله واعتزل الناس . ولكن عذاب
الضمير بقي يلاحقه ويقض مضجعه حتى أُصيب بالجنون .

ومن حسن الحظ أن الإمام السَّجَّاد عليه السلام تشرف في ذلك العام إلى
الحجّ ، فعرضت هذه القضية على الإمام عليه السلام فتحدث قليلاً إلى الحاكم
المذكور بكلمات أحييت الأمل في قلبه فحلّت مشكلته .

(كانَ عليُّ بنُ الحسين عليه السلام في الطَّوافِ فنظَرَ في ناحيةِ المَسْجِدِ إلى
جَماعَةٍ فقال : « ما هذه الجماعة ؟ » فقالوا : هذا مُحَمَّدُ بنُ شهابِ الزَّهْرِيُّ
اختلطَ عقلُهُ فليسَ يتكلَّمُ فأخرجَهُ أهلهُ لَعَلَّهُ إذا رأى النَّاسَ أن يتكلَّم . فلَمَّا
قضى عليه السلام طَوافَهُ خَرَجَ حَتَّى دَنَا مِنْهُ فَلَمَّا رآه مُحَمَّدُ بنُ شهابٍ عَرَفَهُ فقالَ لَهُ
عليُّ بنُ الحسينِ : « مالِكُ »؟ قالَ : وَليْتُ وِلايَةَ فَأصَبْتُ دَمًا فدَخَلَنِي ما ترى .
فقالَ لَهُ عليُّ بنُ الحسينِ : « لَأنا عَلِيكَ من يَأْسِكَ من رَحمةِ اللَّهِ أشدُّ خَوْفًا مِنِّي
عَلَيْكَ ممَّا أتَيْتَ » ثُمَّ قالَ لَهُ : « أعطِهِم الدِّيَةَ » فقالَ : قد فَعَلت ، فأبوا . قالَ :
« اجعلها صُراً ثُمَّ انظر مواقيتَ الصَّلَاةِ فألقِها في دارِهِم »^(١) .

إذن ، فإن حُسن الظنِّ بالله ورجاء فضله ورحمته يمنح الإنسان الهدوء
والسكينة وراحة الفكر ، كما أن حُسن الظنِّ بالله والأمل بمغفرته وعفوه يزيل
اليأس من القلب ، كما يزيل أثر المعاصي حتى تلك التي تتعارض مع نداء

(١) مجموعة ورام : المجلد الثاني ، صفحة : ٤ .

الضمير والوجدان الإنساني وتُهيء للإنسان فرصة الفوز والفلاح ونيل السعادة في الدنيا والآخرة .

ولكي يتمتع الأفراد المؤمنون بمثل هذه الحالة المعنوية ، ويعيشوا حياتهم وهم يحسنون الظنَّ بالله وينعموا بفوائد ذلك ، فعليهم أن يُربّوا أنفسهم في الدنيا على هذه الصفة الحميدة ، وينمّوا هذه الخصلة السامية (التي هي مصدر السعادة) في ذاتهم .

وإذا كان هناك أفراد عاشوا حياتهم في السابق وهم في غفلة من أمرهم ، ولم يكونوا يتمتعون بهذه الثروة القيمة . فعليهم الآن أن يعودوا إلى أنفسهم ، ويحاولوا - من خلال ما بقي من أعمارهم - أن يُحسنوا الظنَّ بالله ، ويضيئوا قلوبهم بنور الأمل ، ويعملوا من أجل أن تختم أعمارهم بحسن الظنَّ بالله ، ويرحلوا عن هذه الدنيا وفي قلوبهم أمل برحمة الله وغفرانه ، لكي يستفيدوا يوم القيامة من حُسن الظنَّ بالله ، وتشملهم - بالتالي - المغفرة والعفو والرحمة الإلهية .

(عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإِنَّ قَوْمًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءُ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (١) .
بعدها تلا ﷺ قوله تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢) .

إنَّ حَسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَرَجَاءَ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ هُوَ وَسِيلَةٌ قِيَمَةٌ وَنَافِعَةٌ مِنْ أَجْلِ غَفْرَانِ الذَّنُوبِ وَنَيْلِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَكِنْ إِلَى جَانِبِ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ يَجِبُ أَخْذُ الْعِقَابِ الْإِلَهِيِّ بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ . أَيُّ أَنَّ الَّذِينَ يَأْمَلُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ ، وَيَحْلَمُونَ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ الْإِلَهِيَّةِ يَجِبُ أَنْ لَا يَغْفُلُوا عَنِ الْعَدَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَا يَنْسُوا

(١) تفسير الدر المنثور : المجلد الخامس ، صفحة ٣٦٢ .

(٢) سورة فصلت ؛ الآية : ٢٣ .

العقاب الذي ينتظرهم لما ارتكبوه من أعمال سيئة ، وهذا ما ورد من خلال الكثير من الروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام :

(عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : «قال لقمان لابنه ناتان : يا بني خَفِ الله خوفاً لو أتيت يوم القيامة ببرِّ الثَّقَلَيْنِ خِفْتَ أن يُعَذِّبَكَ ، وارحُ الله رجاءً لو وافيت يومَ القيامةِ بإثمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أن يَغْفِرَ اللهُ لك»^(١) .

والأمر الآخر الذي يجب الإلتباه إليه وملاحظته في مجال حُسن الظنِّ بالله ، هو أنَّ الأشخاص الذين لديهم الأمل بعفو الله ومغفرته عليهم أن يتبهاوا باستمرار حتى لا يصابوا بالتطرف فيما يعتقدون به في مجال العفو الإلهي ، وأن لا يتجاوزوا حدود حُسن الظنِّ بالله ، حتى لا يؤدي هذا الأمل بالرحمة الإلهية إلى إصابتهم بالغرور والطغيان ، الأمر الذي يُؤدِّي بهم إلى ارتكاب الذنوب والموبقات ، مما يعود عليهم بنتائج عكسيّة تجعلهم يستحقون العذاب الإلهي الأليم .

(عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : قُلْتُ لَهُ : قومٌ يَعْمَلُونَ بالمعاصي ويقولونَ نرجو فلا يزالونَ كذلك حتى يَأْتِيَهُمُ الموت . فقال عليه السلام : «هؤلاء قومٌ يَتَرَجَّحُونَ في الأمانِي كَذَبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ إِنَّ مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ»^(٢) .

أي أن أفراد هذه المجموعة يظهرون من خلال الذنوب التي يرتكبونها باستمرار ، بأنهم لا يطلبون الرحمة الإلهية ولا يخافون من عذاب الله .
وعنه عليه السلام قال : «حُسْنُ الظَّنِّ يَدْعُو إِلَى حُسْنِ العِبَادَةِ والمَغْرورُ يَتِمَادِي في المعصية ويتمنى المغفرة»^(٣) .

(١) مستدرک وسائل الشيعة : المجلد ٢ ، صفحة ٢٩٠ .

(٢) مستدرک وسائل الشيعة المجلد ٢ ، صفحة ٢٩٦ .

(٣) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٦٨ .

وإن الذين يريدون أن يكونوا من المؤمنین لرحمة الله ، ويوجدوا في ضمايرهم حسن الظن بالله من خلال الإلتزام بمبادئ الشرع الإسلامي وفي إطار المعايير الإسلامية ، لكي يكونوا من المستأهلين والمستحقين للعفو الإلهي ، فعليهم أن يعرفوا الإسلام ، ويطلعوا على تعاليم القرآن ، ويجعلوا أملهم برحمة الله وعفوه منطبقاً مع المعايير الدينية الصحيحة .

وبما أننا سنبحث في المحاضرات القادمة من الكتاب حول مواقف الحساب والميزان وحساب الأعمال وحساب حقوق الخلق والخالق ، وبشكل عام سنبحث حول المراحل المصيرية في القيامة والمواقف التي يعزل فيها أهل الجنة عن أهل النار ، حيث أن العفو الإلهي في جميع هذه المراحل يعتبر أكبر وسيلة لنجاة المذنبين ، وأن الرحمة الإلهية ينالها أولئك الذين عاشوا في الدنيا ، وهم على حسن ظن بالله ومؤملين رحمته ، لذلك فإنه حري بنا أن نخصص هذه المحاضرة للبحث حول هذا الموضوع لكي يتعرف القارئ الكريم - بصورة أفضل - على معنى ومفهوم حسن الظن بالله ، والذي ورد في كلام الأئمة عليهم السلام ، وينمي في ضميره - وبشكل صحيح - الشعور بالأمل والرجاء بالرحمة والمغفرة الإلهية ، ويجعل من نفسه جديراً بالرحمة والمغفرة الإلهية .

وللوصول إلى هذا الهدف المقدس وإدراك معنى حسن الظن بالله فمن الضروري أن ندقق في بداية الأمر في برنامج الأنبياء بشكل عام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بشكل خاص ، وأن نطلع على نهج أولئك (الأنبياء) الذين صاغوا الفكر الإيماني لأبناء البشر ، وكانوا بمثابة حلقة الوصل بين الناس وبين الخالق ، ونفهم كيف قام المرَبون المبعوثون من قبل الله بدعوة الناس (إلى الله) ، وكيف استطاعوا أن يؤثروا في الناس وبأية طريقة ، وبأي تعبير علموا أتباعهم بأن يكون عندهم أمل ورجاء برحمة الله .

الأنبياء والخوف والرجاء :

استناداً لما جاء في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والنصوص الإسلامية ، فإن دعوة الأنبياء للبشر تقوم على مبدئين أساسيين وقوتين مقتدرتين وهما الخوف والرجاء أو الأمل . وعلى ضوء هاتين القوتين الإيجابية والسلبية كان الأنبياء يدعون الناس إلى عقيدة التوحيد الإلهية ، ويحثونهم على التفكير والتدبر وبهذه الطريقة تمكنوا من تنفيذ برامجهم الخاصة بتربية البشر . والقرآن الكريم يصف هاتين القوتين الكبيرتين بالمبشر والمُنذر ، ويشير إلى أنبياء الله بشكل عام فيقول :

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(١) ، أي أن الأنبياء كانوا من جهة يبشرون الذين يطيعون أوامر الله بالرحمة والأجر والثواب والنعم الخالدة ، ومن جهة أخرى كانوا ينذرون المتخلفين عن أوامر الله والمذنبين بالعذاب الإلهي ويحذرونهم من خطر العقاب الإلهي . ويقول القرآن الكريم عن نبي الإسلام العظيم محمد ﷺ :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢) .

حديث الطبيب مع المريض :

يعالج الأنبياء الأمراض الروحية والمعنوية للناس ، أما الأطباء فهم يعالجون الأمراض الجسدية . على أن الأطباء هم كالأنبياء يبشرون المرضى وينذروهم من أجل معالجتهم . فهم من جهة يبشرون المريض ويقولون له : بأنك إذا اتبعت التعليمات التي يعطيها الطبيب على الصعيد الدوائي والغذائي ، وامتنعت عن كل ما يضر بصحتك فمن المؤمل أنك ستشفى خلال فترة معينة ، وعندها ستعود إلى عملك وتمارس نشاطك وأنت سليم معافى . أما إذا لم تلتزم

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ٤٨ .

(٢) سورة سبأ ؛ الآية : ٢٨ .

بتعليمات الطبيب وتتبع البرامج العلاجية التي وضعها لك كما يجب ، ولم تلتزم بالنظام الغذائي المحدد لك ، فإن مرضك سوف يشتد عليك ، وقد يؤدي بك إلى الموت .

هذا الأسلوب في الكلام الذي يتبعه الأطباء ويتضمن بشارة وإنذاراً وتحذيراً للمريض ، يستخدم على صعيد الأمراض العادية . أما بالنسبة للمريض الذي يعاني من التهاب حاد في الزائدة الدودية (المصران الأعور) ، حيث يستدعي الأمر إجراء عملية جراحية مستعجلة وإلا فإن المريض سيموت خلال ساعتين أو ثلاثة ، فإن دور الطبيب ينحصر هنا في تحذير المريض وإنذاره . وبعد أن يقوم الطبيب بفحص مثل هذا المريض ، فإنه يكتفي بإعلان حالة الخطر ويقول وهو في قلق واضطراب : إن المريض على وشك الموت ، أسرعوا به إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية له ، وإلا فإنه سيموت .

على أن الأنبياء في مجال الدعوة (إلى الله) كانوا يواجهون أحياناً ظروفًا خاصة تقتضي فقط أن يُعلنوا حالة الخطر لإعادة الناس الذين هم في غفلة من أمرهم إلى وعيهم ورشدتهم ، وجعلهم يدركون الوضع الذي هم فيه . فالله (سبحانه وتعالى) في بداية الدعوة أمر الرسول ﷺ فقط أن ينذر الناس ، حيث يخاطب (جلّ وعلا) رسوله بالقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (١) .

ولقد بُعث نبي الإسلام ﷺ في مجتمع كان يسوده الجهل ، وتستشري فيه الأمراض العقائدية والأخلاقية ، فالناس في مجتمع الجاهلية كانوا يعبدون الأصنام والجمادات ، ويقدمون لها القرابين من الحيوانات وأحياناً كانوا يقدمون لها قرابين بشرية ، كما أنهم كانوا يئدون البنات (يدفنوهن في التراب وهن أحياء) ، ويقامرون بنسائهم ، ويتعاملون بهنّ كالنقود ، وعندما كانوا يخسرون في القمار كانوا يسلمون نساءهم للطرف الرابع أو الفائز. وأحياناً كانوا يبيعون

(١) سورة المدثر ؛ الآيتان : ١ و ٢ .

النساء في السوق كالأغنام ، وينهبون القوافل التجارية . ولم يكن الأفراد العاديون يأمنون على أموالهم وأرواحهم من مقابل رؤساء العشائر .

وخلاصة القول : أن العقل والضمير والعدل والحق والفضيلة لم يكن لها وجود في مجتمع الجاهلية (الذي بعث فيه النبي ﷺ) ، وكان الفساد والانحطاط الخلقي هو الحاكم . وعليه فإن الإنذار ودق ناقوس الخطر ، هو وحده الذي كان باستطاعته أن يمزق حاجز الغفلة في مجتمع كهذا ، ويوقظ الناس من غفوتهم ويعيدهم إلى رشدهم ويفتح أمامهم نافذة الأمل والرجاء .

وقد ورد في كتاب «لسان العرب» حول العبادة المأثورة «أنا النذير العريان» ما يلي :

(وذلك أن ربيثة القوم وعينهم يكون على مكان عالٍ فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألأخ به لينذر قومه ويبقى عرياناً .

في الحديث أن النبي ﷺ قال : «إنما مثلي ومثلكم كمثلي رجلٍ أنذر قومه جيشاً فقال أنا النذير العريان أنذرهم جيشاً»^(١) .

فالرسول الأكرم ﷺ - من خلال هذا الحديث - يلفت انتباه قومه إلى خطر الانحرافات العقائدية والمفاسد الخلقية .

إذن ، فإن البرنامج الأساسي للأنبياء (باستثناء حالات معينة) هو البشارة والإنذار ، فهم يبشرون الناس بالرحمة الإلهية وينذروهم من عذاب الله . على أن أتباع الديانات السماوية الإلهية (التي جاء بها الأنبياء) مكلفون على الدوام ومن منطلق واجبهم الديني ، بإيجاد وازع الخوف والرجاء في قلوبهم ، وبدافع من هذا الخوف والرجاء يجتهدون ويسعون في أداء واجباتهم الدينية ، واجتناب ما ينهى عنه الدين .

(عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام أنه قال لهشام بن الحكم : «يا

(١) لسان العرب ، مادة : (عرا) ، صفحة ٤٨ .

هَشَامٌ لَا يَكُونُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا وَلَا يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا حَتَّى يَكُونَ عَالِمًا لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو» (١) .

وهناك نقطة من الضروري أن يعرفها جميع أتباع الشرع الإسلامي المقدس ، وهي كيف يتم تحديد الخوف والرجاء ، وعلى أساس أي معيار ؟ أي بعبارة أخرى : كيف يعرف الشخص المؤمن بأنه لم يُغالِ في أمله بالرحمة الإلهية وأنه لم يصب بالغرور نتيجة لهذا الأمل . وأيضاً كيف يعرف الشخص المؤمن بأنه لم يغالِ في خوفه من الله ولم يتجاوز حدود الحق والشرع ؟ .

وقد بين الإمام الصادق عليه السلام هذا الموضوع ضمن حديث تربوي قصير .

مِيعَارُ الْأَمَلِ بِالرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ الْإِلَهِيِّ :

(عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «أرْجُ الله رجاءً لَا يُجْرُئُكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَخَفِ الله خَوْفًا لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ» (٢) .

ويتضح جيداً من خلال الحديث السابق (المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام) بأن الشخص إذا تجاوز حدوده بحجة وجود الرحمة والعفو الإلهي ، وقام بارتكاب كل المعاصي والأعمال القبيحة دون رادع أو خوف ، فعليه أن يعلم بأنه قد تجاوز حدود الأمل ، ودخل في حيز الغرور والتمرد (على الأوامر الإلهية) (٣) ، وأنه بدأ يسلك طريق الهلاك . وكذلك فإن الإنسان الذي يرى نفسه يائساً من رحمة الله ويتصور بأن ذنوبه لا تغتفر وذلك من منطلق خوفه من الله ، فإن مثل هذا الإنسان عليه أن يعرف بأنه قد تجاوز حدود الخوف المشروع من الله ، وأنه بدأ يسير في طريق السقوط والانحراف .

(١) مستدرک وسائل الشيعة : المجلد الثاني ، صفحة ٢٩٠ .

(٢) مشكاة الأنوار ، صفحة ١١٨ .

(٣) المترجم .

الرحمة والعقاب الإلهي :

حسب الشريعة الإسلامية ، فإن الله هو أرحم الراحمين عندما يقتضي الأمر ذلك ، ولكن هذا لا يعني أن لا يتوانى فرد غير ملتزم عن ارتكاب المعاصي والذنوب ويقوم بانتهاك القوانين والتعليمات الإلهية ، ويرتكب الجرائم المختلفة دون رادع ودون أن يبالي بأحد ، ومن ثمَّ يعتبر نفسه مشمولاً بالعفو الإلهي وبمنأى عن العقاب ، وذلك بحجة أن رحمة الله واسعة وأنَّ الله أرحم الراحمين .

وأيضاً حسب ما جاءت به الشريعة الإسلامية المقدسة فإن الله هو شديد العقاب في نفس الوقت وعندما يتطلب الأمر ذلك ، وهذا لا يعني أن الأفراد ونتيجة لاعتقادهم بالعقاب الإلهي الشديد ، يفقدون الأمل (بالعفو الإلهي) ويتصورون بأن ذنوبهم لا تغتفر ، وأنهم محرومون من الفيض الإلهي والعفو والرحمة الإلهية .

وهذا الموضوع ورد في دعاء الإفتتاح الذي يتلوه المؤمنون في ليالي شهر رمضان .

(. . .) وأيقنتُ أنك أرحمُ الرَّاحمين في موضعِ العَفْوِ والرَّحْمَةِ وأشدُّ المُعاقبينَ في موضعِ النَّكَالِ والنَّقِمَةِ) .

التحرك بين الخوف والرجاء :

إذن ، فالفرد المؤمن يجب أن يعيش دائماً بين الخوف والرجاء ، ويعلم بأن اليأس من رحمة الله والأمن لمكر الله وعذابه يعتبر من كبائر الذنوب بصريح الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والروايات المنقولة عن الأئمة عليهم السلام .

(دخل عمرو بن عبيد على أبي عبدالله الصادق عليه السلام فلما سلم وجلس تلا هذه الآية ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ - سورة النجم ؛ الآية : ٣٢ - ثم أمسك فقال له أبو عبدالله عليه السلام : ما أسكتك ؟ .

قال : أُحِبُّ أَنْ أَعْرِفَ الْكِبَائِرَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فقال : «نَعَمْ يَا عَمْرُو أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ . يَقُولُ اللَّهُ ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ - سورة المائدة ؛ الآية : ٧٢ - وَبَعْدَهُ الْإِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ ﴿إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ - سورة يوسف ؛ الآية : ٨٧ - ثُمَّ الْأَمْنُ لِمَكْرِ اللَّهِ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ - سورة الأعراف ؛ الآية : ٩٩ - «...» (١) .

وبعد ذلك استعرض الإمام الصادق عليه السلام الكبائر الأخرى واحدةً بعد أخرى مستشهداً بآيات من القرآن الكريم لكل واحدة من تلك الكبائر .

إذن يلاحظ القارئ الكريم بأن الإسلام يعتبر اليأس من رحمة الله والأمن من عذاب الله ومكربه من كبائر الذنوب ، وأن الإنسان المسلم يتجنبهما معاً ، لأن اليأس والقنوط من رحمة الله وعفوه يجعل الإنسان يفقد الحافز والرغبة في القيام بواجباته الدينية ، وبالتالي يحول دون سَمَوِهِ وتكامله المعنوي ، كما أن الأمن من العذاب الإلهي وعدم الخوف من عذاب الله يوم القيامة يجعل الإنسان يتمادى في ارتكاب المعاصي والذنوب دون رادع ، مما يؤدي به إلى السقوط والانحطاط المعنوي والخلقي .

إنَّ الأمل برحمة الله والخوف من عذابه هما بالنسبة للأفراد المؤمنين بمثابة جناحين يجب أن يكونا معاً ، وإلى جانب بعضهما البعض لكي يتحقق التوازن بين أفكارهم وأعمالهم وتتهياً لهم فرصة الرقي والتكامل ، ولهذا السبب فإن الأئمة عليهم السلام أوصوا أتباعهم وشيعتهم بقوة بأن يهتموا بكلا الجانبين ، وأن يسيروا دائماً وأبداً بين الخوف والرجاء .

(عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : «ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يُشْرِفُ عَلَى النَّارِ وَيَرْجُوهُ رَجَاءً كَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (٢) .

(١) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٢٨٥ .

(٢) تفسير البرهان : المجلد الرابع ، صفحة ١٠٨ .

يقوم الأفراد المؤمنون خلال فترة حياتهم بالكثير من الأعمال الصالحة ، ولكنهم ومن أجل أن يصلوا إلى السعادة الأبدية ، فإنهم لا يعتمدون أبداً على أعمالهم الصالحة ، بل إن أملهم ورجاءهم كله بالفضل الإلهي والرحمة الإلهية . لأنهم أولاً : لا يعرفون ما إذا كانت أعمالهم الصالحة قد تمت بنية خالصة لوجه الله ، وبالتالي فهم لا يعرفون ما إذا كانت أعمالهم تلك ستحظى بقبول الباري (تعالى) ورضاه أم لا . وثانياً : أنه على فرض أن تلك الأعمال الصالحة حظيت بقبول ورضى الله ، فإنهم لا يعرفون ما هي قيمة تلك الأعمال المقبولة عند الله ، وهل أن تلك الأعمال المقبولة يمكنها أن تفتح أمامهم طريق النجاة ، وتحقق لهم الفوز والسعادة (يوم القيامة) ؟ أما الإعتماد على الفضل الإلهي والرحمة الإلهية فهو يعني الارتباط بمصدر الرحمة الإلهية الواسعة ، هذه الرحمة التي إذا ما شملت الإنسان ، فإنها تمهد له سبيل السعادة بكل سهولة ويسر ، وتزيل من أمامه العقبات وتقوده إلى جنان الخلد .

الأمل بالرحمة والخوف من العذاب :

الإنسان المؤمن المؤمل لرحمة الله ، بالرغم من اعتماده واتكاله على الرحمة الإلهية اللامحدودة واللامتناهية ، فإنه يخشى أيضاً العذاب الإلهي ، ولا ينسى المعاصي التي ارتكبها ، ويعيش في خوف وهلع من العقاب الذي سيلحق به نتيجة ما ارتكبه من أعمال سيئة ، لأنه يعلم بأن الله إذا لم يعف عن ذنوبه فسوف ينال العذاب الإلهي ، وهذا المزيج من الأمل والخوف هو معنى حسن الظن بالله .

معنى حسن الظن بالله :

(سَمِعْتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول : «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَرْجُوَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ»^(١) .

(١) أصول الكافي : المجلد الثاني ، صفحة ٧٢ .

وكما نلاحظ ، فإنَّ الإمام الصادق عليه السلام - وفي معرض تبيينه لمعنى حسن الظنِّ بالله - يضع الرجاء إلى جانب الخوف ، ويتحدث عن كلا الجانبين - الخوف والأمل (الرجاء) - ، وبالتالي يجب على أتباع العقيدة الإسلامية - وفي مجال حسن الظن بالله - أن يربّوا أنفسهم على هذا النحو، وأن يهتموا دائماً وأبداً بهذين البعدين معاً ، ولكن هناك سؤال يتبادر إلى الذهن في هذا المجال ، وهو : لماذا يركز الإمام عليه السلام - وفي مجال الأمل بالرحمة الإلهية - جل اهتمام الأفراد المؤمنين بالخالق (سبحانه وتعالى) ولا يشير إلى العبادات والأعمال الصالحة التي قاموا بها . بينما في مجال الخوف من العذاب الإلهي يجلب انتباههم إلى ذنوبهم ومعاصيهم ولا يتطرق إلى الله ؟ .

ونجيب على ذلك بالقول : إنَّ أداء الواجبات والفرائض الدينية وتجنّب كل ما يجرّمه الدين ، يعتبر من وجهة نظر الفرد المؤمن عملاً يدخل في إطار العبودية والطاعة التي يؤديها لله (سبحانه وتعالى) ، وهذا التعبّد والطاعة لله من الممكن أن يجعل هذا الفرد المؤمن جديراً بالفضل والرحمة الإلهية ومستحقاً لهما ، وبالتالي يُمهّد للعفو عن ذنوبه وسنيئاته يوم القيامة . أمّا إذا أراد هذا الفرد المؤمن أن يعتمد على أعماله الصالحة ، وإذا تصور أن صحيفة أعماله إذا ما تم النظر فيها بدقة وصدر بشأنها حكم عادل ، فإن بإمكانه أن ينال السعادة الأبدية ، ويستحق بموجب ذلك جنان الخلد دون أن يكون بحاجة إلى الرحمة والفضل الإلهي ، فيجب أن نقول لمثل هذا الشخص : بأنك مخطيء جداً ، إذ لو كان هذا الأمر ممكناً لما مدَّ الإمام السّجّاد عليه السلام يد الرجاء والحاجة إلى الله ، ولما تضرّع إليه بالدعاء وهو يقول :

«فإنَّهُ لا طاقةَ لنا بِعَدْلِكَ ولا نَجاةَ لأحدٍ مِنّا دونَ عَفْوِكَ»^(١) .

وللإجابة على القسم الثاني من الحديث السابق المنقول عن الإمام

(١) الصحيفة السجّادية : الدعاء العاشر .

الصادق عليه السلام نقول : إنَّ خوف البشر من الله الذي تجتمع فيه جميع صفات الكمال لا يمكن أن يكون له معنى غير خوفهم من ذنوبهم ، لأن الناس يخافون من المقتدر الظالم لئلا ينالهم ظلمه .

والله (سبحانه وتعالى) هو مقتدر عادل منزّه من الظلم والناس يخشون المقتدر الجاهل لئلا يظلمهم وهو لا يدري ولا يعلم ذلك ، والله مقتدر عالم ومنزه عن الجهل ، وهم خائفون من المقتدر الذي يتبع أهواءه وميوله النفسية ، حيث أنه قد يلحق الضرر بالآخرين أحياناً نتيجة عمل تافه عابث يقوم به ، والله حكيم ، والحكيم لا يقوم بعمل عابث لا فائدة منه . والناس يخافون من صاحب القدرة الذي يطمع بالمال والمنصب الذي يتمتع به الآخرون أو يطمع بماء الآخرين وأرضهم من أجل التعويض عما ينقصه ويفتقر إليه ، يخافون منه لئلا يعتدي عليهم ، والله قادر غنيّ بذاته وهو (سبحانه وتعالى) لا ينقصه شيء ولا يفتقر إلى شيء .

إنَّ الخوف الذي يعتري أولياء الله والأفراد المؤمنين من الذات الإلهية المقدسة - وهو ما أشار إليه القرآن الكريم - ، هو خوف من المقام الشامخ للبارئ القادر المتعال :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (١)

(عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيَحْجُزُ ذَلِكَ عَنِ الْقَبِيحِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَذَلِكَ الَّذِي خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ) (٢) .

ويقول (سبحانه وتعالى) :

(١) سورة النازعات ؛ الآيتان : ٤٠ و ٤١ .

(٢) تفسير الصافي : صفحة ٥١٧ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي أن الله (سبحانه وتعالى) يحيط علماً بكل ما يقوم به البشر ، ولا يفوته أي عمل مهما كان بسيطاً . إنَّ مقامَ الله هو العلم والإطلاع ، وهو المشاهدة وهو الإحاطة بأفكار وأعمال البشر . وهو شبيه بالإشراف من المرصاد ، وهو حماية المظلوم ونبذ الظالم وطرده .

والخلاصة : فإنَّ مقامَ الله هو إثابة الخيرين الصالحين ، ومعاقبة الأشرار السيئين .

إذن ، فإن خوفنا من الله ليس سوى خوفاً من ذنوبنا التي نرتكبها عن عمد وبمحض إرادتنا ونجعل أنفسنا عرضة للعقاب الإلهي . وعلى ضوء ما ذكرناه آنفاً يتضح لنا مفهوم حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يقول فيه :
«حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَرْجُوَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ» .

والإمام علي عليه السلام أشار إلى نفس هذا الموضوع ضمن حديث خاطب به أصحابه ، قال فيه عليه السلام :

«لَا يَرْجُونَ أَحَدًا مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ وَلَا يَخَافُونَ إِلَّا ذَنْبَهُ»^(١) .

الخوف من المدعي العام العادل :

المدعي العام في أي مكان له مقام يمكنه - وبموجب القانون - من إقامة الدعوى ضد القاتل ، حيث يجلبه ويستدعيه للمحاكمة ، ويظل يلاحقه قضائياً ويتابع ملفه حتى يحكم عليه بالموت انطلاقاً من مبدأ القصاص ، وينفذ فيه حكم الإعدام شنقاً .

والمدعي العام يكون رجلاً عادلاً وصالحاً ذي أخلاق حميدة يتمتع بالفضيلة والعطف والرافة ، والناس لا يخشونه . أما القاتل الذي قتل شخصاً بريئاً ، فإنه يخاف بكل وجوده من المدعي العام لأنه يعلم بأن المدعي العام

(١) نهج البلاغة ، الكلمة : ٨٢ .

يستدعيه للمحاكمة ويُنزل العقاب بحقه . فهل أن القاتل يخاف من المدعي العام بشخصه أم يخاف من منصبه ومقامه ؟ بالطبع فإن القاتل يخاف من منصب المدعي العام ، هذا المنصب الذي يُحقّ الحقّ ويعيده إلى أصحابه ويعاقب القاتل . هل أن منصب المدعي العام نفسه يُلقي الخوف والرعب في قلب القاتل . أم جريمة القتل نفسها ؟ .

من الواضح أن القاتل خائف بسبب ارتكابه جريمة القتل ، ولو لم يكن قد ارتكب جريمة القتل لما كان يخاف من منصب المدعي العام . إذن ، نستنتج ما يلي :

أولاً : أن القاتل يخاف من منصب المدعي العام (وليس من شخص المدعي العام) .

ثانياً : مصدر الخوف لدى القاتل هو الجريمة التي ارتكبها ، أي أن المذنب يخاف فقط من ذنبه . فهكذا هو أسلوب تفكير أتباع العقيدة الإسلامية ، وهذه هي نظرتهم حيال مسألة الخوف من مقام الله . أي أن المؤمنين العارفين يخافون فقط من ذنوبهم ، لأنهم يعلمون بأن الذنوب هي التي تجعلهم يتعرضون للمؤاخذه والسؤال من قبل الله ، وبالتالي تجعلهم يتعرضون للعقاب يوم القيامة . وجدير بالذكر هنا أن أولياء الدين الكرام أوصوا أتباعهم وأكدوا عليهم بأن يوازنوا في ضمائرهم بين الخوف والرجاء لكي لا يصابوا باليأس وخيبة الأمل ، أو ينتابهم الغرور والتطرف .

لكن الأئمة عليهم السلام بشرّوا شيعتهم في الوقت ذاته بأن رحمة الله تسبق غضبه وتتفوق عليه ، وأن كفة عفو الله ورحمته ترجح على كفة عقابه وعذابه .

ونستشهد في هذا المجال بعبارتين وردتا على لسان الإمام السجاد عليه السلام في الصحيفة السجادية ، حيث يقول عليه السلام : «يا مَنْ عَفْوُهُ أَكْثَرُ مِنْ نَقْمَتِهِ وَيَا مَنْ رِضَاؤُهُ أَوْفَرُ مِنْ سَخَطِهِ»^(١) . كما يقول (صلوات الله وسلامه عليه) :

(١) الصحيفة السجادية : الدعاء الثاني عشر .

«أنتَ الَّذِي عَفَوْتَ أَعْلَىٰ مِنْ عِقَابِهِ وَأَنْتَ الَّذِي تَسْعَىٰ رَحْمَتُهُ أَمَامَ غَضَبِهِ
وَأَنْتَ الَّذِي عَطَاؤُهُ أَكْثَرُ مِنْ مَنَعِهِ» (١) .

العفو والمغفرة الإلهية :

هناك أسباب مختلفة تجعل المذنبين في يوم القيامة ينالون الرحمة الإلهية
الواسعة اللامحدودة ، وبالتالي تغفر لهم ذنوبهم . وبموجب الأحاديث الواردة
عن الأئمة عليهم السلام فإن حُسن الظن بالله هو أحد الأسباب التي تجعل الإنسان
يصل إلى فيض الرحمة والمغفرة الإلهية ، فالأفراد المؤمنون إذا ما ربّوا
ضمائرهم في هذه الدنيا على الأمل بالرحمة الإلهية ، وأضمرُوا في قلوبهم
الظن الحسن بالله ، فإن ذلك سيفتح أمامهم يوم الجزاء سبيل غفران ذنوبهم ،
حيث من المؤمل أن ينجوا من أهوال وعذاب يوم القيامة بفضل ما لديهم من
حسن ظن بالله ورجاء رحمته ومغفرته .

(سمعتُ أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول : «يؤتى بعبدٍ يومَ القيامةِ ظالمٍ
لنفسِهِ فيقول الله : ألم أمرُكَ بطاعتي ؟ ألم أنهك عن معصيتي ؟ فيقول بلى يا
رَبِّ ولكن غلبت عليَّ شهوتي فإن تعذَّبني فبِذَنبِي لم تظلمني فيأمرُ الله به إلى
النَّارِ فيقول : ما كانَ هذا ظني بك فيقول ما كانَ ظنُّكَ بي ؟ قال : كانَ ظني بك
أحسنَ الظنِّ فيأمرُ الله به إلى الجنَّةِ فيقولُ اللهُ تبارك وتعالى لقد نفعَكَ حُسن
ظنِّكَ بي السَّاعةِ» (٢) .

نستنتج من بحثنا السابق بأن حُسن الظن بالله ورجاء رحمته الواسعة هو
سبب لنجاة الإنسان في يوم الجزاء ولكن إلى جانب هذا الأمل بالرحمة الإلهية
وحسن الظن بالخالق . يجب أن لا ينسى الإنسان الخوف من عذاب الله وعقابه
على الذنوب لأنه إذا غفل الإنسان عن العقاب والعذاب الإلهي ونسي الخوف

(١) الصحيفة السجادية : الدعاء السادس عشر .

(٢) وسائل الشيعة : المجلد الحادي عشر ، كتاب الجهاد : صفحة ١٨٢ .

من عذاب الله ، فإنه يصاب بالغرور ويقف على حافة الهاوية والسقوط ، ولهذا السبب فإن الأئمة عليهم السلام كانوا يتحدثون دائماً وأبداً عن الخوف والرجاء ، ويوصون شيعتهم بالتحلي بالخوف والرجاء معاً .

(عن علي عليه السلام أنه قال لأصحابه : « إن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله ويحسن ظنكم به فاجمعوا بينهما فإنما يكون حسن ظن العبد بربه على قدر خوفه فإن أحسن الناس بالله ظناً أشدهم خوفاً فدعوا الأمانى منكم وجدوا واجتهدوا وأدوا إلى الله حقه وإلى خلقه فما مع أحد براءة من النار وليس لأحد على الله حجة ولا بين أحد وبين الله قرابة» (١) .

(١) مستدرک وسائل الشيعة : المجلد الثاني ، صفحة ٢٩٦ .

مصادر الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - إثبات وجود الله .
- ٣ - أخبار العلم (دانستیهای جهان علم) .
- ٤ - أمالي الشيخ الصدوق .
- ٥ - أمالي الشيخ الطوسي .
- ٦ - الإحتجاج للطبرسي .
- ٧ - أفكار فرويد (انديشه‌های فرويد) .
- ٨ - الإنسان ذلك المجهول .
- ٩ - بحار الأنوار للعلامة المجلسي .
- ١٠ - تلخيص المحصل .
- ١١ - تفسير الميزان للطباطبائي .
- ١٢ - تفسير نور الثقلين للحويزي .
- ١٣ - تفسير البرهان للبحراني .
- ١٤ - تفسير الصافي للكاشاني .
- ١٥ - تفسير الكشاف للزمخشري .
- ١٦ - تفسير المنار لرشيد رضا .
- ١٧ - تاريخ جامع أريان .
- ١٨ - تكون الشمس وموتها (پیدايش ومرگ خورشيد) .
- ١٩ - تفسير الدر المنثور للسيوطي .
- ٢٠ - تفسير مجمع البيان .
- ٢١ - ثواب الأعمال للصدوق .
- ٢٢ - جواهر الكلام ١/٤٣ .
- ٢٣ - الخصال للصدوق .
- ٢٤ - دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي .
- ٢٥ - سيرة ابن هشام .
- ٢٦ - سفينة البحار للقمي .
- ٢٧ - السماء والعالم .
- ٢٨ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
- ٢٩ - شرح منظومة السبزواري .

- ٤٧ - مرآة العقول للمجلسي .
- ٤٨ - مشكاة الأنوار للطبرسي .
- ٤٩ - مفردات الراغب الأصبهاني .
- ٥٠ - المبدأ والمعاد .
- ٥١ - المادة والطاقة .
- ٥٢ - مستدرك الوسائل للنوري .
- ٥٣ - معرفة المجتمع .
- ٥٤ - مذكرات الشهيد المطهري .
- ٥٥ - معاني الأخبار للصدوق .
- ٥٦ - مكارم الأخلاق للطبرسي .
- ٥٧ - مجمع البحرين للطريحي .
- ٥٨ - المجالس الفاخرة لشرف الدين .
- ٥٩ - مجموعة ورام .
- ٦٠ - نفس المهموم .
- ٦١ - النجوم للجميع (نجوم برای همه) .
- ٦٢ - نهج البلاغة .
- ٦٣ - وسائل الشيعة .

- ٣٠ - شوهد الربوبية .
- ٣١ - صحيفة إطلاعات الإيرانية ،
- ٣٢ - صحيفة كيهان الإيرانية .
- ٣٣ - الصحيفة السجادية .
- ٣٤ - طريق الحياة (راه ورسم زندگی) .
- ٣٥ - الطبقات الكبرى لابن سعد .
- ٣٦ - علم اليقين للكاشاني .
- ٣٧ - العدل الإلهي المطهري .
- ٣٨ - عيون أخبار الرضا للصدوق .
- ٣٩ - غرر الحكم للآمدي .
- ٤٠ - كتاب البسيكولوجي .
- ٤١ - كلمات مكنونة .
- ٤٢ - لسان العرب .
- ٤٣ - لماذا لست مسيحياً (چرا مسيحي نیستم) .
- ٤٤ - لنالئ الأخبار .
- ٤٥ - ماذا أعلم (چه میدانم) .
- ٤٦ - مشكلات العلوم للنراقي .

الفهرس

المحاضرة الحادية عشرة

٥ نهاية العالم
٥	العالم وبدايته ونهايته
٦ عمر السموات والأرض
٧ الأجل المحتوم والأجل غير المحتوم للإنسان
٨ المصير الذي لا مفر منه
١٠ إنقراض الأجناس
١٠ أجل الأمم
١١ مقارنة بين موت الإنسان وموت الكون وزواله
١٢ العمر المنقضي والمتبقي للشمس
١٢ تغير نسبة أو كمية الإشعاعات الشمسية
١٤ درجة حرارة الأرض في المستقبل
١٤ زوال العالم وانقراض البشرية
١٧ الانفجارات الكونية الهائلة
١٨ نظريات حول الانفجارات الكونية
١٩ التفاعلات الحرارية

٢٠	الإرادة الإلهية في الخلق
٢١	الموت ودوره في زوال العالم
٢٢	الصيحة المفاجئة
٢٢	هلاك الأمم السابقة
٢٣	موت القوم الظالمين
٢٤	صوت انفجار القنبلة
٢٤	ما يقوله العلماء حول الأمواج الصوتية
٢٥	البشر والأمواج الصوتية المسموعة
٢٥	الأمواج التي يستطيع أن يسمعها الإنسان
٢٦	قوة السمع عند الحيوانات
٢٧	الأمواج الصوتية والكائنات الحية
٢٧	تأثير الأشعة (الأمواج) ما وراء الصوتية
٢٨	الصيحة المميتة وانقراض العالم
٢٩	الصيحة الثانية تقع يوم المحشر (يوم القيامة)
٢٩	النفخ في الصور
٣٠	مصدر الأمواج الصوتية
٣٠	إسرافيل والنفخة المدمرة
٣١	الأمر التكويني من قبل الله
٣١	التقدم العلمي يقرب هذا الموضوع للأذهان
٣٢	مختبرات توليد الأمواج ما وراء الصوتية
٣٣	الطاقة الكهربائية ودورها في بثّ الأمواج الصوتية
٣٤	ما هو صور إسرافيل
٣٥	ثقوب الصور هي بعدد الأرواح
٣٥	النور وانتشار الأمواج الصوتية
٣٨	أمر مبهم ومجهول
٣٨	نظرية انفجار الشمس

٣٩	إحتمال يفتقر إلى الدليل والإثبات
٤١	يوم صعب وعسير

المحاضرة الثانية عشرة

٤٢	حياة الآخرة والنظام الجديد
٤٢	وضع البشر قبل نفخة الصور
٤٣	يوم الخوف والهلع
٤٣	الزلازل المرعب العظيم
٤٣	الخوف والشيب المبكر
٤٤	النفخة التي تنهي العالم
٤٤	النفخة التي تحيي الموتى
٤٦	نفخة الصور لها أثرين متناقضين
٤٧	عدم معرفتنا بحقيقة الصور
٤٨	إرادة الله في إعادة الحياة إلى البشر
٤٩	المعاندون وتصورهم المفروض
٤٩	الفرق بين قوانين الدنيا وقوانين الآخرة
٥١	الخلية الأساسية التي يتكون منها الكائن الحي
٥١	الطينة أو العنصر الثابت
٥٢	شبهات حول الطينة
٥٢	الجزء الأساسي في الإنسان
٥٣	الحقيقة المجهولة
٥٣	العوامل الوراثية البعيدة
٥٥	الحقيقة التي لا تتغير
٥٥	خروج الموتى من بطن الأرض
٥٧	هطول مطر الحياة
٥٨	الإنسان والتطورات الطبيعية
٥٩	تناوب الموت والحياة

٥٩	الآخرة والحياة المطلقة
٦٠	عندما تتكلم الأرض
٦١	إنبعث الحياة في ذرات الأرض
٦١	شجرة طوبى
٦٢	الشجرة التي تنمو في النار
٦٣	أعلى مدارج الحياة
٦٣	الفرق بين الإنسان النائم والإنسان اليقظ
٦٤	عالم الآخرة وتكامل الإنسان
٦٤	في يوم القيامة يصبح الباطل ظاهراً مكشوفاً
٦٥	مفهوم العذاب الأبدي
٦٦	الإنسان الذي يبيع نفسه
٦٧	عندما تتحرك الغريزة يزول العقل
٦٨	الإنسان الغافل أضل من الحيوان
٦٨	الأنبياء وتقوية العقل
٦٩	التغلب على أهواء النفس
٦٩	العمل على أساس العدل
٧٠	العقل أسير هوى النفس
٧٠	الأشخاص السيئو الخلق يحشرون على هيئة حيوانات
٧٢	معيار الإختلاف في الأشكال يوم القيامة
٧٣	ثقوب النور وثقوب الظلام

المحاضرة الثالثة عشرة

٧٥	المعاد وأصحاب المدارس المختلفة ، شبهات حول المعاد
٧٥	المدرسة المادية
٧٦	نفي وجود الروح الخالدة
٧٧	كلام (بروسه) حول الروح

٧٧	الإعتقاد بوجود الله كمجرد نظرية
٧٩	الماديون
٨٠	ما يقوله الماديون
٨١	حول كلام الدكتور أراني
٨٢	التعارض بين الشيوعية والرأسمالية
٨٢	الثورة الإسلامية في إيران
٨٤	كلام للدكتور كارل
٨٤	تحليل للدكتور أراني
٨٥	كلام يجافي الحقيقة
٨٧	الإلهيون الذين ينفون وجود المعاد
٨٨	القرآن يرد على منكري المعاد
٨٩	الإلهيون الذين يؤمنون بالمعاد
٩٠	نشوء علم الكلام
٩١	ترجمة الكتب الفلسفية
٩٢	نظريات حول المعاد
٩٢	ابن سينا والمعاد الجسماني
٩٢	وجهة نظر المتكلمين وأهل الحديث حول المعاد
٩٢	المعاد الجسماني والروحاني
٩٤	تفنيد أدلة المنكرين للمعاد
٩٤	كلام للإمام الصادق (ع)
٩٥	شبهة الأكل والمأكل
٩٥	المتكلمون يردون على هذه الشبهة
٩٥	تأييد ما قاله المتكلمون
٩٥	رد من صدر الدين الشيرازي
٩٦	كلام لفيض الكاشاني
٩٦	تغير أجزاء الجسد

٩٧	الـ «أنا» هي الأصل الذي لا يتغير في الإنسان
١٠٠	معيار العقاب والثواب
١٠٠	كلام للمحقق «دواني»
١٠١	المعاد الجسماني ضرورة من ضروريات الدين
١٠١	الثواب الروحي والجسدي
١٠٢	رضوان الله
١٠٣	عقاب الروح
١٠٤	المعاد أو المصير المحتوم
١٠٥	العمر الذي ينقضي بسرعة
١٠٥	الدنيا المؤقتة العابرة
١٠٦	تشبيه الحياة بالنوم
١٠٧	الصحة النافعة والمثمرة

المحاضرة الرابعة عشرة

١٠٨	تغير القوانين التكوينية (الطبيعية) ، تجسيد الأعمال
١٠٨	العالم والقوانين التكوينية
١٠٩	القوانين التشريعية
١١٠	ثلاثة أيام مرعبة
١١١	الآخرة والقوانين الجديدة
١١١	نور الشمس مصدر الحياة
١١٣	الفرق بين حياة الدنيا وحياة الآخرة
١١٣	الضوء المحبب في الجنة
١١٤	الهواء المعتدل في الجنة
١١٥	نعم الجنة
١١٥	تجسد الأعمال
١١٦	عالم البرزخ وتجسد الأعمال
١١٦	تجسيد الأعمال والنوايا

١١٧ العمل وصاحب العمل
١١٧	جمال العمل الصالح
١١٨ الأعمال تحدث صاحبها
١١٨ نظرية الفلاسفة والمتكلمين
١١٨	بحث الجوهر والعرض
١٢٠	تأويل الآيات والروايات
١٢٠	حول رؤية الأعمال
١٢١	من كلام الشيخ البهائي
١٢١ النبي (ص) يعظ قيس بن عاصم
١٢٢ تجسد الحسنات والسيئات
١٢٣ المحدثين تأثروا بالفلاسفة
١٢٤	الإختلافات الموجودة بين الدنيا والآخرة
١٢٥ الدنيا المؤقتة والآخرة الخالدة
١٢٥	يوم تنكشف الأسرار
١٢٦	كلام لصدر المتألهين
١٢٧	سؤال يطرح نفسه
١٢٧	الجواب على السؤال
١٢٨	تجسد الأخلاق
١٢٩	العلم الحديث وتجسد الأعمال
١٣٠	العلاقة بين المادة والطاقة
١٣١	قانون بقاء الطاقة
١٣٣	تحويل المادة إلى طاقة
١٣٤	نظرة الفلاسفة وعلماء الفيزياء
١٣٥	بقاء العمل أو بقاء الطاقة
١٣٦	وظائف القلب وجوارح البدن
١٣٧	الوجود الأصيل للطاقة

المحاضرة الخامسة عشرة

١٤١	القرآن وأسماء القيامة
١٤١	اليوم العصيب
١٤٢	القرآن وأسماء القيامة
١٤٣	منطق الذين ينكرون المعاد
١٤٤	كلام الأنبياء
١٤٤	يوم حق ومؤكد الوقوع
١٤٤	مالك يوم الجزاء
١٤٥	الحكم المطلق لله
١٤٥	الظلم دليل على الضعف والعجز
١٤٥	يوم ينفصل الصالحون عن الفاسقين
١٤٦	الإنسان والحياة الفردية والاجتماعية
١٤٦	المجتمع والبلاء الشامل
١٤٨	الإستغناء عن شرار الخلق
١٤٨	الإلتزام بالعدل تجاه الصديق والعدو
١٤٩	ضرورة وجود إشراف عام
١٤٩	الوقوف بوجه العصاة والمذنبين
١٥٠	العذاب الذي يلحق بالأشرار والأحياء
١٥١	النفع والضرر الفردي
١٥٢	الوجوه الناضرة
١٥٣	ملامح المذنبين
١٥٤	يوم الحسرة
١٥٥	مزرعة الآخرة
١٥٦	العمر الضائع
١٥٦	استغلال فرصة الحياة الدنيا

١٥٧	النقطة الجديرة بالإهتمام
١٥٧	الندامة التي لا تنفع
١٥٨	أقصى درجات الندم
١٥٩	يوم الحسرة والندامة
١٦٠	خطر جليس السوء
١٦٠	يوم الخسران
١٦٢	القيامة يوم المواجهة
١٦٣	عندما يلتقي أهل السماء بأهل الأرض
١٦٣	القيامة يوم المظلوم
١٦٥	الخطأ في التقييم
١٦٥	التجارة الخاسرة
١٦٦	أثر القوة المعنوية
١٦٩	سلامة القلب بكافة أبعاده

المحاضرة السادسة عشرة

١٧١	القيامة ومواقف الحساب
١٧١	عالم النوم وعالم اليقظة
١٧٢	الإستيقاظ المرعب
١٧٤	العقاب المشين
١٧٥	أنواع الظلم الثلاثة
١٧٦	الشرك ذنب لا يغفر
١٧٧	كلام للإمام السَّجَّاد (ع) عن المشركين
١٧٨	الشهيد والدين المالي
١٧٨	الإمام والدين الذي بذمة المتوفى
١٧٩	السؤال عن العمر والشباب
١٨٠	السؤال عن الأمور المالية

١٨٠	المجتمع ودور المال
١٨١		الكسب الذي يؤدي إلى فساد المجتمع
١٨١		المقاومة في الجاهلية
١٨١	الشخص المدين يتعذب بعد الموت
١٨٣		موظف حكومة بني أمية
١٨٤	حب أهل البيت
١٨٥	أصحاب الكساء
١٨٦	أجر نبي الإسلام (ص)
١٨٦	الأحاديث المنقولة عن مصادر أهل السنة
١٨٦	أمانة الكتاب والعترة
١٨٧	سؤال يطرح نفسه
١٨٨	المودة بعد المعرفة
١٨٩	مثال توضيحي
١٩١		دوافع الإستعلاء
١٩٢	كلام النبي (ص) حول أهل البيت
١٩٣	السؤال عن النعمة
١٩٣		تنبيه للأزواج والزوجات
١٩٥	الإنسان يُسأل يوم القيامة حتى عن الحيوانات
١٩٦	حقوق الحيوانات
١٩٨	الإنسان وإعمار الأرض
١٩٩		كفران النعم وظلم المجتمع
١٩٩		ملخص البحث

المحاضرة السابعة عشرة

٢٠١	القيامة وعقاب الظالمين ، صحيفة أعمال الأفراد والأمم
٢٠١	إرضاء الغرائز بشكلٍ لا محدود
٢٠٢		الظالم في مسرح القيامة

٢٠٢	موضوعين من وجهة النظر المادية
٢٠٣	كل شيء موجود في اللوح المحفوظ
٢٠٤	البشر وعالم الخيال
٢٠٥	الإرادة الإلهية
٢٠٦	محكمة العدل الإلهي
٢٠٧	الكائنات الحية والهداية التكوينية
٢٠٨	الإنسان والهداية التشريعية
٢٠٩	الحياة والموت الطبيعي
٢٠٩	الأنبياء والحياة الإنسانية
٢١٠	الصراط التكويني المستقيم
٢١٠	الصراط التشريعي المستقيم
٢١٢	العلاقة بين الفكر والعمل
٢١٣	القيامة وصحيفة الأعمال
٢١٣	الأعمال المنسية
٢١٤	العلم الإلهي وأعمال البشر
٢١٤	محو أو تثبيت الأعمال
٢١٥	تسجيل أعمال الناس
٢١٦	سن السنة الحسنة والسنة السيئة
٢١٧	الخير والشر بعد الموت
٢١٨	الآثار الباقية
٢١٨	العلم الذي ينتفع به
٢١٩	الصدقة الجارية
٢١٩	الصدقة الجارية للأموال
٢٢٠	دعاء الولد الصالح
٢٢٠	عمل الخير الذي يقوم به الأبناء
٢٢١	إنقاذ الوالد من العذاب

٢٢٢	أوجه الإشتراك بين الفرد والأمة
٢٢٢	أجل الأفراد والأمم
٢٢٣	صحيفة عمل الفرد والأمة
٢٢٣	الشاهد على الفرد والأمة
٢٢٣	وحدة الأسلوب
٢٢٤	موقع الفرد في المجتمع
٢٢٥	خصائص عرب الجاهلية
٢٢٦	محاكمة الفرد والأمة
٢٢٧	صحيفة أعمال الأمة
٢٢٧	وأد البنات
٢٢٨	الجريمة الرهيبة
٢٢٩	الرضى عن الجريمة
٢٢٩	سؤال بلا جواب
٢٣١	صحيفة الأعمال أو كتاب الروح
٢٣٢	الإطلاع على المصير
٢٣٣	كتاب الأبرار وكتاب الفجار
٢٣٤	رمز الطهارة والإخلاص

المحاضرة الثامنة عشرة

٢٣٦	النية وتقييم الأعمال
٢٣٧	سؤال وجواب
٢٣٧	طلاب الدنيا وطلاب الآخرة
٢٣٨	خدمة الناس لوجه الله
٢٣٨	الخدمة إرضاء لهوى النفس
٢٤٠	النوايا الحسنة والأجر الأخروي
٢٤٠	أعمال كالسراب
٢٤١	الذنب الذي لا يغفر

٢٤٢ معنى الإخلاص في العمل
٢٤٣	تنزيه العمل من الدّنس
٢٤٤ عبادة الأحرار
٢٤٦ جزاء المرأين
٢٤٦ الظاهر الحسن والباطن القبيح
٢٤٦ أجر العلماء
٢٤٧	عندما تحبط الأعمال الصالحة
٢٤٨ ذكر الأعمال الصالحة
٢٤٩ حبوط الأعمال
٢٤٩ الشرك بالله
٢٥٠	الإرتداد عن دين الله
٢٥٠	الكفر بآيات الله
٢٥٠	قتل دعاة الحق
٢٥١	الصد عن سبيل الله
٢٥١	التعلق الزائد بالدنيا
٢٥٣ حبط الأعمال في الدنيا وفي الآخرة
٢٥٣ تكفير السيئات
٢٥٤ إمحاء الذنوب
٢٥٤	الذنوب التي تسبق اعتناق الإسلام
٢٥٥	التكفير عن الذنوب بالإستشهاد
٢٥٥	التفكير عن الذنوب الصغيرة
٢٥٥	توبة القلب واللسان
٢٥٦ قاطع الطريق التائب
٢٥٧	الصدقات الواجبة والمستحبة
٢٥٧	الصدقة المعلنة لترغيب وتشجيع الآخرين
٢٥٨ الإستقرار النفسي نتيجة حبوط وتكفير الأعمال

٢٥٩

نور الخوف والأمل

٢٦٢

الحر بن يزيد الرياحي

المحاضرة التاسعة عشرة

- ٢٦٤ القيامة وحكومة العدل الإلهي ، شهداء يوم النشور
- ٢٦٤ الحياة الإجتماعية وتحديد الرغبات
- ٢٦٥ الطمأنينة في ظل القانون
- ٢٧٠ القضاء المنزه عن الظلم
- ٢٧٠ منشأ الظلم
- ٢٧١ الذات الإلهية المنزهة عن الظلم
- ٢٧١ الثواب والعقاب على أساس الإستحقاق
- ٢٧١ العفو الإلهي عن المذنبين
- ٢٧٤ أجر سبعمئة مثل وأكثر
- ٢٧٤ علاقات القرابة
- ٢٧٤ الآباء والأبناء
- ٢٧٥ المال والبنون
- ٢٧٨ بصمات أصابع المجرم
- ٢٧٩ المجرمون ومسرح القيامة
- ٢٧٩ السؤال من الأنبياء والأمم
- ٢٨٠ المشركون يقسمون كذباً
- ٢٨٠ المجرمون يكذبون شهادة الملائكة
- ٢٨١ المجرمون يحتجون على جوارحهم
- ٢٨١ الجوارح ترد على المجرمين
- ٢٨٢ الكذابون في الدنيا وفي الآخرة
- ٢٨٣ الشاهد على الذنوب هو القاضي في يوم الجزاء
- ٢٨٤ الشهود في يوم النشور
- ٢٨٤ الشهود على الأمم

٢٨٤	الجوانب المشتركة بين الأفراد والشعوب
٢٨٥	الشاهد على أمة الإسلام
٢٨٦	الأئمة شهود على الأمة والنبي (ص) شهيد على الأئمة
٢٨٦	الشهود على الأفراد
٢٨٧	شهادة الملائكة
٢٨٧	شهادة الأرض
٢٨٨	المسجد يشهد للمصلي فيه
٢٨٩	والأيام تشهد على الإنسان
٢٨٩	شهادة النعم
٢٩٠	عبارات من الصحيفة السجادية

المحاضرة العشرون

٢٩١	الأمل بالرحمة الإلهية أم حسن ظن بالله
٢٩١	القيامة والأحكام الإلهية
٢٩١	العدل الإلهي والحساب الدقيق
٢٩٣	نتيجة الرفق بالمدين المعسر
٢٩٤	دعاء من الصحيفة السجادية
٢٩٦	حسن الظن بالله
٢٩٧	كلام رجل يحسن الظن بالله
٢٩٩	الذنوب التي تتعارض مع الضمير
٣٠٢	الحاكم الأموي وقتله الشخص البريء
٣٠٦	الأنبياء والخوف والرجاء
٣٠٦	حديث الطبيب مع المريض
٣٠٩	معيار الأمل بالرحمة الإلهية والخوف من العقاب الإلهي
٣١٠	الرحمة والعقاب الإلهي
٣١٠	التحرك بين الخوف والرجاء

٣١٢	الأمل بالرحمة والخوف من العذاب
٣١٢	معنى حسن الظن بالله
٣١٥	الخوف من المدعي العام العادل
٣١٧	العفو والمغفرة الإلهية
٣١٩	الفهرس